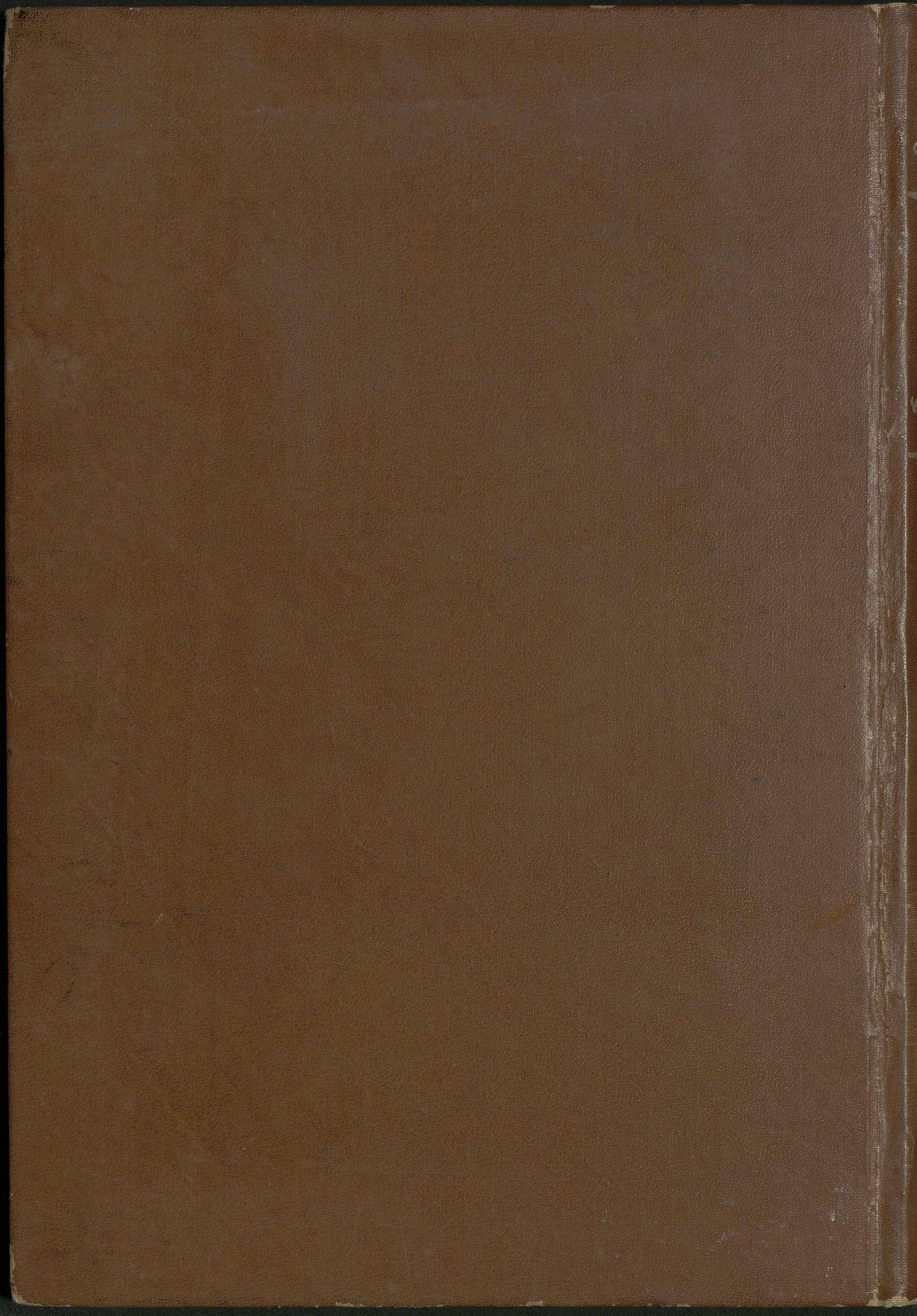
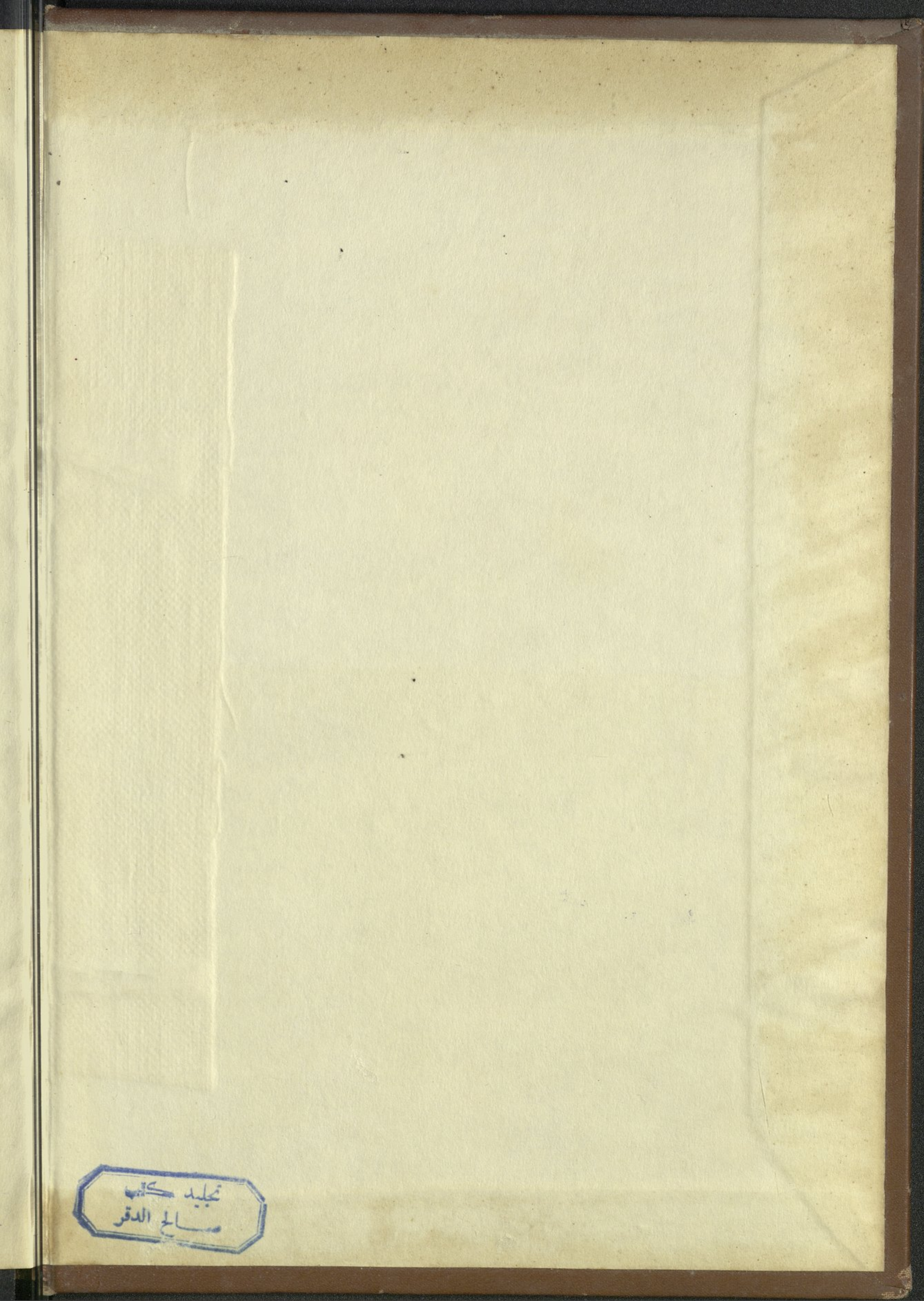
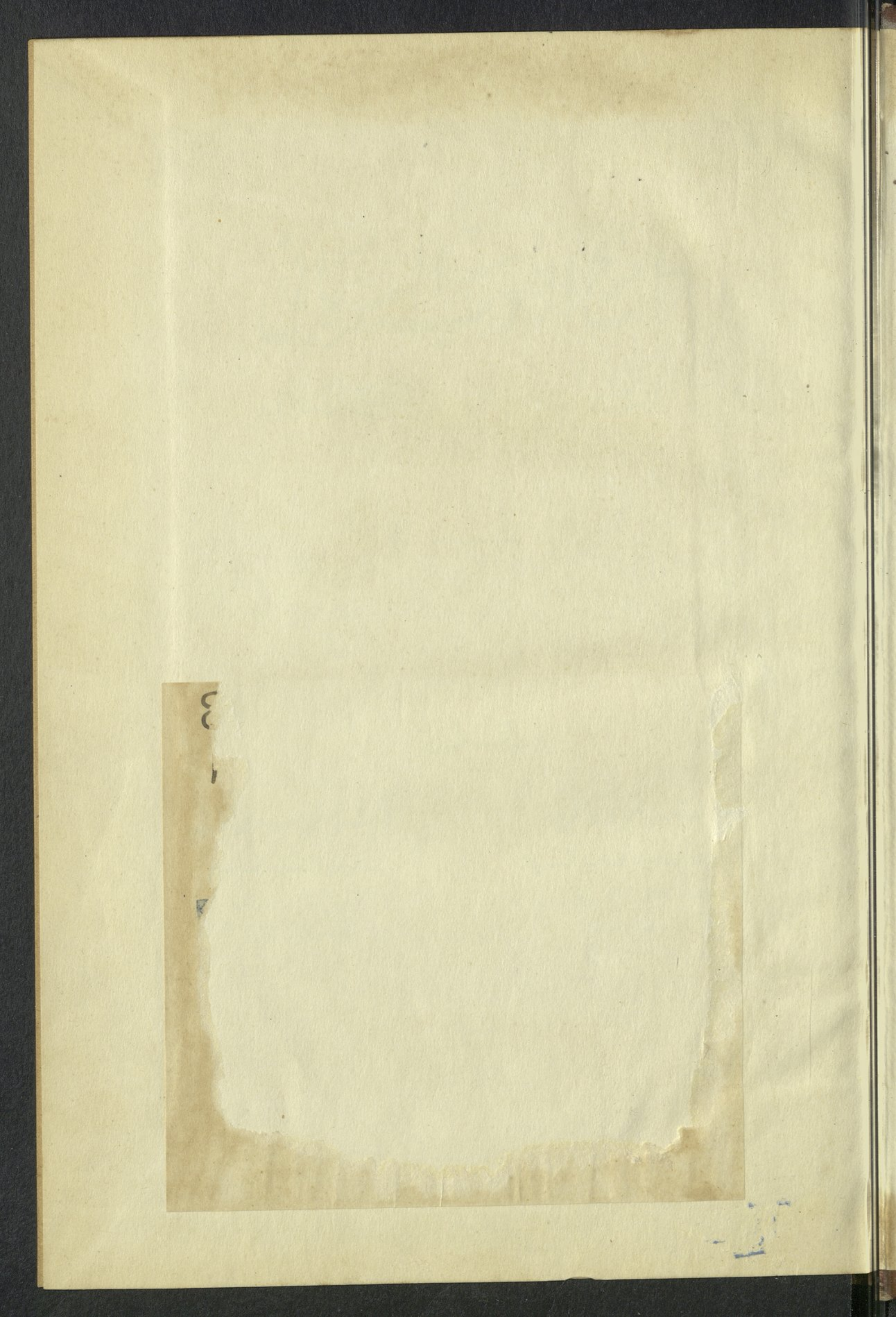
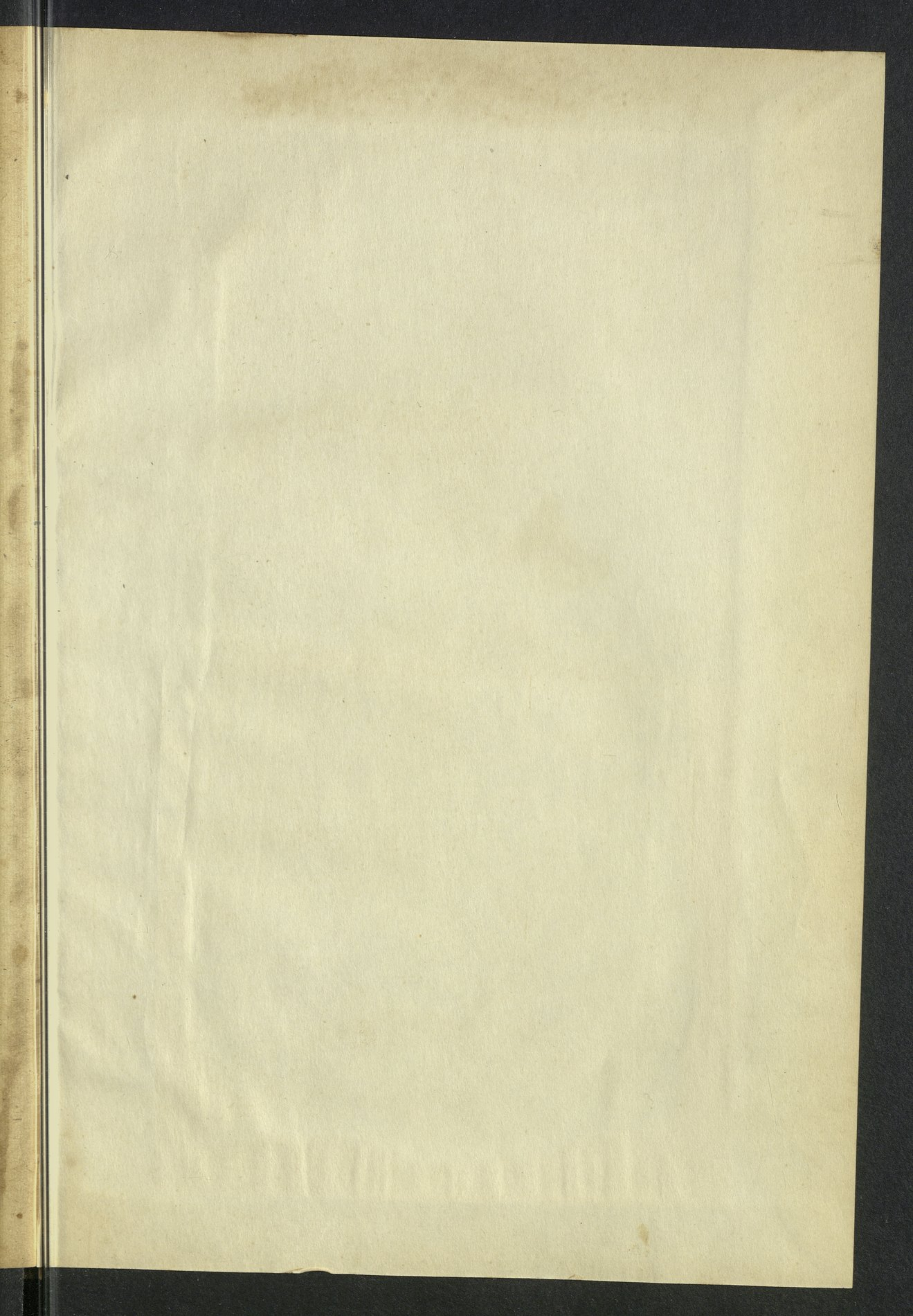



تجليد كتب
صالح الدقر





تاريخ الأدب السرياني

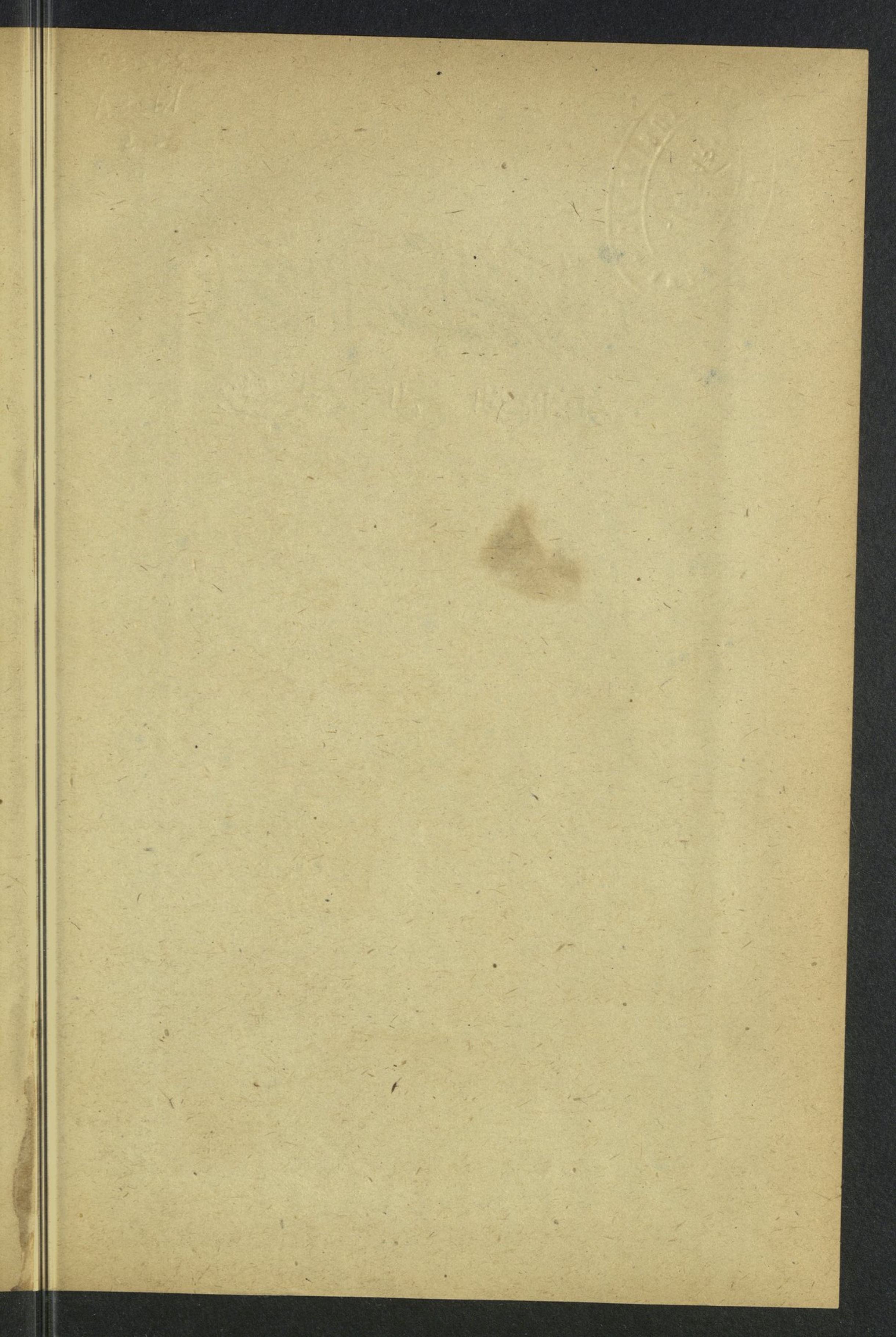
من نشأته الى الفتح الإسلامي

بقلم

دكتور مراد كامل
الأستاذ المساعد للغات السامية
معهد اللغات الشرقية
جامعة فؤاد الاول

دكتور محمد حمدى البكرى
مدرس اللغات السامية
معهد اللغات الشرقية
جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر
١٩٤٩





لا بدَّ لمن يدرس أدب السريان أن يلمّ إلمامة قصيرة بهذه اللغة التي صدر عنها ذلك الأدب ، وإلى أي أسرة من اللغات تنتمي ، ومن أي مجموعة نبتت هذه الأُسرة . فاذا بلغ من ذلك ما يريد ، كان عليه أن يدرس شيئاً عن هذه الأسرة ، وما تفرَّع عنها من فروع غير سريانية .

واللغة السريانيــة التي نتناول آدابها بالبحث في هذا الكتاب هي إحـدى اللهجات الآرامية . والآراميــة لغة من مجموعة اللغات التي اتفق العلماء على أن يطلقوا عليهـا اسم اللغات السامية .

أما موقع اللغة الآرامية من اللغات السامية الأخرى فنستطيع استجلاءه باستعراض التقسيم الذي اصطُلح عليه للغات السامية . فاللغات السامية قسمان : شمالي وجنوبي . أما الشمالي فينقسم الى شعبتين : شرقية ـ وتشتمل على اللغة الأكّـدية بقسميها البابلية والأشورية . وغربية ـ وتشتمل على اللغة الأُجَريتية (وهي لغة نقوش راس شمرا)، والفينيقية والعبرية والآرامية . وأما القسم الجنوبي فيضمّ اللغة العربية ، ولغة نقوش بلاد العرب الجنوبية ، واللغات السامية الموجودة في بلاد الحبشة .

والآراميون هم ثالث فرع نبت في شجرة الأمم السامية . وكان أول ذكر لهم في نصوص أسفينية ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهم يُذكرون فيها على أنهم منتشرون في الصحراء الواقعة غربي ما بين النهرين ، وأنهم كانوا في أول أمرهم قبائل رُحَّلاً ينتقلون في البادية — كالعبريين وبقية الأمم السامية — بين نجْد في الجنوب ، وحـدودِ الشام في الشمال ، ونهر الفرات في الشرق ، وخليج العقبة في الغرب ، وأن ظروف الصحراء كانت تضطرُّهم الى الالتجاء الى الحضر في بعض الأحيان فيدخلونه مُغِيرين ، وقد استطاعوا في

إحدى إغاراتهم أن يكوّنوا إمارة بين بابل والخليج الفارسي عرفت باسم كَلْد، ومنها اشتق اسم الكلدانيين. وبعد سقوط دولة الميتنّي حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م دخل الآراميون ما بين النهرين، وعُرفوا باسم آرام النهرين ، وكان تغلغلهم في هذه الأرجاء قد سبق سقوط دولة الميتَني. وترجع هجرة قبيلة ابراهيم الخليل — من أور في بلاد الكلدانيين الى حرّان — الى واحدة من هذه الهجرات .

وكذلك أغار الآراميون على الشام وتوغلوا فيها في الوقت الذي كان الصراع فيه قائماً بين الدويلات الكنعانية ، وتمكنوا من الوصول الى شمال الشام وكوّنوا دويلات عدة آرامية صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، ومنها إمارة سمأل بين أنطاكية ومرعش ، ومكانها الآن بلدة زنجرلي . وفي أواخر القرن العاشر قبل الميلاد استولى الآراميون على دمشق وأسسوا فيها مملكة كان لها دور مهمّ في تاريخ ذلك الحين ، وبخاصّة في محاربة الفينيقيين والاسرائيليين والتغلب عليهم ، وكذلك لعبت دوراً مهمّاً في شئون التجارة . فقد كان البدو من أهلها ينقلون التجارة بين المراكز المختلفة مثل دمشق وحماة وحلب الى بلاد نهر الفرات ، وكانت تدمُر مركزاً من هذه المراكز. وقد وصل هؤلاء البدو الى واحات بلاد العرب الشمالية وتركوا بعض النقوش في تيماء .

ولما استولى البابليون على مملكة دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد نقلوا الى بلادهم عدداً كبيراً من مهرة الآراميين للاستعانة بهم، وقد عبّر القدماء عن ذلك بعبارة « السبي البابلي ». وقد استقرّ الآراميون في مملكة بابل ونشروا لغتهم حتى غلبت على اللغة البابلية والأشورية، وتخلّد النقوش الأسفينية من عهد سرجون (فيما بين سنتي ٧٢٢، ٧٠٥ ق . م) عدداً من الأسماء الآرامية كان أصحابها يحترفون التجارة في مملكة أشور . وبعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق . م . أصبحت بلاد أشور آرامية . وكان من الشائع في بابل أن تكتب العقود باللغتين البابلية والآرامية .

وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد تمّ للفرس الاستيلاء على الشرق وسقطت في أيديهم مدينة بابل سنة ٥٣٨ ق . م . في عهد الأسرة الأكمينية التي يطلق عليها العرب اسم أسرة الكيانيين ، وكانت اللغة الآرامية شائعة في الشرق كله حتى بين طبقة الحاكمين من

الفرس ، فاستعملوها لغة للتفاهم بين أجزاء الامبراطورية ، فأصبحت بذلك لغة المكاتبات الرسمية .

وقد وقعت مدينة البتراء تحت تأثير الآراميين ، وكانت عاصمة بلاد النبط . والنبط عرب اتخذوا الآرامية لغة للكتابة وربما كانوا قد تكلموا بها أيضاً .

ويقوم النزاع بين الفرس والروم ، وتكون بلاد الآراميين مسرحاً له ، فهي حيناً في أيدي الفرس ، وحيناً في أيدي الروم ، وتخرب الحرب بلادهم ، ويتأثرون بحضارة الفرس والروم وثقافتهم ، ويصبحون بذلك ورثة الحضارات الأشورية والبابلية والفينيقية والفارسية واليونانية ، وكانوا يتأثرون خطا هذه الحضارات ويضفون عليها نوعاً من التطور ؛ أما لغتهم فإنها كانت تفرض نفسها على سائر اللغات فأبادت اللهجات الأكدية والكنعانية . وكانت قوتها كامنة في بساطة أبجديتها ، وسهولة نحوها وصرفها ، ولذلك فقد كانت الآرامية لغة الأقوام العمليين النشيطين الرحل الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا موظفين أكفاء أعانوا الفرس على إدارة امبراطوريتهم .

ولم تكن الآرمية لغة الامبراطورية الفارسية الرسمية فحسب ، وإنما كانت لغة دولية — إن صح هذا التعبير — نعلم ذلك من الكتاب المقدس . فقد جاء في سفر الملوك الثاني (١٨ : ٢٦) وأشعيا (٣٦ : ١١) أنه في سنة ٧٠١ ق . م . لما حاصر سنحاريب بيت المقدس في عهد حزقيا كان الشعب يتكلم الآرامية وكانت أرستقراطية اليهود تعرف الآرامية ، وكان موظفو سنحاريب يعرفونها أيضاً .

وقد تبع انتشار الآرامية واتصال أصحابها بغيرهم من الأقوام أن تولدت منها لهجات عدة يمكن أن نميز بينها تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والدين . والحضارة وقد اختلفت الآراء في تقسيم اللهجات الآرامية ، فيقسمها «نولدكه» الى شرقية وغربية ، واللهجات الشرقية عندة هي لهجات التلمود البابلي والسريانية والمندعية ، وما عداها فهو غربي . ومع ذلك فالواقع أن الخلاف بين اللهجات الآرامية لم يتخذ شكلاً واضحاً إلا في عصر متأخر وهو العصر الذي يبدأ تقريباً بظهور المسيحية ، وعلى ذلك وجب استبعاد اللهجات الآرامية القديمة لتقاربها ، وهي لهجة زنجيرلي ، والآرامية التي استعملها الفرس في دواوينهم والتي

يسميها العلماء الآن بالآرامية الدوليـة ، وآرامية أوراق البردي التي وُجدت في جزيرة الفنتين بأسوان ، وآرامية الـكتاب المقدس . ونستطيع بعد ذلك أن نقسم اللهجات الآرامية الى شرقية وغربية. أما الشعبة الشرقية فتضمُّ لهجة الرُّها الآرامية وكان موطنها ما بين النهرين وسميت بعـد ظهور المسيحية بالسريانية ، ولهجه آرامية يهودية بابلية هي لهجة التلمود البابلي كان موطنها شمالي العراق ، ولهجة الصابئين الآراميـة وهي اللهجة المندعية وموطنها جنوبي العراق .

أما الشعبة الغربية فتضم دويلتين لسانهما آرامي وهما تدمر والنبط . وقد وصلت إلينا لغتهما عن طريق النقوش فقط . وثلاث لهجات أدبيـة وهي اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ، والسامرية ، والملكية أو الآرامية الفلسطينية المسيحية .

وأقدم ما وصل الينا من الـكتابات الآرامية مستخرج من حفائر زنجيرلي وهي عاصمة مملـكة سمأل ، وهي الآن قرية في سوريا الشمالية قريبة من عنتاب شمالي حلب . وترجع هذه الـكتابات الى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد وهي للملك بنمـّو ملك سمأل وابنه برركوب . وكانت مملـكتهما خاضعة للأشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد .

وهناك كتابات وجدت في نيراب من أعمال حلب ، وهي من كتابات القبور كتبت في القرن السابع قبل الميلاد لـكاهنيْ القمر شنزربن وأجبر .

وقد وُجدت في تيماء بنجد في شمالي جزيرة العرب صـورة لـكاهن مع نقشين أحدهما كبير والآخر صغير . وثلث النقش الـكبير معدوم . وقد جاء فيما بقي سالماً أن آلهة تيماء أعطوا كاهن « صَلْم » مكاناً ومالاً في بيت صلم للأبد ، وأن الصورة صورة الـكاهن . وترجع هاتان الـكتابتان الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الـكتابات الآرامية الدولية فقد وصلت الينا من العصر الفارسي نصوص آرامية كثيرة من جهات مختلفة من الامبراطورية الفارسية ومنها ترجمة آرامية لـكتابة « بهستون » المشهورة التي أمر بكتابتها دارا الأول سنة ٥١٠ ق . م . على جبل عالٍ في جانب الدرب الذي بين بابل وهمذان في موضع اسمه « بهستون » وهي كتابة بالخط الأسفيني في ثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والبابلية المتأخرة ، والعيلامية . وقد أرّخ دارا في هذه الكتابة

حروبه وأعماله وتأسيس مملكته ، ثمّ أراد نشرها في جميع أرجاء الامبراطورية فأمر بترجمتها الى الآرامية وإرسالها الى جميع الجهات ، وا كتشفت واحدة منها في أسوان .

أما آرامية الفنتين فقد وصل الينا منها عدد من الكتابات على اوراق البردي اكتشفت في الفنتين بأسوان ويرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وأغلب هذه الكتابات لليهود والآراميين ، وكان اليهود يكتبون بالآرامية ؛ وقد وُجدت أكثر من ثمانين قطعة من هذه الأوراق تشتمل على مكاتبات وعقود زواج وبيع وقوائم وتواريخ وقصص من بينها قصة أحيقار .

أما آرامية الكتاب المقدس فقد كتب بها بعض أجزاء من أسفار عزرا ودانيال ، وهي تدلّ على مدى انتشار الآرامية بين اليهود في عصر الفرس حتى أصبحت عندهم لغة دينية مقدسة . وقد أُطلق على آرامية الكتاب المقدس اسم الكلدانية .

هذه أمثلة من أقدم الكتابات الآرمية ، وبانتهاء العصر الذي نُقشت فيه ينتهي الطور الأول للغة الآرمية ، وهي الآرامية القديمة ؛ وقد انتهى هذا الطور باستيلاء الاسكندر الأكبر على بلاد الشرق ، وانتشار نفوذ اليونان ولغتهم فيه ، ولذلك لم نعثر للغة الآرامية على كتابات في هذه الفترة لأنها كانت لغة العوام فقط .

وبعد انحلال الدولة اليونانية كانت اللهجات الآرامية قد أخذت تتميز بعضها عن بعض ، ويأخذ كلٌّ منها شكلاً خاصًّا . وفي هذا الطور يمكن تقسيم اللغة الآرامية الى شعبتين : غربية وشرقية ، وكل شعبة منهما تضمّ عدداً من اللهجات كما قدمنا .

فالشعبة الغربية تشتمل على :

❊ اللهجة التدمرية ❊ : كانت تدمر — وهي واحة في صحراء الشام بين دمشق ونهر الفرات — محطًّا كبيراً للقوافل ، فاكتسبت لذلك مركزاً تجاريًّا ممتازاً وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد وسنة ٢٧٣ م . حين خرّبها أوريليوس ؛ وقد عثرنا على عدد من النقوش التدمرية تصور لنا حضارة الأقوام الذين استوطنوا هذه الجهة . وقد وُجدت أكثر هذه النقوش في تدمر ووجد الباقي في الطيب — بالقرب من تدمر — وفي افريقية وروما والمجر ورومانيا وانجلترا . وكان أهالي تدمر بدواً من أشراف الآراميين . والغالب أن

النقوش التي وُجدت في إفريقية وفي البلاد الأوربية هي من كتابة التجار والجنود التدمريين وأكثرها من كتابات القبور والتشريف وهي مكتوبة بلغتين : إما اللاتينية والتدمرية . وهي الأكثر ، وإما اليونانية والتدمرية . ولم تكن الكتابة اللاتينية في أغلب الأحيان ترجمة للكتابة التدمرية ، ولكنها كانت تشتمل في أكثر الأحيان على اسم الصانع الذي قام بعمل النقش

ونستدلُّ من عدد من هذه القوش أنه شُيد في مدينة تدمر في القرن الأول للميلاد معبدٌ عظيم لبعل السماء ، يكفي للتدليل على مقدار اتساعه أن نعلم انه لما خُرِّبت تدْمُر ونقص عدد سكانها بعد انكسار جيش الملكة الزَّباء ترك أفاضل الناس بيوتهم وسكنوا المعبد نفسه واتخذوا لأنفسهم فيه بيوتاً وجعلوا بينها أزقة ، وسدُّوا جميع مداخله إلاَّ واحداً اتقاء لغارات البدو . ونعرف من هذه الكتابات أيضاً أن أهل تدمر كانت لهم قلاع بعيدة عن المدينة نفسها في جانب نهر الفرات لحماية التجارة والقوافل .

﴿ اللهجة النبطية ﴾ : والنبط قبائل من العرب وكان ملوكهم من بني الحارث وأكثر أسماء الأعلام الواردة في نقوشهم عربية مثل حارثة ومالك ومليكة وجذيمة وكليبة ووائل ووائلة ومغير وقصي وعدي وعميرة ويعمر وكعب وممن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله ، الخ . . وقد عُرفت مملكة النبط منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وازدهرت فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد ، وكانت عاصمة دولتهم في وادي موسى بالقرب من معان ، ولكننا لا نعرف بالضبط الاسم الذي كان يطلقه النبط عليها لأنه لم يرد في كتاباتهم ، وكان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم (Petra) أي الصخر أو السَّلع ؛ والراجح أنهم أخذوه عن التوراة فقد جاء فيها ذكر مكان اسمه السلع أو السلاع في بلاد إدوم (ادونيم) جنوب القدس . وقد جاء في القاموس : وَسَلْع جبل في المدينة وجبل لهذيل وحصن بوادي موسى من عمل الشوبك . والسِّلْع والسَّلْع في الجبل الشق . وربما سميت عاصمتهم كذلك لقيامها على جبل شُقَّ الى نصفين . وكانت قصبتهم الجنوبية الحِجْر وتعرف الآن باسم مدائن صالح ، وهي على سكة حديد الحجاز بين معان والمدينة .

وكان نبط البتراء وبُصرى (أي حوران) هم الصلة بين بلاد العرب والغرب وكان منهم أحد أباطرة الرومان وهو فيليب العربي (٢٤٤ — ٢٤٩ م .) وكانت للنبط مملكة قوية يخشاها اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما ، وكان ملك النبط يملك على دمشق فترة من الزمن ، ولكنه لم يتخذها قصبة له لبعدها عن محور المملكة ولما كان أهل روما يخشون أن يزداد فيها نفوذ أحد غيرهم ، وخافوا أن يبسط النبط سلطانهم على المشرق كله أرسل أمبراطور روما جيشاً لمحاربتهم أمّر عليه كورنيليوس بَلْما نخرّب مملكة النبط سنة ١٠٦ م . وصارت بلاد حوران التي كانت جزءاً من مملكة النبط تابعة لروما ، ومع ذلك فقد استمر العرب في البادية والحضر يكتبون بالخط النبطي ، وبقي مستعملاً في كتابة اللغة العربية وقد أخذ النبط الحروف الآرامية المفردة واستعملوها متشابكة وعنهم أخذ العرب الأبجدية في الخط الكوفي .

وقد وُجدت نقوش نبطية كثيرة في البتراء وبُصرى وتيماء والحِجر ، وفي شرق الأردن ودمشق وصيدا وبعض جهات من جبل الدروز مثل سيع وهي الآن اسم خربة عظيمة قريبة من مدينة القنوات ومركز السويدات ، وكذلك وُجدت نقوش في ايطاليا . وقد وجدت أغلب هذه النقوش في المقابر ، ومنها ما نقش بالدقة فوق أبواب المقابر المبنية ، ومنها ما خربش على الرجام . أما المنقوشة فقد وجد أكثرها في مدائن صالح وبعضها في وادي موسى وفي بلاد حوران . وأما الكتابات المخربشة فقد وُجدت كلها في بلاد حوران وخطها قبيح .

ونلحق بالكتابات النبطية الكتابات التي وُجدت في أودية طورسينا وبخاصة في وادي المُكتّب ، وهي آخر كتابات نقشت بخط نبطي ولغة نبطية .

وتضم الشعبة الغربية كذلك ثلاث لغات أدبية كما ذكرنا من قبل وهي :

﴿ اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ﴾ : كانت العامة في فلسطين قد نسيت العبرية في زمان المسيح واتخذت لها لهجة آرامية غربية ، وكان المسيح يحدّث تلاميذه ويخاطب العامة بهذه اللهجة مع أننا نعرف من الأناجيل أنه كان يعرف العبرية . ولم يكن الكتاب المقدس قد ترجم الى هذه اللهجة في أول الأمر فكان الأحبار يقرأون التوراة في الصلاة بالعبرية

فإذا أتموا قراءة فصل قاموا بترجمته الى الآرامية على السامعين حتى أصبحت هذه الترجمة قسماً من الصلاة عند اليهود ثمّ قاموا بكتابة هذه التراجم مع بعض الشروح ، وانتهوا من جمعها وتصحيحها في القرن الرابع الميلادي وتعرف عندهم باسم ترجوم . وكذلك كتب بها المدراشيم والتلمود الفلسطيني أو المقدسي ، وتحتوي هذه الكتب على شرائع اليهود ، ونبذ عن أخبارهم المشهورين .

﴿ اللهجة السامرية ﴾ : وقد استعمل السامريون ـ وهم طائفة قديمة من اليهود ـ لهجة آرامية غربية ترجموا إليها التوراة وألّفوا فيها طقوساً وأشعاراً وأدعية خاصة بالصلاة وقد تنازع السامريون مع اليهود وباهى كلٌ منهم صاحبه بأنه على دين بني اسرائيل الصحيح ، ولم يقبل السامريون من الكتاب المقدس إلاّ أسفار موسى الخمسة وكانت عندهم بالخط العبري القديم ، ولم يقبلوا الخط المربع الذي استحدثه اليهود بعد الجلاء ، فلما دخلت الآرامية فلسطين ترجم السامريون إليها أسفار موسى الخمسة .

وكانوا يسمون لهجتهم بالسامرية وهي قريبة من اللهجة اليهودية الفلسطينية ولكنها مضطربة وليس لها نحو كامل ، وقد ضاعت بعد الفتح العربي وتعلمت العامة اللغة العربية ولكنهم استمروا في كتابة كتبهم الدينية بلهجتهم هذه بعد أن أصبحت لهجة صناعية مختلطة بكلمات شتى من السريانية والعبرية . ومنذ ذلك الحين ضعف السامريون وتناقص عددهم تدريجيًا وهم اليوم قليلون جدًا في فلسطين : في نابلس ونواحيها .

﴿ اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية أو الملكية ﴾ : قلنا إن السيد المسيح كان يخاطب تلاميذه باللهجة الآرامية الغربية . وقد أثبت البحث كذلك أن بعض الأناجيل قد كتب أولاً باللهجة الآرامية الغربية ، ثمّ نقل بعد ذلك الى اللغة اليونانية ولكن الترجمة كانت — مع ذلك — تشتمل على كلمات آرامية بحروف يونانية ، ولكن هذه النسخ من الأناجيل لم تصل إلينا ، ولم يصل الينا غير النسخة اليونانية وعنها ترجم ثانية الى الآرامية والسريانية . وأما كتابات بولس الرسول فقد كتبت باليونانية مباشرة . وقد أخذ نصارى فلسطين وسوريا هذه الترجمة السريانية للعهد الجديد فاستعملوها في كنائسهم مع بُعدها عن لغة العامة . ثمّ حدث بعد ذلك أن انقسم النصارى الى نساطرة ويعاقبة وملكية ، وكان

الملكية يخالفون أكثر النصارى الآراميين ، ولهذا السبب عدلوا عن كتابة لهجتهم بالخط السرياني واستبدلوا به خطّاً هو الى حدٍّ ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية فترجموا الكتاب المقدس الى لهجتهم وكانت ترجمتهم حرفيــة دقيقة لم يُـراعوا فيها المعاني ولا ترتيب الكلمات في الجملة على قواعد اللغة الآرامية . ولم يبقَ لنا من كتبهم إلاّ القليل ، وكان إملاؤهم غير واضح وغير مُشكّـل بحيث يمكن الاختلاف في نطق كلماته ، وهذا هو السبب في أن هذه اللهجة لم تلقَ عناية كافية . وقد ظلّ أصحابها يتكلمون بها في فلسطين حتى انقرضت أيام الفتح العربي .

وتختلف لهجات الشعبة الشرقية عن الغربية اختلافاً واضحاً إذ أنها تستعمل النون في صيغة المضارع الغائب بدل الياء في اللهجات الغربية . كما نلاحظ أيضاً أن النصوص التي وصلت الينا من اللهجات الآرامية الغربية قليلة نسبيّـا وموضوعاتها متقاربة ، وهي في الواقع ظروف لا تسمح بتحقيق قيمة هذه اللهجات بالدقة في الوقت الذي احتفظت فيه اللهجات الشرقية بمادة أوسع ، فالسريانية مثلاً لها أدب غزير متشعب . وتضم هذه الشعبة :

﴿ اللهجة الآرامية اليهودية البابلية ﴾ : وكان يستعملها يهود العراق الساكنون في بابل وما حولها في كتب الدين بين القرنين الثاني والسابع الميلادي أي الى أيام الفتح الاسلامي . وقد بقي لنا منها التلمود البابلي ، وشرح الكتاب المقدس الذي أُلّـف في مدارس اليهود في بابل فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي ويعرف باسم الجمارا . وقد تأثرت كغيرها من اللهجات الآرامية اليهودية باللغة العبرية .

﴿ اللهجة المندعية ﴾ : وإسمها مشتق من الكلمة الآرامية (م دّ ع ا) ومعناها المعرفة ، ويسمى أصحابها بالصابئين أو المندعين ، وهم طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة نهر الأردن ، ثمّ هاجرت منها الى العراق ، وكان أهل حرّان منهم يسمون أنفسهم ناصوريين ، وهم فرقة دينية من العارفين بالله ، خلطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين واثنينية الفرس ، وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الاسلام . وهم يدعون أنهم على مذهب يحيي بن زكريا « يوحنا المعمدان » ، ولذلك كانوا يغتسلون في الأردن كما كان يحيي يغتسل في الأردن ، فلما هاجروا الى العراق أخذوا يسمون كل نهر وكل ماء نهر الأردن .

وقد ذكر القاموس في مادة صبأ : « والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام ، وقِبْلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار » . وقال شارح القاموس في الحاشية : « وفي التهذيب هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلاّ أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون، وقيل هم عبدة الملائكة ، وقيل هم عبدة الكواكب كما في البيضاوي » .

وهم يزعمون أيضاً أنهم أهل المعرفة من النصارى ، وأن عندهم معرفة خاصة عن الأشياء الدينية والروحانية ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا نصارى بل كانوا يعترضون على النصارى واليهود ، فحاربتهم الكنيسة ، كما حاربهم اليهود . والعماد أو الغطاس مهم جداً في دينهم ، وهم يعظمون يوحنا ويدّعون أنه المسيح الحقيقي ، وأن عيسى ادّعى النبوّة ، وعندهم كتاب يوحنا .

وكتبهم الباقية كلها دينية وعددها قليل وأهمها كتاب الكنز الكبير . وفيه أجزاء أخذت من اليهودية والنصرانية والاسلام ، ومن قول أهل المعرفة ؛ ويظهر من هذا أنهم بدأوا بجمع رواياتهم وطقوسهم الدينية بعد فتح المسلمين للعراق لكي يعدّوا أنفسهم من أهل الكتاب . وقد ضاعت كل كتبهم التي ترجع الى ما قبل الاسلام . أما العصر الذي أُلّف فيه ما تبقى من كتبهم فغير معروف على التحديد .

وللغة المندعية منزلة خاصة بين اللغات الآرامية فهي اللهجة الوحيدة التي لم تتأثر بأي مؤثر خارجي ، ولذلك فإنها تعدّ آرامية خالصة بينما تأثرت اللهجات الأخرى بمؤثرات خارجية شتى .

ولا يزال للمندعيين بقية باقية حتى اليوم ويُعرفون باسم الصُّبّأ ويسكنون بطائح البصرة ، ويقيم بعضهم في بغداد ويعمل أكثرهم في نقش الفضة بالصور والرسوم ، وهم متمسكون بدينهم ويتكلمون العربية والفارسية .

﴿ لهجة الرها (السريانية) ﴾ : وهي اللهجة الآرامية التي كان موطنها ما بين النهرين في الإقليم الذي كانت عاصمته مدينة الرّها أو أُرْفه كما كان العرب يسمونها، وهي التي يعرفها الفرنجة بإسم Edessa (إدسّا) وكانت تحكمها في العهد السابق لظهور المسيحية أسرة عربية ، يدل على ذلك أسماء ملوكها : أبجر ومعن ووائل ، فلما ظهرت المسيحية وانتشرت في

هذا الإقليم، واتخذت لغته لغةً أدبيـة لها ، كره أصحابه أن يطلق عليهم اسم الآراميين ، وأن يُطلق على لغتهم إسم اللغة الآراميـة ، ورأوا في هذه التسمية مرادفاً للوثنيـة والإلحاد ، فعدلوا عنـه الى الاسم الذي أطلقه عليهم اليونان وهو « السريان » وسموا لغتهم « السريانية » .

وليس من شك في أن السريانية قد استفادت كثيراً من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية فانتشرت فيما بين النهرين ، ثمّ اتجهت في طريقها ناحيـة الشرق ، وكان تسربها الى الغرب ضئيلاً جدّاً : ذلك أن اللغة اليونانية كانت منتشرة في الغرب ، وكانت انطاكية (في شمال سوريا) معقلاً لها . ولم تتمكن اللغة السريانيـة من دخول فلسطين لأن النزاعات الدينية والسياسية التي كانت قائمة بين سكانها وبلاد ما بين النهرين قد حفزت الفلسطينيين المسيحيين الى النهوض بلهجتهم وجعلها لغة أدبيـة ودخلت السريانية مصر ولـكن في الأديرة وبين رجال الدين وبخاصـة في الاسكندرية . وكانت هناك صلات بين كنيسة الرُّها والـكنيسة المسيحية في جنوب فرنسا ، وهاجر الى فرنسا كثير من السريان في عهـد القيصرية الأولى حوالي سنة ٨٠٠ للميلاد .

أما في الشرق فلم يكن هناك ما يمنع من انتشار اللغة السريانية فقد كانت لغة الـكنيسة المسيحية في الشرق تتبعها أينما حلّـت ، كانت لغة المسيحية في فارس وحملها المبشرون من النساطرة معهم الى بلاد التركستان والهنـد حتى بلاد الصين . وكانت اللغة السريانية لغة المسيحيين في المملـكة الساسانية كما ذكرنا ، وبها دُرس الطب والعلوم الطبيعية في مدرسة جنديسابور وغيرها من مدارس السريان في البلاد الفارسية .

وقد دوّن السريان كتبهم بعـدة أنواع من الخطوط ، وكان أقدمها مدوّناً بالخط الاسطرنجيلي ، ويفسر بعضهم معناه بخط الانجيل ، ويفسره الآخرون بالخط المستدير ؛ فلما انقسم السريان الى نساطرة ويعاقبة وملـكية ابتدع كلُّ فريق منهم لنفسه خطّاً ، ومع ذلك فقـد ظلّ الخط القديم مستعملاً وصـارت المؤلفات تكتب بالخطوط الأربعـة : الأسطرنجيلي ، واليعقوبي وكان يطلق عليه اسم السرطا (أي الذي يكتب بسرعة) والنسطوري والملـكي ، والخط الأخير مستخرج من الخطوط الثلاثة السابقة .

وقد ألّف السريان في لغتهم هذه في جميع فنون الأدب التي كانت معروفة في أيامهم ولكنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، لم ينبغوا في العلوم ولا في الفنون بل ولم ينبغوا في الحرب ، وكان ينقصهم فطنة العرب وذكاؤهم ، فلم تنجب صوامع الرّها وقنّسرين ونصيبين وغيرها أحداً كالفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد ، ولكنهم مع ذلك أجادوا التلمذة لليونان فهضموا ما تلقنوه عنهم ، ثمّ نشروه في لغتهم كما هو أو مع زيادة طفيفة ، وإليهم يعود الفضل في نقل تراث اليونان الى العرب ، فالعلم مدينٌ لهم بهذه التراجم الدقيقة لعدد عظيم من أمهات المؤلفات اليونانية القيمة ، والتي لولاها لضاعت هذه المؤلفات ؛ يضاف الى ذلك عدد من السجلات التاريخية المتواضعة التي خلفها يوحنا الأفيزوسي وديونسيوس التلمّحْري ويوشع العمودي وميخائيل السرياني وابن العبري ، وهي سجلات تستحق كثيراً من الثناء إذ بدونها ما استطعنا أن نصل الى كل ما وصلنا إليه من معلومات عن تاريخ الكنيسة وعن كثير من الحوادث السياسية التي وقعت أثناء حياة المؤلفين .

والمعروف أن الأدب السرياني قد أثر تأثيراً كبيراً في الأدب العربي ، وذلك أن العرب حينما ابتدأوا يهتمون بالعلوم والفلسفة اليونانية وحاولوا نقلها الى لغتهم كانت الترجمات السريانية هي الواسطة في هذا النقل ، وأكثر المترجمين المشهورين مثل حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين ، وحبيش بن الأعصم ، ويحي بن البطريق ، ويحي بن عدي ، وابن زرعه كانوا ينقلون عن السريانية .

ومع ذلك فقد يكون من عدم الانصاف أن نصف السريان عامة بأنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، فنحن نعلم أن أهل حرّان ومنبج قد نبغوا في الفلك وغيره من العلوم الطبيعية وألفوا فيها ، فقد وصل الى أيدينا من هذه الفنون كتاب قوانين البلدان لابن ديصان ، والراجح أن غيره من السريان قد ألّف في فنون أخرى ، ولكن الجهل الذي كان يسيطر على الجيل الأول من المسيحية دفعه الى بغض هذه الفنون الأدبية وزهّده فيها ، وحبّب اليه أن يقنع بالكتب الدينية ؛ ولذلك فقد عمد هذا الجيل إلى إتلاف الكتب غير الدينية ، ومن هنا لم يصل الينا إلاّ الكتب الدينية والكتب التي لا تتعارض مع المسيحية .

أما عن أسلوب الكتابة السريانية فقد كان المؤلفون متأثرين بأسلوب الكتاب المقدس وكثرت في كتاباتهم الاصطلاحات والاستعارات المستقاة من الكتاب المقدس، وطبعت بالطابع الديني للسبب الذي أشرنا اليه من قبل من جهة، ولأن الكثرة المطلقة من الكتّاب كانت من رجال الدين من جهة أخرى.

وقد اختلط اليونان بالسريان اختلاطاً كبيراً ولذلك فإن من المؤكد أن الأساليب اليونانية كانت — تبعاً لذلك — ذات أثر فيما وصلت اليه اللغة. فقد حاكى السريانُ الأبنيةُ اليونانية في بعض كتاباتهم وقلدوهم في طريقة استعمال الكلمات بل إنهم نقلوا الى لغتهم كثيراً من الكلمات اليونانية، كما أسسوا علم النحو في لغتهم على غرار النحو اليوناني واتخذوا من الصوائت اليونانية حركاتٍ يستعملونها في كتاباتهم.

وظلت السريانية مزدهرة حتى فتح العرب بلاد السريان، ومنذ ذلك الحين أخذت اللغة السريانية تضمحل وتحلّ محلها اللغة العربية، واختلفت لغة العامة من السريان عن لغة الكتابة فظهرت الحاجة الى وضع علم النحو وابتداع طرائق لضبط الكلمات، وتأليف معاجم للسريانية والعربية، وبدأ الشعر العربي يؤثر في الشعر السرياني فظهرت فيه القوافي، ولم تكن معروفة فيه قبل ذلك. ولكن سرعان ما اضمحلّ الشعر السرياني وأصبح أشبه بكلمات تستخرج من قاموس لتصفّ الى جوار بعضها. وأخيراً دالت اللغة السريانية كلغة للتخاطب، وبعد أن كان أكثر الأطباء المسيحيين الذين جاءوا من جنديسابور في مطلع العصر العباسي لا يحسنون العربية، أصبح الأطباء وكلّ من له عناية بالتراث اليوناني أو له رغبة في معرفة علوم الأوائل محتاجاً الى تراجم عربية، ولم يبق للسريانية أثر إلاَّ عند بعض المثقفين الذين ثابروا على استعمال هذه اللغة في تآليفهم وخاصة في الكنيسة.

ثم صحَت اللغة صحوة الموت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد على يد عدد من الكتاب المشهورين كابن الصليبي وميخائيل الكبير وابن العبري، وتبدلت الحالة في هذه الفترة، فبعد أن كانت الكتب تترجم من السريانية الى العربية في صدر الاسلام، أصبحت الكتب تترجم من العربية الى السريانية في هذه الفترة، وإذا بابن العبري ومعاصريه يترجمون كتب ابن سينا والفخر الرازي وأضرابهما من فلاسفة المسلمين من العربية الى السريانية.

وبنهاية القرن الثالث عشر انقرض استعمال اللغة السريانية تقريباً ولم يبق منها اليوم إلاّ بعض بقايا في بعض نواحي العراق الشمالية ، في عدد من البلدان فيما بين بحيرة أورميا وبحيرة ڤان حيث يقيم بعض النصارى من النساطرة ويسمونهم بالأشوريين . وفي شمال الموصل حيث يوجد بعض آلاف من اليهود يعيشون على فلاحة الأرض . وفي طور عابدين وهي نواحٍ جبلية في البلاد الفارسية حيث يقيم بعض اليعاقبة . وفي ثلاث من مدن سوريا منعزلة بعضها عن بعض : الأولى مسيحية وهي معلولة . والثانيتان سكانهما من المسلمين وهما جُبّعدين وبخعة . ولكن لهجات هذه البلاد تختلف كثيراً عن اللهجات القديمة إذ أنها جاورت جهات تأثرت بلهجات تركية وعربية وفارسية وأُردية ، ومن أهم هذه اللهجات لهجة « الفلليخي » وهي لهجة يُتكلم بها قرب الموصل، ولهجة طورعابدين ولهجة بحيرة أورميا وكلها لغات يتكلمها غير المثقفين وليست لغات تأليف غير أن المبشرين الأمريكيين قد اجتهدوا في القرن الماضي في استخدام هذه اللهجة في الكتابة فترجموا اليها بعض الكتب وخاصة الانجيل وألفوا فيها بعض الكتب — كما يفعلون منذ قرن في اللهجات الحامية الموجودة في جنوب السودان — ولكن هذه الحركة قد فشلت .

وقد يكون من الأمور الطبيعية أن نتساءل بعد ذلك : متى بدأت العناية بدراسة الادب السرياني ؟

الأمر الذي لا شكّ فيه أن الأدب السرياني لم يُدرس دراسة منتظمة إلاّ منذ القرن الثامن عشر حين بدأ يوسف سمعان السمعاني الماروني المتوفي سنة ١٧٦٨ يكشف عن أهمية هذا الأدب بما نشره في كتابه « المكتبة الشرقية » (طبع في روما فيما بين سنتي ١٧١٩ و ١٧٢٨) من تراث الأدب السرياني عن مخطوطات نقلها من دير السريان بوادي النطرون

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن الشرقيين بدأوا في دراسة الأدب السرياني منذ النصف الأخير من القرن السادس عشر الميلادي ، نلمح ذلك في كتابات موسى المارديني اليعقوبي ، وفي الجهود التي بُذلت في إحياء النحو السرياني بعد ذلك بقليل في القرن السابع عشر .

وقد قامت هذه النهضة بوجهٍ عام على أكتاف الموارنة من السريان، وكان على رأسهم

عائلة السمعاني التي كان لها شرف تخريج علماء أوربا الذين أغنوا الأدب بما أخرجوه من المخطوطات السريانية ، ولما تكن هذه المخطوطات قد كثرت بعد ، وقد أوقف السمعاني على مكتبة الفاتيكان مجموعة نفيسة من المخطوطات السريانية التي نقلها على عدة دفعات من دير السريان بوادي النطرون . وقد قام علماء الغرب بعد ذلك بنشر نفائس الكتب في هذه اللغة .

ولم يكن قد طبع في ذلك الحين من فهارس المخطوطات الشرقية المحفوظة بالمكتبات العامة سوى فهرس مخطوطات الفاتيكان الذي أعدّه يوسف سمعان السمعاني واصطفان عوّاد السمعاني وفهرس مكتبة لورانتين في فلورنسا الذي وضعه اصطفان عواد السمعاني . ولم تكن هذه المكتبات تشتمل — في ذلك الحين — إلاّ على عدد قليل جدًّا من المخطوطات السريانية ، ولكن هذه المكتبات أخذت — في القرنين الأخيرين — تبذل جهوداً متواصلة لاقتناء المخطوطات السريانية حتى تجمّع لدى كل منها مئات من هذه المخطوطات . وكان حظ المتحف البريطاني منها عظيماً جدًّا ، فقد استطاع أن يحصل على مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات كانت نواتها مجموعة من مخطوطات دير السريان بوادي النطرون كما عملت هذه المكتبات على أن تضع في متناول الباحثين فهارس وصفية تحليلية كاملة قام بإعدادها ونشرها عدد من أعلام المستشرقين . وقد وُضعت عدة مؤلفات في تاريخ الأدب السرياني .

﴿ أوّلها ﴾ : كتاب جوستاف بيكلّ (طبع في مونستر سنة ١٨٧١) ولكنه مختصر جدًّا

﴿ وثانيها ﴾ : مقالة كتبها وليم رايت في الجزء الثاني والعشرين من دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « الأدب السرياني » ص ٨٢٤ — ٨٥٦ . وقد أُعيد طبع هذه المقالة بعد وفاة المؤلف في كتاب مستقل تحت عنوان « مختصر لتاريخ الأدب السرياني » (نشرت في لندن سنة ١٨٩٤) بعد أن أُدخل عليها بعض الزيادات لكي تستوعب المطبوعات التي ظهرت بعد نشر المقالة ، والملاحظات التي سجلها المؤلف على نسخته الخاصة .

والكتاب كما قصد مؤلفه مختصر الى حد كبير ، ولكن المؤلف راعى الدقة في كل

ما فيه ، وهو غير مقسَّم الى فصول لأنه وُضع أولاً ليكون مقالة في دائرة معارف ، وقد تكلم فيه باختصار عن سِير المؤلفين من السريان مرتبين ترتيباً زمنيـّـا وسجل لكل واحد منهم أسماءَ المؤلفات التي عرفها له . وقدّم لذلك كله بكلمة عن التراجم السريانية المختلفة للكتاب المقدس .

﴿ وثالثها ﴾ : كتاب روبنز دو ڤال « الأدب السرياني » ضمن سلسلة عنوانها « الآداب المسيحية القديمة » طبع في باريس في يناير سنة ١٨٩٩ ثم طبع طبعة ثانية سنة ١٩٠١ وثالثة سنة ١٩٠٧ . وقد وجه المؤلف عناية خاصة عند دراسته للادب السرياني — الى أثر هذا الأدب بالنسبة للآداب المسيحية عامة فتحدَّث بإسهاب عن تراجم الكتاب المقدّس وسِير الشهداء الى غير ذلك .

والكتاب مقسم الى قسمين : يشتمل القسم الاول على أعمال السريان الادبيـة ، ويتكوَّن ، من سبعة عشر فصلاً تحدَّث فيها عن كل ما تناوله السريان في كتاباتهم من الفنون الأدبية . ويشتمل القسم الثاني على نبذ مختصرة عن سِير المؤلفين من السريان مرتبةً ترتيباً زمنيـّـا اتبع فيه منهج رايت ، ويتكوَّن من ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن المؤلفين حتى مطلع القرن الخامس ، وتكلم في الفصل الثاني عن كتّاب القرنين الخامس والسادس ومطلع القرن السابع حتى الفتح العربي . وتكلم في الفصل الأخير عن الكتّاب الذين ظهروا إبان الحكم العربي حتى القرن الثالث عشر واختتمه بالحديث عن ابن العبري .

﴿ ورابعها ﴾ : كتاب بوركيت : وهو محاضرات عن كنيسة المتكلمين بالسريانية (لندن ١٩٠٤) ويشتمل على ملخص لناحية من نواحي الأدب السرياني .

﴿ وخامسها ﴾ : كتاب نولدكه عن « الأدب الآرامي » . والقسم الأول منه عن الأدب السرياني (ص ١٠٣ — ١٢٣) نشر في برلين وليبزج سنة ١٩٠٦ وطبع ثانية سنة ١٩٢٥ وهو قسم مختصر ضمَّنه تاريخ الأدب السرياني في عصوره المختلفة . ولم ينهج بوركيت ولا نولدكه فيما كتباه منهجاً خاصـّـا .

﴿ وسادسها ﴾ : بحث لبروكلمان عن « الأدب السرياني » ضمن كتاب عنوانه « الآداب الشرقية المسيحية » نشر في ليبزج سنة ١٩٠٧ (ص ١ — ٧٤) ثم طبع ثانية سنة ١٩١٩ .

وقد جاء البحث مختصراً لأنه جزء من كتاب يتناول الآداب المسيحية الشرقية باختصار، وقد راعى فيه المؤلف الترتيب الزمني أيضاً .

﴿ وسابعها ﴾ : مقالة شابو عن اللغة السريانية وآدابها في الجزء الرابع عشر من دائرة المعارف الكاثوليكية (ص ٤٠٨ — ٤١٣) وقد حذا فيه حذو مَن سبقه من تلخيص الأدب السرياني .

﴿ وثامنها ﴾ : كتاب بومشتارك عن « تاريخ الأدب السرياني » نشر في بون سنة ١٩٢٢ وهو عبارة عن سجل حرصَ مؤلفه على أن يجمع فيه كلَّ ما استطاع أن يصل اليه علمه من الكتب المطبوعة والمخطوطة . ولكنه مركَّز الى حد يصعب معه على غير المتخصصين الاستعانة به . وقد راعى المؤلف في تقسيمه الترتيب الزمني كما فرَّق بين كتاب اليعاقبة والنساطرة في عرضه لتاريخ الأدب .

وقد نهج المؤلفون في تاريخ الأدب السرياني على عرضه من الناحية التاريخية البحتة مفترضين أن الذين يهتمون بتاريخ الأدب على علم بالأدب السرياني . ولما كان من شأن دراسة تاريخ الأدب السرياني أن تكشف للباحث عن النواحي البارزة من هذا الأدب ، فقد رأينا أن نضمِّن كتابنا هذا ترجمة أو عرضاً أو تلخيصاً لما نؤرِّخ له حتى نعين القارئ على تفهُّم تاريخ هذا الأدب . ولما كان الفتح الاسلامي للبلاد التي تكلم أهلها السريانية وما تبع ذلك من تغلغل اللغة العربية بين أهلها ، قد فرَّق بين فترتين متميزتين في الأدب السرياني ، فقد رأينا أن نراعي ذلك في دراستنا هذه . فنتناول في الفترة الأولى تاريخ الأدب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي وهو موضوع هذا الكتاب . ونتناول في الفترة الثانية تاريخ الأدب السرياني من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر ، وسنخصه بكتاب آخر .

الباب الاول

تمهيد

كانت مملكة الرُّها واقعة في الجزء الشمالي الغربي من إقليم ما بين النهرين وكانت لغتها هي اللهجة الآرامية الشرقية التي أطلق عليها اليونان اسم «السريانية». وكانت الرُّها مملكة مستقلة في القرون الأخيرة قبيل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد. والراجح أن أصل ملوكها من العرب كما تدلُّ عليهم أسماؤهم: معن ووائل وأبجر، إذ يُظَنُّ أن بعض رؤساء العرب دخلوا مدينة الرُّها — كما دخل غيرهم حمص وتدْمُر — وصاروا ملوكاً على الشعب الآرامي فنسوا لغتهم على مرور الزمن وتعلموا لغة الشعب الآرامية، فلما دخلت المسيحية الرُّها في أوائل القرن الثاني للمسيح، وتبع ذلك بناء الكنائس فيها، واتخاذ المسيحيين لغتها لغة لهم، وترجموا إليها الكتاب المقدس، أصبح للغة السريانية مركز ممتاز، وصارت الرُّها منذ ذلك الحين مركز الحياة الثقافية المسيحية باللغة السريانية.

وإذاً فنحن نستطيع أن نميز في هذا القسم بين طورين مختلفين من الأدب.

﴿الطور الأول﴾: ويتضمن الأدب السرياني الذي وُضع قبل أن تصبح الرُّها مركز الحياة الثقافية المسيحية.

و﴿الطور الثاني﴾: ويتضمن الأدب السرياني الذي أُثِر عن العصر المسيحي الذي سبق ظهور الإسلام.

الأدب السرياني قبل انتشار المسيحية

ليس ثمَّة شكٌّ في أن بعض الأقوام من اليهود والوثنيين كانوا يُقيمون في المناطق التي كانت — فيما بعد — موطن المسيحية السريانية. وليس من شك أيضاً أنه كانت لهؤلاء الأقوام كتابات باللهجة المحلية. فقد حلَّت اللغة السريانية محلَّ العبرية عند اليهود الساكنين في تلك المناطق؛ كما كانت لغة الدين والأدب والعلم في حرَّان معقل الوثنية فيما بين النهرين؛

ومهما يكن من أمر هذه الكتابات فقد عزلتها المسيحية عن العالم وحالت بينها وبين الخروج من معقلها لأنها لم تكن تساير العقيدةَ المسيحية ، وبقيت كذلك في عزلتها حتى العصور الاسلامية المتأخرة حين قضى المغول عليها نهائيًّا سنة ١٢٣١ م . وبذلك حُرِم العالم من ثمار حضارة هؤلاء الأقوام .

وقد بقيت لنا آثار متفرقة قليلة من هذه الكتابات هي : كتابات قبور ، وبعض كتابات مطوَّلة اشتملت عليها دار المحفوظات الملكية في الرُّها ، وخطاب «مارا بن سرابيون» الى ابنه سرابيوم وقصة أحيقار وزير سنحاريب ، وبعض مقطوعات منسوبة الى متنبىء وثني يُدعى بابا الحرَّاني . وسنتناول هذه الآثار في شيء من الإيجاز .

﴿كتابات القبور﴾ : أقدم الكتابات السريانية التي بقيت لنا هي كتابات قبور نقشت على أحجار ، ولم نعثر حتى الآن إلاَّ على عدد قليل منها ، ومع أنها جميعاً غير مؤرخة إلاَّ أن جمهرة المشتغلين بالدراسات السامية قد اتفقت على أنها ترجع الى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد .

ويرجع الباحثون أقدم هذه النقوش الى النصف الأول من القرن الأول . وقد كتب عليه (ص د ن م ل ك ث ا) أي الملكة صدَّان . ومع أنه لا يبدأ بكلمة « هذا قبر ... » كما هو مألوف في نقوش المقابر المكتوبة باللغات السامية إلاَّ أن الراجح أنه نقش مقابر . وقد عثر عليه سنة ١٨٦٣ وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس.

والنقش الثاني غير مؤرخ أيضاً كالنقش السابق ، إلاَّ أن الباحثين يرجعونه الى القرن الثاني ، وهو أطول من النقش السابق ، وقد كتب عليه (ا م ش م ش ا ت ت ه د ش ر د و ب ر م ع ن و) وهو كالنقش السابق لا يبدأ بعبارة « هذا قبر . . . » إلاَّ أن الراجح أنه نقش مقابر أيضاً . وهو منقوش على برج مربع قائم في خربة بجهة سُمِّيت فيما بعد بدير يعقوب واقعة في الناحية الجنوبية الشرقية من الرُّها . وكان Von Helmuth Moltke هو أول من لفت الأنظار الى وجود هذا النقش سنة ١٨٣٩ .

الغالب أن الآثار التي تقوم في هذه الخربة وثنية الأصل ولكن لا يعرف الغرض الذي أقيمت من أجله ، ولعلها كانت مقابر لعائلة كبيرة ، ولعلَّ البناء الذي كُتب عليه النقش

برج مقبرة . والذي حملنا على ترجيح أن هذه الآثار وثنية اسم « أمَة شمس » فهو اسم وثنيّ ، وعلى الرغم من أننا نعلم أن المسيحيين قد سمّوا أبناءهم ببعض الأسماء الوثنية . إلاَّ أن البناءَ ليست به معالم تدل على أن المسيحية قد ظهرت في الرُّها عند بنائه . ومع أن انتشار المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثانى أمرٌ مرجح إلاَّ أن الأدلة المادّية على وجودها متأخرة نوعاً ما . فقد وُجد على نقود أبجر المعاصر للامبراطور كومودوس (١٨٠ — ١٩٢ م) وهو أبجر سويروس صليب عوضاً عن الشارة القديمة وهي الهلال والنجمة .

وأول إشارة إلى وجود كنيسة في الرُّها كان سنة ٢٠١ م . عندما ذكر أن مياه نهر ديصان طغت على كنيسة المدينة ، وأول مرة ذكر فيها اسم أسقف لمدينة الرُّها كان في سنة ٣١٣ م . ولا تشتمل هذه الخربة على دليل يمكننا من تأريخ هذا النقش . ولكن القرائن التاريخية توحي بأنه نُقش في النصف الأخير من القرن الثاني ، وليس في معالم الخربة ما يتعارض مع هذا الرأي .

والنقش الثالث غير مؤرخ أيضاً وهو أطول من نقش دير يعقوب السابق . وتدل المقارنة بين خطوط النقشين على أن هذا النقش أحدث من نقش دير يعقوب ، وكان G. Badger أول من أشار اليه ، وهو موجود في قلعة الرُّها الواقعة في الناحية الجنوبية الغربية من المدينة وفيها تقوم جدران شاهقة ، وقد نقشت في أعلى الجدران الخارجية نقوش متفرقة يتعذر الوصول اليها ، ولا يستطيع الانسان بواسطة المنظار المكبر إلاَّ أن يحكم أنها كتابات عربية ولكنه لا يستطيع أن يقرأ منها شيئاً ؛ وفي داخل القلعة كتابة كوفية يتعذر الوصول اليها أيضاً ، ويقوم بالقرب من الطرف الغربي على بعد قليل من الجدار عمودان يُعرفان عند العامة بكرسي نمرود ، وقد كُتب هذا النقش على العمود الجنوبي منهما عند منتصفه ، ويستطيع الانسان أن يقرأه بالعين المجردة وفيه كلمات وحروف ناقصة في عدد من المواضع ، وبخاصة اسم صانع النقش أو الذي أمر بإقامته . وفيما يلي اقتراح لما يتضمنه النص : « أنا فلان ابن فلان صنعت (أو أقمت أو أمرت بإقامة) هذا العمود والصورة القائمة أعلاه لشلمث الملكة ابنة معن »

ويدلّ هذا النقش على أن هذا العمود قد خصص لأميرة ، أو لعله أُقيم لملكة هي ابنة رجل يدعى معن ، ونستنتج من ذلك أن هذا العمود والنقش المكتوب عليه يرجعان الى عصر استقلال إقليم الرّها في عهد أسرة أبجر ومعن المالكة ، لأننا لا نعتقد أن أحداً لم يجد ما يدعوه الى إقامة نصب لأميرة من البيت الحاكم بعد ضم الرّها الى أملاك الدولة الرومانية . ونستطيع أن نحدد العصر الذي أقيم فيه هذا النقش اذا رجعنا الى ما ورد في تاريخ الرّها عن سنة ٢٠٦ « أن أبجر بنى قلعة بمدينته » والراجح أن المقصود بهذه القلعة قلعة الرّها . أما أبجر المذكور فهو أبجر الثامن ابن معن الذي حكم فيما بين سنتي ١٧٦ و٢١٣ وربما كانت إقامة العمودين بعد بناء القلعة أي بعد سنة ٢٠٦ م . إما في عصر أبجر وإما في عصر ابنه معن التاسع آخر أمراء الرّها أي بين سنتي ٢٠٦ و ٢١٦ م . وتكون شلمث هي ابنة معن التاسع . ولكن خلوّ النقش — من جهة أخرى — من وصف معن بصفة «ملك» ربما دلّ على أن مَعْناً هذا شخص آخر غير معن التاسع الملك ، ويكون العمودان قد أقيما قبل بناء القلعة بزمن طويل وبخاصّة إذا لاحظنا أن النقش والعمودين ليس بهما أي أثر للمسيحية .

ومهما يكن من أمر هذه النقوش التي تحدّثنا عنها وأمثالها من نقوش المقابر ، فإنها لا تشتمل عادةً إلاّ على نصوص قصيرة لا تضيف كثيراً الى تاريخ الأدب ، ولكنها في الواقع دليل على أن اللغة السريانية كانت تكتب بحروف سريانية في إقليم الرّها قبل دخول المسيحية اليه بزمن غير قليل .

﴿ كتابات ملوك الرّها ﴾ ولن تعوزنا الأدلة على أن هذه اللغة المحلية التي كانت مستعملة في الرّها وما جاورها من البلدان قبل ظهور النصرانية هي اللغة السريانية ، فإن كل ما بقي لنا من كتابات عن هذه الفترة — على قلتها — مكتوب باللغة السريانية . وكانت الرّها عاصمة الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وكان يحكم هذا الاقليم — بين سنتي ١٣٢ قبل الميلاد ، ٢١٦ ميلادية — أسرة من أصل عربي ولكنها اصطبغت الى حدٍّ بعيد بالحضارة الآرامية التي تحيط بها ، وخضعت لما يسير عليه الآراميون من عادات ، وكانت العادة قد جرت في دول آسيا الصغرى على تسجيل أهم الحوادث التي تقع وحفظها في دار

للمحفوظات ، ولم يشذّ ملوك الرُّها عن هذه العادة ، فقد كانوا يدوّنون ما يقع أثناء حكمهم من حوادث ويحفظونه في سجلات بدار المحفوظات بالديوان الملكي .

وكان من بين ما سُجِّل وحفظ في دار المحفوظات خبر فيضان نهر ديصان الذي اجتاح مدينة الرُّها في شهر تشرين الثاني سنة ٢٠١ م . في عهد أبجر التاسع (١٧٩ — ٢١٦ م .) ، والذي كان من جرائه أن تصدَّعت كثير من مباني الرُّها الجميلة ومن بينها « كنيسة المسيحيين » ، وقد اضطرّ الملك الى ترميم كثير من المباني وتشييد مبان جديدة ، فلما تمت أعمال الاصلاح ، أمر الملك كاتبيه « ماريب برشمش » و « قَيّوما وَمَجّرطَط » بتسجيل هذه الكارثة فسجلت سنة ٢٠٦ م . وحفظت بدار المحفوظات في مجموع الأوراق الرسمية التي نقلت فيما بعد الى سجلات أساقفة مدينة الرُّها التي أنشئت حوالي سنة ٣١٣ م . فلما كان منتصف القرن السادس الميلادي كان هذا النصّ أحد المواد التي جمعت لتكوّن مختصر تاريخ مدينة الرُّها .

ولهذا النص أهمية خاصة عند المؤرخين المتأخرين لأنه يدل على أن المسيحية قد دخلت الى الرُّها في عهد أبجر التاسع ؛ وله كذلك أهميته في تاريخ الأدب . فهو أقدم النصوص المؤرخة ، وهو الى جانب ذلك نصٌّ لغويٌّ مطول باللغة السريانية في شمال ما بين النهرين .

وقد نشر السمعاني كتاب مختصر تاريخ الرُّها بالسريانية في كتابه المكتبة الشرقية (ج ١/ص ٣٩٠) وفيها قصة الفيضان . أما بروكلمان فقد نشر قصة هذا الفيضان بالسريانية في كتابه قواعد اللغة السريانية (طبع في برلين سنة ١٩٠٥ ص ٢١ من المختارات) . واليك ترجمة هذا النص :

«في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة أيام ملك سويرس وفي عهد أبجر الملك ابن معن الملك في شهر تشرين الثاني (أي نوفمبر) اشتدّ نبع المياه المتدفق من القصر الكبير الذي يملكه أبجر الملك الكبير ، اشتدّ وارتفع كعادته الأولى وملأ كل الجوانب وفاض عليها ، وأخذت الحدائق والأروقة والقصور الملكية تمتلىء بالمياه . فلما رأى ذلك مولانا أبجر الملك صعد الى الهضبة التي تعلو عن قصره حيث يقيم عمال المملكة ويسكنون . وبينما

كان الحكماء يفكرون : ماذا يصنعون بهذه المياه الغزيرة التي تراكمت ، حدث أن هطل مطر غزير قوي بالليل ، وفاض ديصان في غير موعده ، وجاءت المياه الغريبة فوجدت القناطر مقفلة بحديد كبير مصفح وبمصاريع حديدية مثبتة ، فلما لم تجد المياه لها مدخلاً تكوّن بحر كبير خارج أسوار المدينة . وابتدأت المياه تتسرّب من بين حوائط سور المدينة . وبينما كان أبجر الملك قائماً بالبرج الكبير المسمى برج الفرس رأى المياه على ضوء مشاعل النار ، وأمر فرُفعت الأبواب والقناطر الثمانية للسور الغربي للمدينة من حيث ينبع النهر . وفي تلك اللحظة اندفعت المياه الى سور المدينة الغربي ودخلت الى المدينة وهدمت القصر الكبير الجميل (قصر) مولانا الملك واجتاحت كلّ ما وجدته أمامها من مباني المدينة الرقيقة الجميلة وكل ما كان قريباً للنهر من شماله وجنوبه . وأتلفت كذلك هيكل كنيسة المسيحيين . وهلك في هذا الحادث أكثر من الفين من الناس كان كثير منهم نائمين بالليل فطغت عليهم المياه فجأة وماتوا خنقاً ، وعندئذٍ امتلأت المدينة بأصوات العويل . فلما رأى أبجر الملك تلك الخسارة التي وقعت ، أمر أن يبعد جميع عمال المدينة أكواخهم من عند النهر ، وأن لا يبني أحد له كوخاً عند النهر . ووضعت الأكواخ بحكمة المهندسين والعلماء كما يسمح عرض النهر ، وزادوا على مساحته القديمة ، ومع أن المياه كانت كثيرة وقوية إلاّ أن عرض النهر كان صغيراً فانه يتلقى مياه خمسة وعشرين فرعاً بجملتها من جميع النواحي .

وأمر أبجر الملك أن جميع الذين يقيمون في الأروقة ويعملون أمام النهر لا يبيتون في أكواخهم من شهر تشرين الأول (اكتوبر) حتى نيسان (ابريل) إلاّ رجال الشرطة الذين يحرسون المدينة فان خمسة منهم يبيتون بالسور فوق المكان الذي دخلت منه المياه الى المدينة طيلة وقت الشتاء لكي يحسوا ويسمعوا في الليل صوت المياه الغريبة التي قد تأخذ في الدخول الى المدينة . . وكل من يسمع الصوت ويهمل في الخروج ، فإنّ المياه تنتقم منه لأنه أهمل أمر الملك . ووضع هذا الأمر هكذا من ذلك الوقت الذي صدر فيه الى أبد الآبدين . وعندئذٍ أمر أبجر الملك فبني له بناء لمقر ملكه في الشتاء هو « بيت تبارا » وكان يسكن هناك طوال فصل الشتاء ، وكان ينزل في الصيف الى القصر الجديد الذي

بُني له على رأس النبع . وكذلك بنى أشرافه مباني لاقامتهم الى جوار قصر الملك في السوق الكبير المسمى « بيت سحرايا » ، ولكي يستقر السلام الأول في المدينة أمر أبجر الملك فرُفعت أعباء الضرائب عن الذين في داخل المدينة ، وعن الذين يسكنون القرى والدساكر ورفعت الضرائب عنهم خمس سنوات حتى تَغْنى المدينة بالرجال وتزدان بمبانيها » .

﴿ خطاب مارا بن سرابيون ﴾ : أثرت ثقافة اليونان على السريان تأثيراً ظاهراً في سوريا الداخلة وهي سوريا الغربية ، ولكنها لم تكن لغة التخاطب وإنما كان تعليمها قاصراً على طبقة المثقفين من الأغنياء ويؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة رَبُّولا أسقف الرُّها (٤١٢ — ٤٣٥ م .) « أنه (أي ربولا) تعلم اليونانية كسائر أبناء الأغنياء في مدينتهم قنّسرين » — وقد ظلت اللغة اليونانية الى جانب السريانية لغة أدبية في تلك الجهات عدّة قرون بعد المسيح . وكان بعض الكتّاب من السريان يؤلفون باللغة اليونانية ثمّ تنقل كتبهم الى اللغة السريانية لكي يفهمها سائر الناس . ومن الذين كتبوا باليونانية لوقيان الشمشاطي (نسبة الى مدينة سميصات) في القرن الثاني . وأوسابيوس القيصري (من مدينة قيصرية) المتوفى سنة ٣٤٠ م . وطيطوس البُصري المتوفى سنة ٣٧١ . م وسويرس الأنطاكي .

وكان من تأثير اليونانية على السريانية أن استعمل السريان في كتاباتهم المصطلحات اليونانية ، نجد ذلك واضحاً في الخطاب الذي أرسله مارا بن سرابيون الى إبنه سرابيون .

ولم تكشف لنا النصوص السريانية التي بين أيدينا عن مؤلف هذا الخطاب ، وكل ما نعرفه عنه مستقى من خطابه الذي لا يمكننا تأريخه بالضبط ، فهو خطاب خاص من جهة ، وليست لدينا معلومات عن الحوادث التأريخية التي ورد ذكرها في الخطاب من جهة أخرى ، ومع ذلك فقد ذهب المستشرق الانجليزي كيوريتون ناشر الرسالة الى أنه ليس من الحقائق الواردة في هذا الخطاب ما يحول دون القول بأنه كتب فيما بين نهاية القرن الأول ونهاية القرن الثاني . وإليك ترجمة الخطاب :

« سلام مارا بن سرابيون الى سرابيون ابني . عند ما كتب الي أستاذك ومُربّيك ، وأطلعني أنك على صغر سنك مثابر على الدرس ، حمدت الله أنك وأنت حدَثٌ صغير بغير

مرشد خارجي قد بدأت بداية طيبة، فكان ذلك عندي مطيباً لخاطري أن أعلم عنك أيها الغلام الصغير هذا العقل الكبير، والنجابة العظيمة، التي يصعب أن تبقى عند الكثيرين، لهذا كتبت اليك هذه الرقعة عما استفدتُـه من العالم؛ فقد تتبعت حياة الناس، وقطعت في العلم شوطاً فوجدت أن التعاليم اليونانية كلها قد تحطمت عند ميلاد الحياة. فاحترسْ إذاً يا بنيَّ مما يصلح للأشراف، وفكِّرْ في الكتاب، وابحث عن الحكمة، فكِّرْ كذلك في تثبيت ما بدأتَ به، وتذكَّر أوامري بانتباه، وكن كالرجل الهادىء الذي يحب النظام، فالنظام وإن بدا لك شديد المرارة يصبح عندك عذباً حينما تتبعه زمناً قصيراً، وهذا هو نفس ما حدث لي.

أما الإنسان فانه عند ما يرتحل عن أهله، ويتمكن من الاحتفاظ بعادته، ويعمل كل ما يجب عليه بدقة، فإنه بذلك يكون الرجل المختار الذي تحلُّ عليه بركة الله، ولن يوجد من يشبهه في نبله. فإن أمثال هؤلاء الناس الذين يدعون الى النظام يريدون أن يتخلصوا من نضال الزمن. والذين يتمسكون بالحكمة يتعلقون بالأمل في العدل، والذين يقومون على الحق يظهرون مستوى فضائلهم، والذين يهتمون بالفلسفة يفكرون في الهرب من بؤس هذا العالم. أما أنت يا بنيَّ فتدبَّرْ هذا كله بحكمة، كرجل كريم يريد أن يحيا حياة نقية، وإياك أن تغريك الثروة التي يتعطش إليها الكثيرون. واجعلْ همَّك اشتياق الثروة غير الحقيقية. فإن الناس لا يتوقفون عند ما يحصلون على أمانيهم، حتى ولو ثبتوا على صلاحهم. وجميع هذه الأشياء التي تظهر لك في العالم كأنها حلم يتلاشى بعد فترة، فإنها مدُّ الزمن وجزره.

وأنت لا تفكر في الخيلاء — التي تملأ حياة الناس على أنها شيء من الأشياء التي تفرحنا، فإنها تُعجِّل لنا الألم وبخاصة ولادة الأبناء المحبوبين. وواضح في كلا الحالين أن في ذلك إذلالاً لنا. وحبُّ الخير كريه إلينا، ولكننا مدفوعون إليه بالعادة. ونحن نتعب في إصلاح المذنب ونحزن من جراء رذائله.

وقد سمعت عن أصدقائنا، أنهم لما غادروا «سُمَيْسِصات» حزنوا، وقالوا كأنهم يلومون الزمن: «لقد أُبعدنا من بين قومنا، ولا سبيل الى العودة الى مدينتنا لرؤية أهلنا

واستقبال آلهتنا بالتسبيح . كان الأجدر بذلك اليوم أن نسميه يوم الحسرة ، فقد استولى عليهم جميعاً على السواء همّ واحد ثقيل ، كانوا يبكون وهم يتذكرون آباءهم ، ويتأوّهون حنيناً الى أمهاتهم ، لقد حزنوا على إخوانهم ، وتألموا لفراق خطيباتهم .

ولما سمعنا بنبأ أصحابهم الأولين الذين ذهبوا الى سلوقيا ، استرقنا إليهم الطريق ، وأضفنا الى همومهم همومنا ، فاشتدّ همنا معاً عندئذٍ . وازداد بكاؤنا حقـا على ضياعنا ، وجمّعت الظلمة الحالكة حسرتنا ، ومنذ حين ونحن نضيق بالهموم ، حتى لم يستطع أحدٌ منا أن يدفع همومه التي تراكمت عليه . وأخذ يتدافع فينا حبُّ الحياة وألم الموت . وأخذ سوء الحظ يقودنا على غير هدى ، فرأينا إخواننا وأبناءنا أسرى ، وتذكّرنا رفقاءنا الذين ماتوا ودفنوا في غير أرضهم . كما اهتمّ كل امرىء منا بنفسه ، حتى لا تتراكم عليه كارثة فوق أخرى ، أو تدرك فيه المصيبة سابقتها .

ولكن ماذا يجني قوم محبوسون اعتادوا على ما هم فيه ! ؟

أما أنت أيها الحبيب ، فلا يحزنك أن تدفع بك وحدتك من مكان الى مكان . فلهذا وُلد الناس لكي يتقبلوا صروف الزمن ، ولتعلمْ أن كل أرض عند الحكماء سواء ، وأن الصالحين يجدون بكل مدينة كثيراً من الآباء والأمهات . فلتأخذ لك من نفسك موعظة : فما أكثر الناس الذين لا يعرفونك ولكنهم يحبونك كأبنائهم ، وما أكثر النساء اللائي يستقبلنك كأنك حبيبهنّ ، فما نجحت إلاّ لأنك غريب ، ولا اشتدت محبة كثير من الناس لك إلاّ لأنك صغير .

ماذا نقول الآن عن الخطيئة التي حلّت بالأرض وبالعالم الزكي الذي تؤدي اليه ، ونحن نرتجف من حركاته كما يهتزُّ الغاب على أيدي الريح . وإني لأتعجب من كثيرين ممن يطّرحون أبناءهم ، ودهشت لغيرهم ممن يربون غير أولادهم . وفي العالم قوم يقتنون الثروة ، وآخرون أدهشني أن ليس لهم من يرثهم . هكذا . فتدبرْ وانظرْ إن الضالين يسيرون في طريق الخيبة هذا .

قال لنا حكيم الناس : على أي المقتنيات يعتمد الانسان ، أو عن أي الأشياء يتحدث ، على أنها هي الأكثر تحملاً ؟ على كثرة الثروة ؟ فانها عرضة للنهب . أو على الحصون ؟ فإنها

مستباحة . أو على المدن ؟ فانها عرضة للتخريب . أو على العظمة ؟ فانها عرضة للإذلال . أو على الكبرياء ؟ فإنها محطمة. أو على الجمال ؟ فإنه ذابل . أو على القوانين ؟ فإنها زائلة . أو على الفقر ؟ فإنه محتقر . أو على البنين ؟ فإنهم يموتون . أو على الأصدقاء ؟ فإنهم كاذبون . أو على الشرف ؟ فإن الضغينة تسبقه . ومن هنا فليفرح بملكه رجلٌ كدارا ، وبثرائه رجلٌ كبلوقراطس ، وبشجاعته رجلٌ كأخيل ، وبامرأته رجل كأجا ممنون ، أو بنسله رجل كبريانوس ، أو بمهارته رجل كأرخميدس ، أو بحكمته رجل كسقراط ، أو بعلمه رجل كفيثاغورس ، أو بذكائه رجل كپولوميدس ؛ فحياة الناس يا بنيَّ زائلة عن العالم ؛ أما مجدهم وفضائلهم فباقية الى الأبد .

أما أنت أيها الابن الصغير فاختر لك شيئاً لا يبلى ، فإن الذين يتخلقون بتلك الصفات متواضعون ومحبوبون ، وهم جديرون بلقب « الطيب » . وإن لقيك شرٌّ فلا تلمْ الناس، ولا تغضبْ على الله ، ولا تأسفْ على زمانك . فإنك إن أقمت على هذا التعقل فلن يكون جزاؤك الذي تلقاه من الله قليلاً ، ذلك الجزاء الذي لا يعتمد على ثروة ولا هو قريب من الفقر. فدبِّر حياتك بغير خوف لكي تفرح حينما تريد ، فإن الخوف والاعتذار الطبيعي ليس من شيمة الحكماء ، وإنما هما شأن الذين يسيرون بغير قانون . فإن الانسان لا يُجرَّد من حكمته أبداً كما يُجرَّد من أملاكه ، فجِدَّ وراء المعرفة أكثر من سعيك الى الثراء . فكلما ازدادت الثروة كذلك تكثر الرذيلة ، فلقد رأيت أنه أينما تكثر الحسنات ، كذلك تقابلها السيئات ، وحيث تتزاحم المسرّات فثَمَّ أيضاً تتجمع المساءات ؛ وحيث تكثر الثروة فهناك أيضاً مرارة السنوات الكثيرة . فاذا فهمت ذلك ووعيته بدقة ما تخلّى الله عن عونك، ولا انفكَّ الناس عن محبتك . يكفيك ما استطعت اقتناءه، فان أمكنك أن تعمل بغير مقتنيات فانك حينئذٍ تلقب «بالطيب»، لأن أحداً لن يحقد عليك. وتذكَّر أيضاً : انه لن ينقص حياتك شيءٌ الاّ ما تقتنيه ، فلن يسمى أحد بعد موته « رب أملاك » . وان القوم الضعفاء يذِلون من أجل الشغف بهذه الأملاك ، وهم لا يعلمون أن الانسان انما يقيم في أملاكه كعابر سبيل وهم — خوفاً من عدم بقاء هذه الأملاك — يتركون ما لهم ويطلبون ما ليس لهم .

وأي شيء آخر يجب أن نقول عند ما يساق الحكماء بالقوة على أيدي الظالمين ، وتحبس

حكمتهم بتهمة باطلة ، ويظلم ذكاؤهم بغير دفاع . فماذا جنى الأثينيون من قتل سقراط ؟ لقد أصابهم الموت والوباء عقاباً لهم . أو ماذا جنى أهل ساموس من إحراق فيثاغورس ؟ لقد غطت الرمال ديارهم كلها في ساعة واحدة . أو ماذا جنى اليهود من قتل ملكهم الحكيم ؟ لقد ضاع ملكهم منذ ذلك الزمن نفسه . لقد عوّض الله حكمة هؤلاء الثلاثة : فان الاثينيين ماتوا حينما جاءوا ، وغطى البحر أهل ساموس فلم يستطيعوا له دفعاً ، وحلّ الخراب باليهود وطُردوا من مملكتهم ، وتشتتوا في كل مكان . لم يمت سقراط ، بل بقي في شخص أفلاطون ، ولم يمت فيثاغورس أيضاً من أجل تمثال هارا . وكذلك لم يمت الملك الحكيم من أجل الشرائع الجديدة التي وضعها .

أما أنا يا بنيّ فقد جرَّبت على أي بؤس فظيع يقوم الناس ، وتعجبت من أن الشرور التي تحيط بهم لم تتغلب عليهم ، بل ولم تكفهم الحروب ولا الأمراض ، ولا الموت ، ولا الفقر ؛ ولكنهم كالحيوانات الشرسة يفتك بعضهم ببعض في عداوة ، ويتسابق كل منهم في إلحاق أكبر قسط من الشر بصاحبه ، لقد جاوزوا حدود الحق ، وتخطوا جميع النواميس الجميلة لأنهم يتعلقون بشهوة أنفسهم . طالما كان الانسان راغباً فيما يروقه ، فكيف يستطيع أن يفعل بحق ما يجب عليه ؟ والناس لا يعرفون الاعتدال ، وقلما يمدّون أيديهم الى الحق والفضيلة ، ولكنهم يعيشون عيشة الصم العمي . أما الحمقى فيفرحون ، وأما الصالحون فيجزعون . والذي عنده منكر ، والذي ليس له يبذل جهده ليملك ، فالمساكين يسألون ، والأغنياء يخفون ؛ وكل واحد يضحك من صاحبه . فالمخمورون مخبولون ، والذين أفاقوا نادمون . فمنهم من يبكي ، ومنهم من يغني ، وآخرون يضحكون ، وغير هؤلاء قد اضطربت عقولهم يفرحون بالسيئات ، ويهجرون الرجل الذي يقول الحق ، إن الانسان ليتعجب من ذلك ، فحينما يتحطم العالم باحتقار لا يكون للناس وسيلة واحدة للحياة ، ومع ذلك فانهم بهذا يعتنون . يتطلع المرء منهم متى سيتلقى تهنئة النصر في المعركة ، ولا ينظر الشجعان من أجل كم من الرغبات الحقيرة يذلّ المرء في هذا العالم . ولكني أرجو أن يصيب الندم قليلاً هؤلاء الذين ينتصرون بقوتهم ، ويخورون أمام شرهم . لقد جربتُ الناس ، وهكذا جربتهم ! انهم يتطلعون الى شيء واحد هو كثرة الثراء ، ومن أجل هذا لا يستقرّ لهم رأي ،

ولـكنه يختلف باختلاف عقولهم . فإن الناس يتحطمون بسرعة عند ما يلتهمهم الألم ولا يتطلعون الى ما في العالم من ثراء واسع ، فان اختلاف الرأي ينتهي بنا جميعاً - على السواء - الى كل تعب ، لأن همّ الناس تكبير بطونهم ، وهي الرذيلة التي بها يتم الفساد .

ولقد كتبت لك هذا الذي جال بخاطري ، ولا يكفي أن تقرأه ، ولـكن يجب أن يتقدم العمل عليه . وإني أعلم أيضاً أنك عند ما تتعوّد طريقة الحياة هـذه فانها ستسرك كثيراً ، وتكون منزهاً عن الاحتقار الدنيء ؛ فاننا من أجل الأبناء نتحمل الغنى . فتخلّص اذاً من الحزن الذي يحبه النـاس فانه أمرٌ لا يفيد شيئاً ، وادفع عنك الخبل الذي لا ينتج فائدة ، لأنه لا حيلة لنا ولا سبيل الى تلافي السيئات وتحمل الأحزان التي يلقانا بها الزمن دائماً بيديه . والأفضل أن ننظر الى هذه الأشياء ، وليس الى تلك المليئـة بالفرح وحسن الأحدوثة . فادفع نفسك الى الحـكمة معين كل الخيرات ، والـكنز الذي لا ينفد ، وعندها فاسند رأسك واسترح ، لأنها ستكون لك حقّـا ، الأب ، والأم ، والرفيق الطيب في حياتك . ولتألف المثابرة والصبر ، فانها هي التي تستطيع أن تواجه يأس الضعفاء من الناس ، فتشد من أزرهم لـكي يتحملوا الجوع ، ويصبروا على العطش ويرفهوا كل حزن ، ويتحدثوا عن التعب والموت . فتدبّـر ذلك كله لتقضي حياة هادئة ، وتكون قرّة عينٍ لي ، وتدعى زينة والديه فإنه في الزمان الأول ، حينما كانت مدينتنا في أوج عظمتها تستطيع أن تعلم أن قوماً كثيرين قد وُصِموا بألفاظ جارحة . أما نحن فقد جعلنا الزمن نعتقد أننا قد تقبّلنا من عظمته على التساوي حبّـا مناسباً وجمالاً ، ولـكن الزمن قد رفض أن يتم هـذه الأشياء المنقوشة في عقولنا .

ونحن هنا أيضاً في الأسْر نحمد الله أننـا تقبلنا حب الـكثيرين فقد رُضنا أنفسنا على أن تقوم على الحـكمة والسرور . فإذا ساقنا أحـد بالقوّة فهو إنما يقدم الشهادة على نفسه أنه بعيدٌ عن كل الطيبات ، وليتقبل الخزي والعار من هدف نجس للعار . أما نحن فقد أظهرنا صدقنا أننا لا نقصد شرّاً بمملـكة . فإذا سمح الروم لنا بالعودة الى ديارنا بالعدل والصدق فليفعلوا ذلك كقوم رحماء ، وسننعتهم بالطيبين الصالحين ، وسيكون الأقليم الذي يقيمون فيـه في أمن . فليظهروا عظمتهم بتركنا أحراراً . فلْنُطِيع المملـكة التي منحتنا

الزمن إيَّـاها على أن لا نساق كما يسوق الظالمون العبيد ، فإن قُـدِّر أن يقع شيء ، فلن يصيبنا ما هو أكثر من الموت الهادىء المقدَّر لنا .

أما أنت يا بنيَّ ، فإذا أردتَ أن تعلم هذه الأشياء بعناية فاحكُـم الشهوة أولاً ، وقدِّر جرمُ ما أنت قائمٌ به ، واحذر أن تغضب ، واستمع للخير بدلاً من الغضب . فإني الآن أفكـر في ذلك ، لعلي حينما أعود الى نفسي أن أترك لها كتاباً ، وأنجز بعقل حكيم ذلك الطريق الذي أساق إليه ، فأنجو بغير حزن من خراب الدنيا الفظيع ، فإني أصلي لـكي أفنى ، ولا يُهمُّـني أي موت . فاذا حزن أحد عليَّ ، أو حمَّـل نفسه أية مشقة ، فإني أنصح له ألاَّ يفعل ، فانه سيجدنا أمامه هناك في طريق العالم » .

وقد اشـتمل المخطوط على عبارة أثرت عن مارا يظهر أن أحد نسَّـاخ هذه الرسالة قد أعجب بها فدوَّنها في نهاية الرسالة وهي :

« وقد سأله أحد أصـدقائه حينما كان أسيراً معه : بحياتك إلاَّ قلت لي . ما الذي يضحكك ؟ فقـال له مارا : إني أضحك على الزمن الذي يَرُدُّ إليَّ سوءاً لم يستعره مني من قبل » .

وأسلوب هذه الرسالة متين وعباراتها مقتضبة بحيث يحمل اللفظ القليل المعنى الـكثير. ويظهر منها أن مارا كان من مدينة سميصات، وأنه كان وثنيـاً من أصحاب الفلسفة الرواقية ومن أتباع زينون ، ويبدو أن الرومان قد اتهموه بالاشتراك في حركة سياسية لا نعلم من أمرها إلاَّ أن الروم قد أخمدوها ، ونفوا عدداً من زعماء القائمين بهـا الى سلوقيا . ويشير المؤلف فيها الى ما لقيته سميصات من تخريب، والى أنه هو نفسه قد زُجَّ به في السجن مع غيره مكبَّـلاً بالأغلال . وأن الفاتحين عاملوهم معاملة جائرة لعـدم وفائهم للحكومة الرومانية ، ثم يصف بؤس أصدقائه ورفقائه من أبناء مدينته ، وما شعروا به من يأس عندما التقوا معاً في الطريق الى سلوقيا ، ثم يشير الى تخريب بيت المقدس .

والى جانب ذكر سقراط ، واحراق فيثاغورس ، يذكر المؤلف تشتت اليهود نتيجة لانتقام إلـهي منهم لأنهم قتلوا « الملك الحـكيم » على حد تعبـيره ، وقد أضـفت هذه الفقرة على الرسالة مسحة مسيحية ، وأكسبتها أهمية خاصة ، إذ يظهر أنه خُـيِّـل للأجيال

المسيحية الأولى من جراء ذكر اسم « الملك الحكيم » (أي المسيح) ، ومن تمشي روح الرسالة مع الروح المسيحية أن المؤلف مسيحي ومن أجل هذا قُدِّر للرسالة البقاء .

وقد وجَّه مارا من سجنه هذا الخطاب الجميل الى ابنه الذي كان يدرس بعيداً عنه في بلد آخر رداً على خطاب تلقاه من أستاذه يذكر له فيه أن ابنه مثابر على الدرس . وقد نصح الأب ابنه أن يضبط عواطفه ، وحبَّب اليه البحث عن الحكمة وزرعها ، وقد نظر المؤلف الى العالم في هذا الخطاب نظرة أصحاب الفلسفة الرواقية من أتباع زينون (٣٩٢ — ٢٦٠ ق . م .) .

﴿ قصة أحيقار ﴾ هي قطعة من التراث الأدبي للأجيال الغابرة ، لقيت رواجاً قلما ظفرت به قصة أخرى ، فقد عُرفت في كثير من الآداب القديمة ، كما ترجمت الى عدد كبير من اللغات القديمة والحديثة ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد ترويها للملك شهريار والتي عرفناها في كتاب « الف ليلة وليلة » .

وأقدم ما عثر عليه من نصوص هذه القصة ترجمة آرامية قديمة ، كتبت على إحدى عشرة ورقة من أوراق البردي كشف عنها في جزيرة الفنتين بالقرب من أسوان ، مع غيرها من الوثائق التي خلّفتها جالية يهودية كانت تسكن هذه الجزيرة ، وترجع الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . أما تاريخ تأليفها فلا يزال موضع بحث ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنها ألفت قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد .

ويقال إنها عُرفت عند اليونان بعد ذلك بقليل فيروي كليمانس الاسكندري وهو من كتّاب القرن الثاني بعد الميلاد أن ديمقريطس (في القرن الخامس قبل الميلاد) قد ألّف كتاباً في المواعظ الأخلاقية البابلية تناول فيه ما في قصة أحيقار من حكمة ؛ وكذلك أشار اليها سترابون . (فصل ١٦) وتيوفراستوس (فيما بين سنتي ٣٧٤ ، ٢٨١ ق . م .) .

والذي يبدو محققاً أن هناك تداخلاً بين قصة أحيقار وبين بعض أسفار العهد القديم ، وهي كتب الحكمة بوجهٍ عام ، فقد لاحظ الباحثون المتقدمون الشبه العام بين أخلاقيات أحيقار وبين اسفار الأمثال والجامعة وابن سيراخ ، فليس من شك أن هناك مادة مشتركة بين ابن سيراخ وأحيقار ، نضرب لذلك مثلاً التشبيهات الخاصة بثقل الأحمق عن الرصاص ، وثقل

الغضب عن الحجر والرمل ، وثقل الدَّيْن عن الرمل والملح ، ومرارة الفقر عن العلقم ؛ يرجح الباحثون أن قصة أحيقار هي الأصل وأنها أقدم من سفر ابن سيراخ .

وهناك تداخل مشابه في التفكير والتعبير بين أحيقار وسفر الأمثال في أمثال أحيقار الأخلاقية ، وهـذا التشابه واضح جداً في الكلمات الختامية لتعاليم أحيقار حيث يشتمل النص على جمل على شكل نبوءة أجور في الاصحاح الثلاثين من سفر الأمثال ، حيث رُتِّبت الحوادث والأشخاص والأشياء في مجموعات عددية . والملاحظ في هذه المجموعات أنها في الصورة الأرمينيـة لقصة أحيقار مأخوذة — فيما يقال — من مجموعة مستقلة عنوانها « أسئلة أبناء الملك وإجابات أحيقار » وفيها يُـذكر اسما ابني الملك وهما هودَيْ وبَلْسيان ، ومن هنا نستطيع أن نفهم اسمي ايثيئيل وأكال الغامضين في هذا الاصحاح واللذين يُوجه اليهما أجور وحيه . وليس أجور نفسه إلاَّ صورة مزدوجة من أحيقار .

ونستطيع أن نقول إن عدداً من المزامير ذات صيغة خاصَّـة تتناسب مع حالة أحيقار في مخبئه ، وهناك مزمور أو اثنان متداخلان في اللغة التي كتبت بهـا القصة التي وصلت الينا بشكل عجيب ، وهو المزمور الحـادي والأربعين بعد المائة . وهنـاك كذلك تعابير كثيرة متشابهة تصف الحيـاة الأشورية في كل من أحيقار وسفر دانيال ، وفيهما كذلك تشابه لغوي .

وكذلك أشار الى القسم الأول من هذه القصة مؤلف سفر طوبيا ، وهو من الأسفار المحذوفة (ألّـف حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد) ومن المؤكد أيضاً أنها كانت شائعة في الشرق في فجر المسيحية ، فقد أشار اليهـا كليمانس الاسكندري أو المصدر الذي أخذ عنه ـ كما ذكرنا ـ وكذلك كشف في مدينة ترير Trier الواقعة على الرين عن قطعة من الفسيفساء عليهـا صورة أحيقار واسمه صنعت بناء على طلب تاجر سوري اسمه Monnus (أي معن) .

وهناك أيضاً تشابه كبير بين قصة أحيقار وبين بعض أجزاء العهد الجـديد ، وأول ما لوحظ منهـا المثل الذي ضربه المسيح عن العبد الشرّير الذي أخـذ يأكل ويشرب مع السكارى ، ويضرب الجواري والغلمان ، فاذا عاد سيده فجأة قطعه وجعل نصيبه مع المرائين ،

يقابله شخصيــة نادان تماماً في قصة أحيقار وكذلك قصة نهاية يهوذا الاسخريوطي : أنه خنق نفسه كما في انجيل متى أو أنه سقط على وجهه وانشقَّ من الوسط وانسكبت أحشاؤه كلها . فإن خلف يهوذا يظهر شبح نادان الشرير الذي كانت نهايته أنه انتفخ حتى انفجر . وكذلك مثل الشجرة غير المثمرة المغروسة على الماء تقابل المثل الذي قاله المسيح عن شجرة التين غير المثمرة التي كان سيدها مُصيراً على قطعها ، وهناك أيضاً مثل من أمثال أحيقار منقول في رسالة بطرس الثانيــة ، وهو مثل أحيقار في توبيخ نادان: « يا بنيَّ ، لقد فعلت كالخنزير الذي دخل الحمام مع الأكابر ، فلمـا خرج من الحمام نظر جورة حمأ فنزل تمرَّغ فيها » فاننا نجد تفسيره في مثل بطرس « قد أصابهم ما في المثل الصـادق كلب قد عاد الى قيئه ، وخنزيرة مغتسلة الى مراغة الحمأة » وربما كانت هناك نظائر أخرى لقصة أحيقار في كتاب العهد الجديد ، ولـكننا نكتفي بهذا القدر من الأمثلة .

وقد عرف السريان هذه القصة وترجموها الى لغتهم في عصر متقدم ، يدل على قدمها تلك المسحة الوثنية الظاهرة فيها ، والتي لا أثر لها في النص الآرامي . وهذا النص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك .

وقد عرفهـا العرب كذلك قبل الاسلام وبعده ، أشار اليهـا الشاعر المسيحي الجاهلي عديّ بن زيد في قصيدة له ذكرها البحتري في حماسته في الباب التاسع والأربعين فيما قيل في غلبة الزمان وإفنائه الأمم :

فبتّ أعدي كم أسافت وغيرت ... وقوع المنون من مسود وسائد

صرعنَ قباذا ربّ فارس كلهـا ... وحشّت بأيديها بوارق آمـد

عصفن على الحيقار وسط جنوده ... وبيّـتنَ في لذاته رب مارد

وقد ذكر الجواليقي نفس البيت مع شيء من التحريف في كتابه المعرب (طبعة ليبزج سنة ١٨٦٧ ص ٥٤) فقال : والحيقار ملك من ملوك فارس ، قال عديّ بن زيد يذكر من باد

وغُـصن على الحيقار وسط جنوده ... وبيّـتنَ في خاداشه ربّ مارد

كما أورده صاحب لسان العرب (ج ٥ ص ٣٢٥) .

ويذهب المستشرق الانجليزي رندل هريس في كتابه قصة أحيقار (طبع لندن سنة

١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة) الى أن القرآن قد أشار الى أحيقار في سورة لقمان ، ويرى أن لقمان هو نفس أحيقار ، وحجته على ذلك أن القرآن يتحدّث عن كثير من القصص اليهودية والمسيحية ، فليس من المستغرب أن يشير الى قصة أحيقار ، وان كلاً من أحيقار ولقمان يوصف بالحكمة ، وأن كلاً منهما كان يلقن ابنه حكماً يبدؤها بقوله « يا بنيّ » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فنجد في القرآن مثلاً قوله تعالى: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» : (سورة لقمان آية ١٩) بينما نجد في قصة أحيقار «يا بنيّ احن رأسك ورقق من صوتك وكن بشوشاً ، وامش في الطريق المستقيم ولا تكُ أحمق ، ولا ترفع صوتك بالضحك ، فانه لو كان البيت يبنى بالصوت المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد» . ثم يقول : وقد بحث المفسرون والنقاد عن شخصية لقمان ، أهو نبي قد هبط عليه الوحي أم هو مجرد حكيم ؟ وانتهى المسعودي وغيره من علماء المسلمين الى انه لم يهبط عليه الوحي ، وانما بلغ من الحكمة والبلاغة مبلغاً عظيماً .

وقد عرف العرب قصة أحيقار بعد الاسلام في مجموعة قصص « الف ليلة وليلة » كما أسلفنا .

والقصة كما وصلت الينا عن السريانية تنقسم الى قسمين أساسيين : فيقص المؤلف علينا في القسم الأول أن أحيقار كان وزيراً حكيماً لملك أشور ونينوى سنحاريب بن سرحدون ، وكان ذا مال كثير ومعرفة ورأي وتدبير ، وانه كان وثنيًّا يعتقد بتعدد الآلهة ، وكان همه الأكبر وشغله الشاغل أن يرزق بغلام يخلفه من بعده فيرث ثروته وحكمته فتزوج ستين امرأة ، ولكنه لم يُنجب ، ولهذا كان كثير الحزن والهم ، فاستشار السحرة والمنجمين ، فأشاروا عليه بأن يذبح للآلهة حتى يرزقوه ولداً ، ولكن ذلك لم يفده شيئاً ، فهجر الوثنية الى عبادة إله واحد ، ولكن ايمانه الجديد لم يساعده على تحقيق أمنيته ، فلم يرزق وريثاً يخلفه ، ويلقنه درر الحكمة عقاباً له على عقيدته الأولى . ثم إنه تضرّع الى الله تائباً ، فسمع صوتاً يقول له : خذ نادان ابن اختك واجعله لك ولداً ، وعلمه علمك وأدبك . عند ذلك أخذ نادان وكان بعد رضيعاً ، فاعتنى به وسلمه الى ثماني مرضعات ، فلما كبر وشبّ كالأرز

العالي علمه الأدب والكتابة والعلم والفلسفة . وبمر الزمن ويرى سنحاريب الملك أن أحيقار قد كبر فيطلب اليه أن يعين من يخلفه من بعده ، فيجيبه بأنه قد اتخذ من ابن اخته نادان ولداً ، فيأمره الملك باحضاره ، فاذا حضر أُعجب به وسُرَّ منه ووافق على أن يجعل منه خلفاً لأحيقار . وعند ذلك يأخذ أحيقار في بذل النصح لنادان وإطلاعه على نتيجة التجارب التي اكتسبها من الحياة ، وكان مما قاله له :

يا بنيَّ : اذا سمعت كلمة فدعها تمُت في قلبك ، ولا تكشفها لغيرك لئلاً تصبح جمرة تحرق لسانك ، وتترك الألم في جسدك ، وتكسبك الخزي والعار عند الله والناس .

يا بُنيَّ : لا ترفع عينيك الى امرأة متزينة ولا تشتهيها بقلبك ، فانك إن أُعطيتها كل ما في يديك ، فلن تجد عندها ما يفيد ، وتأثم بالخطيئة .

يا بنيَّ : نقل الحجارة مع رجل حكيم خير من شرب الخمر مع رجل لئيم.

يا بنيَّ : اذا أكل الغني الحية ، قالوا أكلها تطبُّباً ، وإذا أكلها الفقير قالوا أكلها جوعاً

يا بنيَّ : لا تحُل بين ابنك وضرب السياط ، لأن الضرب للصبي كالزبل للبستان .

يا بنيَّ : اذا أرسلت الحكيم في حاجة فلا توصه كثيراً ، لأنه يقضي حاجتك كما تريد ولا ترسل الأحمق بل امض أنت واقض حاجتك .

يا بنيَّ : كرعة في يدك خير من وزة في قدر غيرك . ونعجة قريبك خير من ثور بعيد. وعصفور حقير في يدك خير من ألف في الهواء .

ثم إن أحيقار تنازل لابن اخته عن وظيفته وثروته وكل ما له من العبيد والجواري ولم يحتفظ لنفسه إلاَّ بجزء صغير منها . ولكن نادان خيب آمال مربيه ، فأضاع الثروة وجعل عرضه هدفاً للأقاويل السيئة ، فعاقبه أحيقار على ذلك بأن استردَّ الميراث منه ومنحه الى أخيه الأصغر «نبوزار ادّان». فحقد نادان على خاله ، وأخذ يفكر في الايقاع به.

ويختتم القسم الأول بمحاولة نادان الانتقام من أحيقار ، فيسلك الى ذلك طريقاً دنيئاً : فيدس على خاله خطابين ، وُجِّه أحدهما الى ملك الفرس ، ووُجِّه الثاني الى فرعون مصر ، وصُوِّر أحيقار في كليهما بصورة الخائن لوطنه وملكه ، فقد طلب الى الملكين الحضور لكي يُسلم إليهما المملكة بغير حرب . ويقع الخطابان في يد الملك وفق الخطة المرسومة. ثم زوَّر في نفس الوقت خطاباً ثالثاً موجهاً الى أحيقار على لسان الملك ، يطالب

إليه فيه أن يجمع كل العسكر الذي عنده ويحضر معهم يوم الخميس في بقعة نسرين ، وأن يجعل الجند تُظهر مهاجمته أمام رسل فرعون مصر لكي يعلموا مبلغ قوته . وهنا يقع الحكيم في الحبائل التي نصبت له ، فيطيع ما توهَّم أنه أمر الملك . وتقوى الريبة في نفس الملك ، فاذا هو يلمس خيانة أحيقار فيصدر أمره بالقبض عليه وقطع رأسه .

ويشاء القدر أن يكون أحيقار — في مناسبة سابقة — قد أنقذ ذلك الرجل نفسه — الذي وُكل اليه أن يقطع رأس أحيقار ويقذف بها مائة ذراع بعيداً عن جسده — فيدبر هو وامرأة أحيقار أمر خلاصه ، ويقتل مكانه أحد المحكوم عليهم بالاعدام ، ويختبيء أحيقار في سرداب في حديقة بيته لا يعلم به أحد .

فاذا كان القسم الثاني تغيَّر اتجاه القصة ، وظهر فيها طابع القصص الهندي حيث توصف شخصيات الوزراء بالحكمة وسرعة الخاطر والقدرة على حل العقد والألغاز . فنحن نري نادان يخلف أحيقار ، ولكنه ضعيف بادي الضعف ، فينتهز فرعون مصر فرصة ضعفه لاحراج ملك أشور فيبعث اليه يخيِّره بين اثنتين : أن يُرسل من يبني له قصراً في الهواء ويرد على أسئلته ، فتدفع مصر له الجزية ثلاث سنوات ، أو أن يعجز عن ذلك فيدفع الجزية لمصر . ويجمع ملك أشور العلماء والحكماء والفلاسفة والعرَّافين والمنجمين فيعرض عليهم الأمر فيقرُّون بعجزهم ، ثم يعرضه على نادان فاذا هو أشد منهم عجزاً . وعندئذ يحزن الملك على أحيقار ، ويأسف على قتله إياه ، ويطول حزنه عليه ، فاذا رأى السيَّاف ذلك تقدَّم بين يدي الملك وأخبره أن أحيقار على قيد الحياة ، فيُسَرُّ الملك لذلك أيما سرور ، ويخرج أحيقار من مخبئه فيمثل بين يدي الملك ، فيعرض عليه الملك رسالة ملك مصر ، وكان المتوقع هنا أن تتقدم العدالة لكي تنتقم من نادان على مؤامرته ، ولكن الحلم والقيام بالواجب يؤخرانها حيناً حتى يذهب أحيقار الى مصر ليجيب على أسئلة فرعون ، فيُعدّ أحيقار نسرين وغلامين وشريطين طويلين من القطن طول كل منهما ألفا ذراع ، ويربط النسرين بالشريطين ، ويدرّب الغلامين على الركوب على ظهر النسرين ثم يطلقهما فيطيران في الجو على طول الشريط فاذا وصلا الى الجو صاح الغلامان قدموا لنا الحجر والملاط . ويلتقي أحيقار ملك مصر فيسأله الملك أن يشبِّهه هو وأكابر

مملكته . ويدوم الحال على ذلك أياماً ، حتى اذا كان ذات يوم طلب إليه الملك أن يبني له بيتاً بين السماء والأرض فيطلب إليه أحيقار أن يُعد الحجر والملاط ، ثم يطلق أحيقار النسرين وعليهما الغلامان ، فاذا استقرا بين السماء والأرض صرخ الغلامان : أرسلوا الحجارة أرسلوا الملاط فنحن على استعداد للعمل ، وأخذ أحيقار وأتباعه يصرخون في الفعلة وجند الملك لكي يُقدموا للبنائين ما يريدان ، ويرى الملك استحالة نقل شيء إليهما ويعترف لأحيقار بالنصر .

وفي اليوم التالي يقول فرعون لأحيقار إن حصان سيدك اذا صهل في نينوى سمعته خيلنا هنا فطرحت . فلما سمع أحيقار ذلك أحضر سنوراً وأخذ يجلده جلداً شديداً ، فأخبر الناس الملك . فأحضره وقال له لِمَ تضرب هذا الحيوان الأخرس ؟ فقال له إن سيدي الملك كان قد أهداني ديكاً يعرف ساعات النهار والليل وقد تركته في نينوى فقام عليه هذا السنور في هذه الليلة فقطع رأسه ، ولذلك فاني أجلده . فقال له فرعون إن بين مصر ونينوى ثمانية وستين فرسخاً فكيف يستطيع السنور الذهاب الى نينوى والعودة منها ، فقال له أحيقار إذا كان بين مصر ونينوى هذا المقدار فكيف تسمع خيلك صوت حصان سيدي ! ؟

وتستمر هذه الألغاز فيطلب منه أن يفتل له حبلاً من رمل البحر ، وأن يخيط له حجر رحى قد انكسرت ، ويجيب أحيقار على أسئلته جواباً مقنعاً ، فيعجب به فرعون ويكافئه . فاذا عاد أحيقار الى وطنه غنياً بالهدايا بعد أن طبَّقت شهرته الآفاق ، ومثل بين يدي سنحريب على أنه منقذ بلاده . عندئذٍ يجيء دور الانتقام فيلتمس أحيقار من الملك أن يسلِّم اليه نادان فاذا دُفع إليه ربط يديه في سلسلة من حديد وألقاه في مكانٍ مظلم في بيته وجعل غذاءه الخبز والماء ، وأخذ يؤنبه بحكمه ، وكان مما قاله له :

يا بنيَّ : قيل بالأمثال من لا يسمع من أذنيه أسمعوه من قفاه .

يا بنيَّ : اعلم أنه لو طال ذنب الكلب والخنزير عشرة أذرع لم يقم مقام الفرس ولو كان مثل الحرير .

يا بنيَّ : أنت صرت لي مثل قملة الحنطة ، لا تصلح لشيء وإنما تُفسد الحنطة وتنخرها .

يا بنيَّ : قد ثبت قولهم ، إذا ولدت ولداً فادعه ابنك ، وإذا ربيت ولداً فادعه عبدك .
فلما سمع ناداك هذا الكلام من خاله وكان يشعر أنه سيعاقبه بأقسى أنواع العقاب ، أراد أن يريح نفسه ويريح خاله ، فيعمل على تبسيط الحوادث ، فإذا هو ينتفخ ثم ينفجر ميتاً . وبذلك تنتهي القصة .

﴿ بابا الحراني ﴾ : ليس لدينا شيءٌ موثوقٌ به عن بابا هذا ، وكل ما نعرفه عنه مستمدٌ مما ذكره مؤلفو كتب الجدل من المسيحيين ، وكان أكثرهم يطلق عليه اسم نبي حرّان وصاحب كتابات في عصر ما قبل المسيحية ، وسماه ابن الصليبي في كتابه في الرد على العرب « الفيلسوف الحراني » ، وكل ما نقل عنه مستمدٌّ من كتابين منسوبين اليه يشتملان على وحي وتنبؤات تحت عنوان « الكتاب الأول » و « الكتاب الثاني » وقد نشر اغناطيوس افرايم الرحماني سنة ١٩٠٤ مقتطفات منهما في كتابه « دراسات سريانية » Studia Syriaca نقلاً عن مخطوطة في دير الشرفة ننشر هنا ترجمتها العربية :

« لم أكن أحب أن أقول هذه الأشياء . ولكني مضطرٌ — رغم أنني — الى كتابة ما سوف يقع ، وإني لحزين وباك لوقوعه : تجيء النار — التي هي أقدم من العالم — الى هذه الأرض ، وترى في جسم الأرض والناس وهم لا يشعرون ، ثم تعود فتصعد الى مكانها المرتفع عند ذلك المجد المختفي عن الجميع . وعندما تكون هناك في مكانها يجيء مشبهوها من أبناء حرّان ، فيقول أبناء مدينة سين (أي القمر) تبّاً لبابا تلك هي الحكمة من أبناء السماء . فلما انتثر عزيز الكل تطيّروا به وخرج منها سكانها » .

ومن نفس الكتاب : « يُرى على الأرض إدراك النار الذي لا يموت ، والقرابين الأبدية والنور الذي لا ينطفىء ، وهو ساكن بالسماء ، ويحكم بالسماء وبالأرض وهي به حية ، والكل به مستعين . وكان أبناء حرّان مخادعين . كل ما كان ، فهو كائن . وهو أقدم الكل وبه حلّت الحكمة وفيه أقامت . وخارج النور لا يقوم شيء . أيتها الأرض لا تنغمسي في الخطيئة . ولكن اعلمي أن النار التي رأيتُ قائمة الى الأبد عندما تطلب القمة ، وتفعل السنون بالأرض في وقت قليل وتافه . تجيء السيئة على ظلهم ، ولا تقوم رجلهم حتى يرون النار التي رأيتُ ويسجدون لها بحق » .

ومن نفس الكتاب أيضاً : « يقولون كلمة بكنز . تعالوا نقع على الأرض ، ونسجد لله خالقها ، ويكون بالأرض معبد كبير وقدس ، ويقرّب كل الشعب قرباناً لله بمحبة خالصة »

ومن الكتاب الثاني : « ينظرون الى الشعاع الذي ظهر من حيث لايظنون ، ويظهر في مكانهم ، ويظهر مع كل معادل له بنور عظيم لا يُدرَك . ويشعر كل سكان المعمورة بجلال الشعاع الذي اختفى وظهر . ورأيت كأن الروح تخاطبني أن ولداً من نور ونار وُلد من الأرض للفائدة والضرر، وللقيام والسقوط . واحسرتاه ! بعد زمن سيتصدّع بيت الآلهة الذي كان ممجّداً وعالياً كما كان كابيتول روما ، ولن يتركوا به حجراً على حجر لا ترتعدي إن علمت أن نور الشعاع مُبطل أشياء كثيرة . ينزل شعاع الرب واضحاً على الأرض . ويبقون بغير آيات حتى يظهر الضياء . ويأتي أبناء فارس يقدمون الهدايا للشعاع : ما أقدس تدبير الألوهية ، وما أعجب المعجزة التي تظهر بالأرض ، إنها أعلى من الكلمة ، وهي فوق إدراك العقل ، ولا تُدرَك ولا تُحصى أبداً . ثم تقيم الأرض في السلام قليلاً ، وينهض ملكوت الشرق ، وتزول وتُخرّب مدينة اليهود . ويقع عابور (أي العبريون) في السبي وتخدم بابل من أجل ولد المعجزة الذي ذُكرتْ قصته . ثم ينهض ملوك الغرب ويأتون حتى إقليمنا ، ويذبحون داخل عزوز ، ويقرّبون القرابين في داخله . ويريدون إبطال الدين ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا هكذا لأن الآخرين الذين بعدهم يملكون وهم يُشرفون »

ثم قال : « بعد زمن طويل سيجيء اسم كبير من الشمال ويقيم داخل عزوز ويبجل زملاءه ، وكل من لا يتبع كلامه يتحكم فيه الخراب » .

ثم قال : « محتقر رسله أعني جماعته » وقال : « من الكل وحلّ بالكل تلك هي المعجزة التي حدثت » .

وقد نقل ابن الصليبي بعض فقرات من الكتاب الثاني في الفصل التاسع عشر من كتابه في الرد على العرب (وتقع في نهاية العمود الثاني من صفحة ٥٤ من مخطوط المتحف السامي بجامعة هارفارد رقم ٤٠١٩ وفي الجزء الأخير من صفحة ١٧٣ من مخطوط الفاتيكان رقم ٩٦) وقد وردت هذه الفقرات ضمن القسم الذي أوردناه

ويلاحظ أنه ينحو في كتابته نحو أسلوب وحي الكهّان بجمله القصيرة التي يشير

كل منها الى معنى مستقل، والفاظه تحمل بين ثنـاياها أكثر من تأويل واحد . ومما يسترعي النظر أن المسيحية قد أبقت على هذا الـكتاب ، ولعلّ الذي دفعها الى الإبقاء عليه اشتماله على تنبؤات عن المسيح لـكي تُقنع به وثني حرّان بالدخول في المسيحيـة ، على اعتباره كلام نبي لهم . إلاّ أن أسلوب هذين الـكتابين وما اشتملا عليه من عبارات ومعاني مسيحية يدفعنـا الى الشك في صحة نسبة هذا الـكتاب ، ويجعلنا نرجح أن المسيحيـة قد دستهما على المؤلف وعلى العصر الذي وضعا فيه . ومع أن النشاط الأدبي لأصحاب وثنية حرّان المعروفين بالصابئة كان عظيماً وظلّ مستمرّاً حتى أواخر القرن العاشر الميـلادي وبخاصة في النزاع الذي كان قائماً بينهم وبين السريان المسيحيين في التوسط بين الحضـارة القديمة والحضارة الاسلامية ، فان المسيحية قد جنت على هذا التراث الأدبي فحرمت العالم منه . ولو أنه وصل الينا لاستطعنا أن نوازن بينه وبين الـكتاب المنسوب الى بابا لنتبيّن مقدار صحته .



الباب الثاني

الأدب السرياني المسيحي

قبل الاسلام

﴿ انتشار المسيحية ﴾ : تؤكد جميع المصادر التي بين أيدينا أن الأدب المسيحي السرياني قام على ضفتي الدجلة في منطقة حذيَّب (Adiabene) الواقعة بين نهري الزاب الكبير والصغير شرقي الدجلة ، وفي منطقة الرُّها الواقعة في الشمال الغربي لأقليم ما بين النهرين ، وهو الأقليم الذي يحيط بنهير ديصان أحد فروع نهر البالخ . وهما المنطقتان اللتان كانت تسيطر عليهما الدولة الرومانية ، وكانتا بمثابة دول الحدود وأقاليم الهجرات اليهودية ، التي كان للارساليات المسيحية نشاط ملحوظ فيها .

ومع أن السريانية كانت لغة هذه البلاد ، ومع أن أهمية الأدب السرياني لم تظهر إلاَّ منذ دخلت المسيحية في أرضها واتخذت السريانية لغة أدبية ، فإن معرفتنا بتاريخ انتشار المسيحية فيها قاصرة جداً .

أما القَصَص السرياني فيزعم أنَّ المسيحية حينما اتجهت شرقاً ظهرت أولاً في الرُّها أيام المسيح ، وأن أبجر الخامس كتب الى المسيح وآمن به ، ومع ذلك فسنرى أن ملوك المدينة ظلوا على وثنيتهم حتى آخر حكمهم وأن مقرَّ الكنيسة السريانية لم يبدأ في الرُّها وإنما بدأ في حذيَّب حيث وُضعت أقدم التراجم السريانية للعهدين القديم والجديد .

يخبرنا يوسيفوس المؤرخ في الباب العشرين من كتاب « الآثار » أن « مونوباز » ملك حذيَّب كان وثنياً ، وكان يخشى ابنه « يزْد » ، فأقصاه بعيداً عن مملكته عند صديقه « عبد نِرْجَل » الذي كان يملك على الاقليم الواقع حول مصب الدجلة حيث تقع مدينة البصرة الآن ، وهناك زوَّجه « عبد نِرْجَل » من ابنته « سومكا » ، كما اعتنق اليهودية على يد تاجر يهودي اسمه « حنانيا » . وتمضي الأيام ويطلب « مونوباز » عودة ابنه ، فيعود « يزْد » الى مملكة أبيه ، مستصحباً معه « حنانيا » التاجر اليهودي ، فاذا

هو يجد أمه الملكة هيلانة قد اعتنقت اليهودية أيضاً على يد يهودي آخر . ثم يدور الفلك دورة أخرى ويموت « مونوباز » ويخلفه « يزْد » على العرش سنة ٣٦ م . وتصبح اليهودية دين الدولة . وترى « هيلانة » أن الدين الجديد لم يظهر له أي تأثير في الدولة ، فتحج الى بيت المقدس ، وتقيم به ، وتطول إقامتها فيه ، وينتهز الملك « يَزْد » هذه الفرصة فيرسل خمسة من أولاده الى بيت المقدس لتلقي العلم هناك ، ويصبح لهذه العائلة عدد من القصور في بيت المقدس كما يُذكر في كتاب المشنه ، وتبني « هيلانة » مقبرة بديعة في بيت المقدس يطلق عليها اسم مقبرة الملوك ويسميها يوسيفوس المؤرخ (الاهرام) ، دفنت فيها « هيلانة » وابنها « يزْد » ولا تزال آثارها قائمة في بيت المقدس حتى اليوم. ومن هنا نتبين الصلة التي كانت قائمة بين فلسطين ومملكة حذيّب .

***

ويذكر يوسيفوس أيضاً أن « مونوباز الثاني » و « كَنْداي » ملكي حذيَّب قد اشتركا مع اليهود في محاربة الرومان ، وأن « مَبرساف » وهو آخر من نسمع عنه من ملوكهم كان من ألد أعداء الامبراطور تراجان إبان حروبه في الشرق ولكنه هُزم سنة ١١٦ م . واصبحت حذيّب جزءاً من الأقليم الأشوري التابع للامبراطورية الرومانية .

هذه الصلة التي توطدت بين مملكة حذيّب وبين فلسطين كانت سبباً في انتقال المسيحية الى هذا الاقليم في النصف الثاني من القرن الأول . فان « مشيحا زخا » صاحب تاريخ أربل يخبرنا أن « أدّى » كان مرسلاً الى قرى حذيّب الجبلية ليبشر بالمسيحية هناك وأنه كان من بين الذين عمّدهم « أدّى » رجل اسمه « فقيذا » وأنه أرسله الى أربل عاصمة حذيّب فصار أول أسقف للمسيحيين هناك . وكثر في مملكة حذيّب المعتنقون للمسيحية ، وكانت كثرة الأساقفة في اربل من اليهود المتنصرين أو من مسيحيين من أصل يهودي فقد كانت أسماؤهم مستمدة من كتاب العهد القديم مثل شمشون واسحاق وابراهام ونوح وهابيل .

ويحدد صاحب تاريخ أربل بداية بعثة « أدّى » لسنوات الأخيرة من القرن الأول .

ويذكر أن «أدّى» و «ماري» كانا أول مبعوثين الى كرخا (كركوك) وهي مدينة في شمال العراق وعدد من الأماكن الأخرى .

والراجح أن المسيحية قد تخطت بعد ذلك حدود هذا الاقليم ناحية الشرق ، فنحن نعلم من النصوص المانوية المكتشفة حديثاً في مصر أن ماني ذهب الى الهند حوالي سنة ٢٤٠ م . قبل أن يبشر بمذهبه في وطنه ، وليس ثمة شك في أنه ذهب الى هناك في إثر القديس توما رسول الهند، وقد توقع ماني أن يجد في الهند جالية مسيحية ، وصح ما توقعه فعلاً ، فنحن نسمع أنه «كوّن هناك نخبة طيبة» أي انه أنشأ هناك طائفة من أتباعه .

وإذاً فقد دخلت المسيحية حدَيَّب في النصف الثاني من القرن الأول ومنها انتقلت الى الهند فيما بعد ؛ وبذلك يسقط الرأي القائل أن المسيحية قد دخلت الى الرُّها قبل دخولها الى أي اقليم آخر من أقاليم المشرق . ولكننا مع ذلك نحب أن نناقش هذا الرأي .

***

يعتمد الذين يذهبون هذا المذهب على عدد من الوثائق لا تعدو أن تكون كلها من الأساطير . وأقدم هذه الأساطير «قصة أبجر» ، وملخص هذه القصة ، أن أبجر الخامس ملك الرُّها الملقب بالأسود (المتوفى حوالي سنة ٥٠ م) لما سمع بخبر العجائب التي يفعلها المسيح ، أرسل اليه رسالة يرجوه فيها أن يشخص اليه ليبرئه من علته ، ويعرض عليه في تلك الرسالة أن يقيم معه في مملكته بعيداً عن اليهود الذين يريدون به السوء . وتقول الأسطورة أنه أرسل مع الرسول رساماً لينقل اليه صورة المسيح اذا اعتذر عن القدوم اليه . فلما وصلت الرسالة الى المسيح اعتذر عن الذهاب الى الرُّها ، وكتب الى أبجر : «طوبى لمن آمن بي قبلما يراني ، فقد كُتب عني ان الذين يرونني لا يؤمنون بي ، والذين لا يرونني يؤمنون ويخلصون . أما طلبك أن أجيء اليك ، فيجب أن أتمم هنا كل ما أرسلت لأجله ، وبعد انتهاء عملي ، وصعودي الى من أرسلني ، أبعث اليك واحداً من تلاميذي ليبرئك ويمنحك ومن معك الحياة الأبدية» .

تقول الأسطورة إنه بعد قيام المسيح أُرسل أحد تلاميذه الى الرُّها وفاء بالوعد الذي

قطعه المسيح على نفسه في هذه الرسالة . وقد قبل أوسابيوس المؤرخ هذه القصة في تاريخه الذي وضعه في بداية القرن الرابع على انها مأخوذة من أصل سرياني محفوظ في دار المحفوظات الرُّهاوية . وتذكر هذه الأسطورة أن الرسول هو « تَدّاي » أحد الاثنى عشر ، ويستعاض عنه في اسطورة أخرى هي « قصة أدّى » بأدّى نفسه ، ويقال إن الذي أرسله هو توما رسول الشرق ، الذي نقلت رفاته بعد وفاته الى الرُّها ودفنت هناك في تابوت من الفضة سنة ٢٣٢ م . وقد اشتملت قصة أدّى على عدد كبير من الأسماء ، كما أظهر المؤلف أنه مولع باخراج صورة لأحوال البلاط الملكي في الرُّها في ذلك الحين . ولكن البحث أظهر أن أكثر أصحاب الأسماء المذكورة في هذه القصة لم يعملوا في بلاط أبجر ملك الرُّها ، وإنما عملوا — فيما تنطق به الوثائق التاريخية — في بلاط ملوك البرتيين في ذلك الحين ، وهم ارتبان الثالث (١٢ — ٣٨ م) وجوتارس الثاني (٣٨ — ٥٠ م) . وفاردان (٣٩ — ٤٧ م) وبذلك تكون القصة قد أُلِّفت في الأصل في بلاد يحكمها ملوك البرتيين وهذه البلاد هي حذَيَب .

***

والظاهر أن تلك المنطقة لما أصبحت إقليماً مسيحيًّا الى حدٍّ كبير ، حوّل الناس الحقائق التاريخية التي كانت معروفة عن اعتناق الملك « يَزْد » لليهودية والتي ذكرناها من قبل الى قصة مسيحية . ولا يزال عندنا بقايا من قصة حذَيَب المسيحية هذه ، وفيها يستبدل اسم الملك « يَزْد » باسم « نرسي » ، وهو يُسمّى في رسالة أدّى الرُّهاوية « نرسي ملك الأشوريين » .

أما في الرُّها فقد استبدل الملك يَزْد (أو نرسي) بمعاصره الملك « أبجر الخامس او كاما » ملك الرُّها . واستبدل اسم « حنان » التاجر اليهودي الذي لعب دوراً هامًّا في اعتناق « يَزْد » لليهودية بحنان (طبولارا) أمين المحفوظات الملكية الذي كان أبجر قد أرسله الى فلسطين والذي لعب دوراً هامًّا في تحوّل الملك أبجر الى النصرانية فيما تقول القصة . أما « هيلانة » أم يَزْد فقد جُعلت زوجة أبجر في النص الأرمني للقصة .

وتذكر القصة في ناحية أخرى أن « أدّى » كان معلم « فالوط » الذي كان أسقفاً على

الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني . وإذاً فإن « أدّى » رسول حدّيب والأراضي المجاورة للدجلة — الذي حدّد صاحب تاريخ أربل بعثته بأواخر القرن الأول — كان عليه أن يتقدم على تاريخه أكثر من ستين سنة لكي يُجعل منه تلميذاً للمسيح في عهد الملك أبجر الخامس . كما كان عليه أيضاً أن يتأخر عن تاريخه بنحو من ستين عاماً لكي يصبح معلم الأسقف فالوط . وبذلك يكون « أدّى » قد اتصل بالرُّها مرتين : واحدة في الربع الثاني من القرن الأول والثانية في النصف الأخير من القرن الثاني . والعجيب بعد ذلك أن اسمه لم يرد في تاريخ الرُّها ، ولم يُعرف شيء عن نشاطه في الرُّها على الاطلاق .

وهناك من يقول إن المسيحية دخلت الرُّها في الربع الثالث من القرن الثاني ويربط اصحاب هذا الرأي بين « أدّى » وبين دخول الانجيل المختلط (الدياطَسَّرون) الى الرُّها ، و « أدّى » عند أصحاب هذا الرأي معاصر لطاطيان مؤلف (الدياطَسَّرون) ، بل إنهم يُغالون فيقولون إن الرجل الذي كان يسمى « طاطيان » في الغرب ، ربما كان هو بعينه الذي سُمّي « أدّى » في الشرق . والغريب أيضاً أن تاريخ الرُّها لم يذكر اسم واحد من الرجلين ، ومعنى هذا أن الرُّها لم تعرفهما .

وإذاً فلا يمكن اعتبار قصة أبجر ، أو قصة أدّى وثيقة تاريخية لدخول المسيحية في الرُّها فالقصتان وإن اشتملتا على بعض الحقائق التاريخية ، فإن هذه الحقائق قد وقعت في زمن متأخر عن العصر الذي يراد نسبة القصتين اليه ، ولكنهما حملتا على الرُّها لتصوير نظرة متأخرة لما كان يطمع الرُّهاويون أن تكون عليه نشأة المسيحية في مدينتهم .

***

وتريد الأساطير أيضاً أن تجعل المسيحية الديانة الرسمية في الرُّها باعتناق الملك أبجر التاسع (١٧٩ — ٢١٤ م) لهذا الدين . ويقولون في ذلك إنه كانت لابن ديصان معه اتصالات حملته على اعتناق المسيحية . ومع ذلك فإن أبجر التاسع قد ذكر عدة مرات في القصة المشهورة عن الفيضان الكبير الذي أصاب الرُّها سنة ٢٠١ م . كما يذكر عنه تفصيلات أخرى في تاريخ الرُّها في حوادث سنتي ٢٠٥ و ٢٠٦ م . ولكن لم يرد في ذلك التاريخ أية إشارة ولو ضمنية لاعتناق هذا الملك للمسيحية .

ونستطيع بعد ذلك أن نقرر ما لدينا من الحقائق عن هذا الموضوع على النحو التالي :

١ — تروي المصادر أن ابن ديصان (الذي وُلد في الرُّها سنة ١٥٤ م . والذي سنتحدث عنه فيما بعد) قد اعتنق المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني ، ومعنى هذا أنه كانت في الرُّها طائفة مسيحية في ذلك الحين .

٢ — ترجع أقدم إشارة الى بناء كنيسة في الرُّها الى ما جاء في تاريخ الرُّها من أن الفيضان الكبير الذي أصاب المدينة سنة ٢٠١ م قد خرَّب هيكل كنيسة المسيحيين .

وتكون المسيحية إذاً قد دخلت الرُّها حوالي منتصف القرن الثاني أي بعد دخولها في حدْيَب بنحو قرن من الزمان .



﴿ ترجمة الكتاب المقدس ﴾

الترجمة البسيطة

﴿ ترجمة العهد القديم ﴾ : ليست لدينا معلومات وثيقة عن الترجمة السريانيـة للعهد القديم ، ولا عن أصلها ، بل إن تيودور المفزوستي نفسه (المتوفى سنة ٤٢٨ م .) لم يكن يعرف مَن ترجمها ولا أين تُرجمت . ولـكننا نستطيـع أن نتبين معالم هذا الموضوع من ثنايا ما ورد في كتب التاريخ ، فقد رأينا كيف دخلت الديانة اليهودية الى مملـكة حذيَّب وأنها كانت ذات أثر كبير فيها بعد اعتناق ملوكها لهذا الدين . هذا الأثر يكفي لـكي نفترض أن هؤلاء اليهود وبخاصة أعضاء الأسرة المالـكة وأشراف الدولة كانوا في حاجة الى نسخة من الـكتاب المقدس في لغة يستطيعون فهمها ، وكانت اللغة المستعملة في حذيَّب هي السريانيـة . والأمر الذي لا شك فيه أن يهود بيت المقدس كانت عندهم ترجمة باللهجة الآرامية لأسفار موسى الخمسة على الأقل ، والراجح أيضاً أن نسخة من هـذه الترجمة قد وجدت طريقها الى حذيَّب أيام هؤلاء الملوك اليهود ، وأنها تُرجمت الى لهجة حذيَّب وكتبت بالأبجدية السريانية . فالمعروف أنه كان في حذيَّب جماعة من اليهود الذين هاجروا اليها من فلسطين واستقرّوا فيها سنوات ، وكانوا من غير شك قادرين على القيام بمهمة الترجمة في غير مشقة .

ومهما يكن من أمر هذه الترجمة، فقد وصلَنا — الى جانب النص الذي تمثله أغلب المخطوطات التي يرجع تاريخ كتابة بعضها الى القرن السادس — نصٌّ آخر يشتمل على سفري التكوين والخروج في مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٤ م . وهو أقدم مخطوط مؤرخ للـكتاب المقدس عرف حتى اليوم ، وهو يتفق مع النص العبري بوجه عام . والراجح أن « فرهاذ » و « أفريم » وهما من كتَّاب القرن الرابع قد استخدما فيما كتباه عن الـكتاب المقدس نصًّا مقاربا لهذا النص .

هذه الترجمة اليهودية لبعض أسفار العهد القديم هي التي أخذتها الـكنيسة المسيحية . فأتمها وهذَّبت أسلوبها ، واتخذت من هـذا النص المُوسَّع نموذجاً مثاليًّا نُقلت عنه

أكثر مخطوطات العهد القديم وهي المعروفة بالترجمة البسيطة (پشيطتا) .

﴿ ترجمة العهد الجديد ﴾ : رأينا أن المبشرين المسيحيين قد استقرُّوا في بلاد أشور قبيل نهاية القرن الأول ، وأن المسيحية قد انتشرت في حذيَّب ومنها الى جانبي نهر الدجلة حتى نيَّفت الأبرشيات التي كانت هناك على العشرين في وقت قصير . فأي نصوص العهد الجديد كانت تستعملها هذه الجاليات المسيحية ؟

هناك نظريتان : أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أن طاطيان لما عاد من روما رأى أن المسيحيين محتاجون الى نص سرياني للكتاب المقدس فوضع كتابه الدياطَسَّرون أي مضمون الأناجيل الأربعة . ولكن هذا الكتاب لم يعجب رجال الكنيسة فيما بعد ، فترجموا الأناجيل من اليونانية الى السريانية ترجمة كاملة .

وأما أصحاب الرأي الثاني فيرون أن المسيحيين في حذيَّب كانت لديهم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل الى جانب الترجمة السريانية التي كانت عندهم للعهد القديم والتي ورثوها عن العصر اليهودي الذي أظلَّ بلادهم حيناً . ويرى أصحاب هذا الرأي أن طاطيان نفسه قد استخدم هذه الترجمة السريانية القديمة للأناجيل في تصنيف كتابه « الدياطَسَّرون »

أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أن كنيسة روما لم تكن تنظر الى الدياطَسَّرون بعين الرضا لأنه من عمل مهرطق ، ولهذا فإنه من المحتمل أن يكون ذلك قد شجع الأسقف « فالوط » على وضع ترجمة سريانية كاملة للأناجيل عن النص اليوناني كما كان يُقرأ في أنطاكية سنة ٢٠٠ م . مستعيناً بالدياطَسَّرون الذي تعوَّد عليه السريان . ومن هنا دخلت بعض القراءات الغريبة في الترجمة ، وأن هذه الترجمة لا يمكن أن ترجع الى ما قبل النصف الأول من القرن الثالث . ولكن على الرغم من مجهود هذا الأسقف فان الترجمة الجديدة لم يكن لها أي تأثير لأن الدياطَسَّرون بقي كما هو إنجيل الكنيسة السريانية في القرون التالية .

وأما أصحاب النظرية الثانية فيرون أن جميع الأناجيل تشتمل حقيقةً على قراءات من القراءات الغريبة ، وبخاصة في أجزاء من الأناجيل وأعمال الرسل مكتوبة على ورق البردي ، كشف عنها منذ عهد قريب في مصر ، ويُرجع الباحثون تاريخها الى النصف الأول من القرن الثالث . ولكن اتضح لهم أن هذه القراءات التي سُميت خطأً « قراءات غريبة »

لا تمتّ بصلة الى النص اللاتيني في كنيسة روما ولا الى النص السرياني . وافترضوا أنه كانت هناك نصوص قديمة مشابهة للنص البردي ـ الذي يشتمل على الكثير مما يسمى بالقراءات الغربية ـ في الشرق بوجهٍ عام لا في مصر وحدها ، ولم يبقَ إلاّ النص المصري حيث ساعدت الظروف على المحافظة عليه . وأثبتوا أن هذه القراءات كلها راجعة لاختلافات في قراءة نص آرامي أساسي أو في ترجمته ، ولا يمكن أن يكون أساسها الدياطسّرون ولكنه النص اليوناني الذي كان أساس الترجمة السريانية. ويرى أصحاب هذا الرأي أن الترجمة السريانية للعهد الجديد التي اشتملت عليها ممحوّة[1] مشهورة في دير طورسينا (سنتحدّث عنها فيما بعد) تمثل نصّاً يونانيّاً هو الأثر الوحيد الباقي له لأنه يحتفظ بقراءات أولية لا يمكن أن تتفق والعقيدة المسيحية الناشئة ، وقد أُصلح النصّ بعد ذلك ليساير العقيدة المسيحية . وانتهى أصحاب هذا الرأي الى أن أقدم التراجم السريانية يجب أن يؤرخ بمطلع القرن الثاني . لأنه ليس من المعقول مطلقاً أن كنيسة انطاكية كانت تستعمل سنة ٢٠٠ م . نصّاً يونانيّاً فيه مثل هذه القراءات ، وأن النص السينائي هو ترجمة عدد من الأيدي المختلفة لأن كلمة يونانية بعينها مثلاً تترجم الى السريانية في الأناجيل المختلفة بكلمات سريانية مختلفة .

ونستطيع إذاً أن نقول إن أقدم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل قد وضعت قبل تأليف الدياطسّرون، ولكن لم تصل الينا ترجمة مؤرخة ترجع الى ذلك العهد ، وأقدم ما وصل الينا من نصوص الترجمة السريانية للأناجيل مخطوطتان : إحداها المخطوطة الكيوريتانية (نسبة الى وليم كيوريتون المستشرق الانجليزي) ويُرجّح أنها كُتبت في القرن الخامس. والثانية ممحُوّة دير طورسينا التي أشرنا اليه، وتشتمل الكتابة الظاهرة فيها على قصص للقدّيسين كتبها الراهب يوحنا في دير « مَعَرَّة مصرين » بين انطاكيا وحلب ، وفرغ من كتابتها سنة ١٠٩٠ يونانيـة (أي ٧٧٨ م .) وربما كانت الكتابة الممحوّة قد كتبت حوالي القرن الرابع .

وتختلف كل من هاتين المخطوطتين عن الأخرى الى حدّ يُظَنّ معه أنهما ترجمتان

---

(١) تسمية نقترحها لكلمة Palimpsest وهي كتابة دونت على الجلد أو الرق ثم محيت وكتب مكانها كتابة أخرى ، ولكن الكتابة المحوة غير ممحوة تماماً ولهذا تمكن العلماء حديثاً من إظهارها وقراءتها بطريقة خاصة

مختلفتان ، والواقع أن أصلهما ترجمة قديمة للعهد الجديد وكان هذا الأصل القديم معرّضاً للتغيير والتصحيح على أيدي النسّاخ الذين كانوا يبذلون جهدهم في تصحيح نصّه ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وربما كانوا قد أصلحوا الترجمة على نصوص يونانية كانت تحت أيديهم . وكل ما في المخطوطتين يدل على أن المترجم كان يستعمل اللغة السريانية في سهولة تدلّ على مرانٍ أدبي طويل ، ومع ذلك فإن المخطوطة السينائية تشتمل على آثار من نطق الآرامية الفلسطينية وإملائها ، مما يدل على أن مترجمي أناجيل هذه النسخة كانوا من يهود فلسطين مولداً وتعليماً ، ولكنهم اعتنقوا المسيحية ، وأقاموا في أرض سريانية حتى خضعت لهم اللغة السريانية ، ولكن ألسنتهم مع ذلك لم تخلُ من لُكنة آرامية فلسطينية تكفي لإظهار نفسها بطريقةٍ ما في كتاباتهم . والراجح أن النص الكيوريتاني إنما هو مراجعة للنص السينائي مع إصلاح الأسلوب السرياني وإزالة ما فيه من العنصر الفلسطيني .

هذا الوصف للإقليم الذي تمّت فيه الترجمة ، والأفراد الذين قاموا بها ينطبق على الحالة التي كانت في حذَيَّب في ذلك الحين كما رأينا ، يؤكد ذلك أن الجالية المسيحية في حذيَّب كان عندها ترجمة سريانية للعهد القديم ورثتها عن العصر اليهودي الذي مَرَّ بها . وترجمة العهد القديم هذه ضرورية للأداء الصحيح لأسماء الأعلام العبرية في العهد الجديد ، وهذا الأداء لا يمكن استيفاؤه من النص اليوناني وحده ، ولكنه شيءٌ يسيرٌ على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وأقاموا فترة في حذيَّب .

ولذلك فالراجح أن تكون هذه الترجمة القديمة للعهد الجديد قد تمت في حذَيَّب بعَيْد بعثة «أدّى» الى هناك .

﴿ الدياطَسَّرون ﴾ الدياطَسَّرون هو الاسم اليوناني لكتاب مضمون الأناجيل الأربعة الذي وضعه طاطيان بالسريانية ، ومعناه «على الأربعة» ، وكان السريان يسمونه أيضاً «الانجيل المختلط» تمييزاً له عن الأناجيل المتفرقة ، وسُمي في الترجمة العربية « الرباعي » . وقد جمع طاطيان فيه سيرة المسيح وأعماله من الأناجيل المتفرقة فأخذ من المكرَّر في الأناجيل صورة واحدة ، وقيَّد فيه ما انفرد به كل انجيل من الأناجيل الأربعة مراعياً النصَّ الأصلي ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

أما مؤلفه طاطيان فهو أشوري كما كان يطلق على نفسه، أي إنه جاء من بلاد أشور وهي البلاد الواقعة بين الدجلة وبين ميديا من الجبال الأرمنية حتى المدائن وقد عرفنا مما سبق أن حذيَّب الواقعة شرقي الدجلة قد أصبحت جزءاً من الإقليم الروماني لبلاد أشور بعد حرب تراجان سنة ١١٦ م . ولهذا فنحن نرجح أنه وُلد في حذيَّب سنة ١١٠ م . ولكننا لا نعرف ذلك على التحقيق .

وُلد طاطيان في أحضان أسرة نبيلة غنية تدين بالوثنية ، وكانت لغة أُمه السريانية وهي اللغة التي كان يتكلمها أهل أشور في ذلك الحين ، وتلقى دراسة عالية في الآداب والفلسفة ، وأُغرم منذ صباه بالمسائل الدينية ، وكان رجلاً موهوباً ، فأراد التبحر في العلم ، ورحل في سبيل ذلك الى بلاد الغرب ، ودرس حضارة اليونان وفلسفتهم ولكنه لم يُعجَب باليونان وكان يتبرأ منهم ويسمي نفسه « بربريًّا » (أي غير يوناني) ويبدو من كتابه Graecos جريكوس الذي ألَّفه باليونانية ، أنه فخور بأنه غير يوناني .

أقام طاطيان مدة في بلاد اليونان ، ثم انتقل منها إلى روما ، وكان يتردَّد على المراكز الثقافية الكبيرة فيها ، واتصل بجوستين ودرس عليه ، والراجح أنه اعتنق المسيحية بتأثير جوستين وتسمى باسم طاطيان . ولما مات جوستين خلفه طاطيان في تعاليمه وتخرَّج على يديه عدد من التلاميذ منهم رودون من آسيا الصغرى ، وكليمانس الأسكندري ، ونرسيس المقدسي . ولكنه — فيما تقول بعض الروايات — أعلن بعض الآراء الخارجة على تعاليم الكنيسة ، فأثار اضطراباً في روما ، اضطرَّ من أجله — فيما يقول ابيفانيوس — الى الرحيل الى الشرق حوالي سنة ١٧٢ م . وليس لدينا شيء يقيني عن حياته بعد ذلك . ولكن الراجح أنه عاد الى وطنه في بلاد أشور واستقرَّ هناك . أما إنه جاء الى الرُّها فهذا مجرَّد حدْسٍ من الباحثين المحدَثين لأنهم يعتقدون أن الرُّها هي المركز الأدبي للسريانية، ولكن المحقق أن اسمه لم يرد مطلقاً في تاريخ الرُّها كما ذكرنا ، ولم نسمع قط أنه اتصل برجل مثل ابن ديصان ، وأنه بدأ عقب عودته الى الشرق في وضع كتابه « مضمون الأناجيل الأربعة » عن الترجمة السريانية القديمة للأناجيل الأربعة كما أثبتنا ذلك .

أما الاختلافات الموجودة بين الدياطسَّرون والترجمة السريانية القديمة للأناجيل

الأربعة فلا يمكن تفسيرها بأن طاطيان ربما كان قد اعتمد على مخطوطات يونانية الى جانب الأناجيل السريانية التي كانت تحت يديه ، وإنما تدل على أن النص السرياني الذي استخدمه طاطيان يختلف من بعض النواحي عن نص المخطوط السينائي .

ولا يمكن تعليل عدم وجود أي أثر للدياطسّرون في الغرب إلاّ بأنه وُضع على أساس ترجمة سريانية قديمة للأناجيل ، إذ من المدهش حقّاً أن عالماً مثل أوريجانس (المتوفى سنة ٢٥٤ م .) كمّمه نقد النصوص ، لا يذكره مرة واحدة ، بل ولا يُحتمل أنه عرف عنوانه ، مع أننا على يقين أنه مطلع على كتابات طاطيان ، وكذلك نعرف أن كليمانس الاسكندري (المتوفى حوالي سنة ٢٢٥ م .) كان تلميذاً لطاطيان في روما ويعرف عدداً من الكتب التي ألفها أستاذه وهو ينتقد عقيدته كثيراً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن الدياطسّرون ، بل إن إرنيوس Irenaeus (المتوفى حوالي سنة ٢٠٢ م .) وهو أول مؤلف يصف طاطيان بأنه مهرطق لم يذكر شيئاً عن الدياطسّرون .

ومع أن أوسابيوس (المتوفى حوالي سنة ٣٤٠ م .) كان أول من أشار الى الدياطسّرون في الجزء الرابع من كتابه تاريخ الكنيسة إلاّ أننا نستطيع أن نستنتج من الاختلاف بين النص اليوناني والترجمة السريانية لهذا التاريخ أن أوسابيوس لم يرَ من الدياطسّرون شيئاً . ففي النص اليوناني : « وقد أحضر طاطيان أولُ رئيس للهراطقة مزيجاً ومجموعاً للأناجيل وسمّاه الدياطسّرون ، ويقال إنه لا يزال في أيدي بعض الناس» وأما الترجمة السريانية فقد جاء فيها « هذا الطاطيان أول رئيس للهراطقة جمع ومزج وعمل إنجيلاً سمّاه دياطسّرون ، أي المختلط وهو الذي لا يزال في أيدي كثير من الناس إلى اليوم » .

وكذلك ايبفانيوس (المتوفى سنة ٤٠٣ م .) فقد ذكر أنه « يقال إن طاطيان هو الذي ألّف الإنجيل الذي يسميه بعض الناس الدياطسّرون » ويورد «چيروم» (المتوفى سنة ٤٢٠ م .) قائمة طويلة للكتب التي ألّفها طاطيان ولكنه لا يذكر الدياطسّرون .

وقبل ست عشرة سنة مضت لم يكن يعرف عن الدياطسّرون باليونانية شيء حتى كُشف في دورا أوروپوس Dura-Europos على نهر الفرات ، عن ورقة من الرق تشتمل على أربعة

عشر سطراً من الانجيل المختلط باللغة اليونانية يُرجع الباحثون تاريخها الى القرن الثالث لأن الكنيسة التي اكتشفت بجوارها ترجع الى سنة ٢٢٢ م . وهذه القطعة تُظهر بوضوح أن إنجيلاً مختلطاً باليونانية كان مستعملاً في عصر مسيحي مبكر . وتشتمل هذه القطعة على بعض قراءات لا توجد في أي مخطوطة أخرى للأناجيل عرفت حتى الآن . ومع ذلك فانه لا يمكن أن يقوم أيُّ شك في أن هذا النص اليوناني مترجم عن أصل سرياني . والدليل على ذلك أن المترجم قرأ اسم المكان الذي جاء منه يوسف في إنجيل متى (٢٧ : ٥٧) وهو الرامة (ا ر ن م ت ي ا) خطأ وصوابه (ا ر ي م ت ي ا) وهذا لا يمكن إلاَّ اذا كان يترجم عن أصل سرياني لأن الياء والنون متقاربتان في الخط السرياني بحيث يسهل الخلط بينهما . وفي بلدة دورا هذه كانت تلتقي الثقافتان السريانية واليونانية . وكان المسيحيون فيها يقرأون الدياطَسَّرون السرياني في كنائسهم وتُرجم النص الى اليونانية من غير شك من أجل المسيحيين الذين كانوا يتكلمون اليونانية هناك .

وقد لقي الدياطَسَّرون نجاحاً عظيماً . فقد تغلب عند السريان على الترجمة السريانية القديمة للأناجيل ، وأصبح هو الانجيل المستعمل في الكنيسة في الطقوس ، وبقي مستعملاً رغم قيام تراجم سريانية كاملة أخرى للأناجيل . وتدل الوثائق المانوية القبطية التي اكتشفت حديثاً في مصر على أن الانجيل الذي اقتبس منه ماني وتلاميذه هو الدياطَسَّرون وكانت اللغة التي يستعملها ماني هي السريانية .

ومع أن رَبولا أسقف الرُّها فيما بين سنتي ٤١٢و٤٣٥م . قد قام بترجمة الأناجيل ترجمة بسيطة جديدة من اليونانية . ثم أصدر أمره الى القسس والشمامسة بوجوب وجود كتاب يشتمل على الأناجيل المتفرقة في كل كنيسة وأن تكون القراءة في الصلاة من هذا الانجيل وحده ، ومع أنه نجح في الحد من استعمال الدياطسرون في الرُّها ، وحذا حذوه بعض الأساقفة فأعدم أسقفٌ آخر نحواً من مائتي نسخة منه في أبرشيته ، فقد بقي الدياطسرون عدة قرون دون أن تستطيع التراجم السريانية الكاملة للأناجيل التي عملت بعد ذلك أن تحلَّ محله ، وربما كان قيام رجل حجة مثل افريم بوضع شرح له هو الذي ساعد على حفظه . وهذا الشرح موجود حتى اليوم في ترجمة أرمنية .

وقد بقي الدياطسّرون السرياني مستعملاً حتى القرن التاسع ولكنه ضاع بعد ذلك ولم يبق لنا منه الاّ ترجمة عربية وضعت فيما يظهر في القرن الحادي عشر وتنصب الى أبي الفرج عبد الله بن الطيب المتوفى سنة ١٠٤٨ م . ويقال إن هذه الترجمة قد نقلت عن نسخة سريانية عملت في القرن التاسع ، وقد ظلّ كثير من كتّاب السريان يشيرون الى الدياطسرون حتى القرن الرابع عشر نذكر منهم :

يشوع دَذ المروزي النسطوري أسقف حديثة (منتصف القرن التاسع) وموسى بر كيفا الأسقف اليعقوبي (المتوفى ٩٠٣ م .) . ويشوع بَرعلي (المتوفى ٨٧٣ م.) وبربهلول (منتصف القرن العاشر) في قاموسيهما ؛ وابن الصليبي أسقف آمد اليعقوبي (المتوفى ١١٧١م) وابن العبري (المتوفى ١٢٨٦م .) وأوْدِيشوع مطران نصيبين (المتوفى ١٣١٨ م .) .

ونكتفي هنا بإيراد ما ذكره ابن الصليبي في مقدمة شرحه لإنجيل مرقس عن الدياطسرون

« وقد اختار طاطيان تلميذ جوستين الشهيد الفيلسوف من الأناجيل الأربعة وجمع وكوّن إنجيلاً سماه الدياطسرون أي المختلط ، وهذا هو نفس الكتاب الذي شرحه مار أفريم » .

والأمثلة القليلة التي نوردها تصوّر لنا كيفية تصنيف هذا الكتاب : فمن الاصحاح الخامس من الدياطسرون : ولما تمم المغتاب جميع تجاربه انفصل منه الى وقت (لوقا ٤ : ١٣) ، وإذا الملائكة قد دنت وكانت تخدمه : (متى ٤ : ١١) ، وفي اليوم الآخر كان يوحنا قائماً ونفسان من تلاميذه وبصر بإيسوع وهو يمشي فقال : ها حمل الله : (يوحنا ١ : ٣٥—٣٦) .

ومن الاصحاح السابع من الدياطسّرون : وسبحوا الله الذي منح مثل هذا السلطان للناس : (متى ٩ : ٨) ، وقالوا لقد أبصرنا يومنا العجائب : (لوقا ٥ : ٢٦) ، التي ما أبصرنا مثلها منذ قط : (مرقس ٢ : ١٢)

ومن الاصحاح الحادي عشر من الدياطسرون : وقال لهم في ذلك اليوم عند العشية : (مرقس ٤ : ٣٥) ، لنعبر الى عبر البحيرة : (لوقا ٨ : ٢٢) ، وترك الجموع : (مرقس ٤ : ٣٦) وصعد إيسوع وجلس في السفينة هو وتلاميذه : (لوقا ٨ : ٢٢) ، وكانت معهم سفن أخر : (مرقس ٤ : ٣٦) ، وحدث في البحر حركة عظيمة : (متى ٨ : ٢٤) ، من زوبعة وريح : (مرقس ٤ : ٣٧) ، وكادت السفينة أن تغرق : (لوقا ٨ : ٢٣) .

كُتَّاب السريان
في القرن الثاني

كانت ترجمة الكتاب المقدَّس الى السريانيـة هي أول عمل أدبي بقي لنا من آثار المسيحية السريانيـة ، وكان من الطبيعي أن يقوم الى جانب هذا العمل نشاط أدبي آخر ، كان بعضـه مسايراً لتعاليم الكنيسة فكتب له البقاء ، وكان البعض الآخر من نوع لا ينسجم مع تلك التعاليم ولذلك حالت الكنيسة بينه وبين البقاء ، فلم يصل إلينا منه شيء .

﴿ مليطون السرديسي ﴾

ومن كُتَّاب القرن الثاني مليطون ويُلقَّب في الرسالة التي بقيت لنا من كتاباته بالفيلسوف ، وكان من أبرع الكتَّاب القدماء الذين ينتمون الى كنيسة آسيا الصغرى . وليست لدينا معلومات تاريخية عن حياته إلاَّ ما جاء عرَضاً في رسالة پوليكراط الأفيزوسي الى البابا ڤيكتور (١٨٩ — ١٩٩ م .) من أن مليطون قد توفى .

ومن كتاباته رسالة في الدفاع عن الدين الصحيح ضد تعدُّد الآلهـة وعبادة الأصنام والآراء غير الصحيحة المنسوبة الى المجوس ، وقد نشرها المستشرق الانجليزي كيوريتون في كتابه Spicilegium Syriacum واقتطف أوسابيوس في تاريخه قطعة من رسالة بعث بها مليطون الى مارك انطونينوس في الدفاع عن المسيحيين المضطهدين ، وكان المظنون أولاً أن هذه الرسالة هي نفس الرسالة الأولى التي بقيت لنا من كتابات مليطون ، ولكن هذه الرسالة لا تشتمل على القطعة التي اقتطفها أوسابيوس . وربما كان هذا راجعاً الى أن الرسالة ناقصة في بعض نواحيها ، أو أن أوسابيوس نقل عن رسالة أخرى غير الرسالة الأولى ولم يرَ غيرها ، وهو يخبرنا صراحةً أنه لم يورد تفصيلاً لكتابات كلٍ من مليطون وأبولليناريس ولكنه يذكر عنهما كل ما أحاط به علماً فقط . وعلى ذلك فالراجح أن مليطون قد كتب رسالتين نشرت إحداها كاملة ، واقتبس أوسابيوس مقتطفات من الثانية .

﴿ ابن ديصان ﴾

رأينا أن الرُّها لم تلعب أي دور رئيسي في تاريخ الأدب السرياني حتى أواخر القرن الثاني ، وأن حذيَّب هي التي قامت بالعبء كله في هذه الفترة ، فلما ظهر ابن ديصان بدأت

الرُّها تأخذ مكانها في الأدب السرياني وتضاءل شأن حذيَّب شيئاً فشيئاً ، فقد كان ابن ديصان ذا أهمية كبيرة للرُّها وأصبحت بفضله مركز المسيحية الشرقية ، فقد كان الكاتب السرياني الفذ والشاعر الموهوب الذي تغنى السريان بشعره .

أما أبوه فهو نوحاما ، وأما أمه فهي نحسيرام ، تركا إربل عاصمة حذيَّب حوالي سنة ١٤٤ م ، فوصلا الرُّها في عهد الملك معن الثامن (١٣٩ — ١٦٣ م .) وفي الرُّها وبالقرب من نهير ديصان الذي يروي هذه المدينة رزقا ولداً سنة ١٥٤ م . فسمياه « ابن ديصان » نسبةً الى النهر . وتعلَّم في البلاط الملكي مع أبجر ابن الملك معن تعليماً راقياً باللغتين السريانية واليونانية،وقضيا معاً عهد الصِّبا . وبقي ابن ديصان بالرُّها حتى سنة ١٦٣ م . حين خُلع الملك معن الثامن وارتقى العرش مكانه الملك وائل،فخرج مع أبويه من الرُّها — وكانا على دين الوثنية — الى منبج ، وكانت الى ذلك الحين مركزاً لعبادة الكواكب ، وأقاموا هناك عند رجل اسمه كودوز ، وتتلمذ ابن ديصان على الكاهن الأكبر لمعبد منبج ، ومنه تعلَّم العلوم الوثنية المتصلة بعبادة الكواكب والنجوم،ويقال إنه علمه نظم الشعر الذي ينشد في الطقوس الوثنية . والظاهر أن أبويه ماتا في منبج فتبنَّاه كودوز ، وشجعه على دراسة الفلك والتنجيم ، فنبغ فيهما في وقت قصير، ويقال أيضاً إنه كان — الى جانب نبوغه العلمي — من أمهر الرُّماة .

ولما تولى أبجر التاسع رفيقه في الصِّبا عرش الرُّها سنة ١٧٩ م . عاد الى الرُّها ، وفيها لقي بعض من اعتنقوا المسيحية ، فشرحوا له أسرار الدين الجديد ، ويقال إنه اعتنق المسيحية على أيدي « هسبس » الذي كان أسقف الرُّها في ذلك الحين ، ولكنه لم ير في اعتناقه للدين الجديد سبباً يصرفه عن العناية بدراسة الفلك والعلوم الدنيوية ، وأراد أن يطبق على المسيحية كل ما استفاده من علم ومعرفة ، ولكن رجال الكنيسة السريانية شوَّهوا جمال العمل الذي قام به هذا الرجل بعد وفاته .

وفي الرُّها أصبح ابن ديصان علمها الخفَّاق : فقد استعاد مكانه في البلاط الملكي ، وكان رئيساً لمدرسة الرُّها ، ويذكر بعض اليونانيين أنهم زاروا هذه المدرسة ورأوا هذا الشاب الذي كان يمثل الثقافة المسيحية خير تمثيل .

وترك ابن ديصان ثلاثة أولاد اشتهر منهم هرمونيوس لأنه كان يقرض الشعر كأبيه . والآخران أبجر وحسادو . ويقال إنه رحل في أواخر أيامه الى جبال أرمينية واستقر بها حتى وافته منيته . ويذكر ابن العبري أنه مات وعمره ٦٨ سنة أي إنه مات سنة ٢٢٢ م .

وليس فيما وصل الينا من أقواله ما يجعل إخلاصه لعقيدته المسيحية موضع شك : فنحن نجد في كتاباته أنه يعتقد بالـه واحد ، قوي لأن كل كائن محتاج اليه ، خلق العالم ، وهو عون كل موجود ، خلق العناصر الأساسية أولاً : وهي النار والهواء والماء والنور والظلمة ، وجعل لكل واحد من هؤلاء قسطاً معيناً من الحرية ؛ وهو يشغل حيزاً محدوداً وله طبيعة خاصة به ؛ فالظلمة مضرة وهي تخيّم على الأرض حيث كانت لتختلط بالعناصر الطاهرة التي تدعو الله الى إغاثتها فيشفيها المسيح . وقد ترك الله الشرّ يعمل لأنه حليم ، ولكنه سيكوّن فيما بعد عالماً جديداً لا شرَّ فيه . وأن الله خلق الملائكة وخصّهم بإرادة مطلقة ، وخلق الانسان معادلاً للملائكة في الحرية ، وكوّنه من عقل ونفس وجسد ، وأن الجسد يعتمد على الكواكب في الحياة أو الموت ، وفي السعادة والشقاء ، وفي الصحة والمرض . وأن الانسان حُرّ يستطيع أن يفعل الخير وأن يتجنب الشر ، وهو فانٍ ، وسوف يثاب أو يعاقب تبعاً لأعماله . وسوف يكون هناك حساب في الآخرة وهو يعلن مثلاً أن معظم عقائد فالنتين (والنطينوس) ليست إلاَّ سخافات ، وكان معارضاً عنيداً لمرقيون وغيره من الهراطقة ، وكتب كثيراً في الدفاع عن المسيحيين الذين وقع عليهم اضطهاد في بعض النواحي . هذا الى جانب البراهين المادية : فقد أراد أبولونيوس أحد أصدقاء الامبراطور كَركَلاً أن يُغري ابن ديصان على إنكار مسيحيته ، ولكنه رفض بإباء ، وكان يقول إنه لا يخشى الموت لأنه يتوقع أن يجرع كأسه دائماً . ونحن نقرأ له في كتاب قانون البلدان « كيف نقول عن هذا الشعب الجديد من المسيحيين ، إن المسيح أنتجه في جميع البلاد ، وفي جميع الأماكن بواسطة مجيئه ، فهؤلاء نحن جميعاً مسيحيون على جزء من الأرض ونعرف بالاسم الوحيد للمسيح » .

ولكن رجال الكنيسة لم يقبلوا كتابات ابن ديصان ووصفوها بأنها نوع من الهرطقة وعملوا على صد المسيحيين عنها ، ولكننا لا نعلم من تفصيل هذا الصراع إلاَّ القليل فنحن

نرى أيّ جهد قام به رجل مثل إفريم لكي يَرُدّ عليه وعلى غيره من الهراطقة . ومع ذلك فهو لم يتناول آراء ابن ديصان ليرد عليها رأياً رأياً ، ولكنه كان يكتفي بانتزاع تعبير واحد من سياق كتابات ابن ديصان ، ثم يتناول الكاتب بسيل من الكلمات المقذعة والعبارات الأخلاقية الحساسة ونستطيع أن نرى بوضوح في رد أفريم الى أي حالة وصلت الكنيسة في عصره ، فقد عجزت الكنيسة في ذلك الحين عن أن تحتمل روحاً كروح ابن ديصان ولا نقول أن تسايره وتجتذبه اليها . فقد كان كل ما عند ابن ديصان من الوضوح الذهني وقوة إدراك الحقائق ، كان بالنسبة له سجناً ضيقاً بين جدران لاهوت ضخم ناشىء وبدلاً من أن ينير رجال هذا الدين أمامه سبيل الحقيقة عملوا جاهدين على تشويهها .

ولما كان ابن ديصان قد اثّر على المسيحيين بشعره الذي كانت العامة تحبه وتتغنّى به ، فقد رأى افريم نفسه مضطرًّا الى معارضته بالشعر ، فبذل مجهوداً كبيراً في تأليف أناشيد يقضي بها على أناشيد ابن ديصان الشعبية . كما عمل على إعدام ما تصل إليه يديه من كتبه ، وفي ذلك يروي صاحب « تاريخ النساطرة » أنه حكي في بعض الأخبار أن ابن ديصان قد وضع إنجيلاً مخالفاً واستغوى به من في عقيدته استرخاء ، وفي قلبه زيغ ، فلما توفى ابن ديصان وأراح الله البيعة منه ومن شره ، احتال مار افريم على أخته ، وسألها أن تدفع اليه ذلك الكتاب لينظر فيه ويردّه عليها . فدفعت الكتاب اليه ، فلما أخذه منها دعا بغراء مغلي فلطخه به ورقة ورقة ، وأطبقه وشدّه شدًّا جيداً حتى التصق ودفعه اليها .

ولكن لم يكن إفريم — مع ذلك — هو الذي حَدّ من انتشار هرطقة ابن ديصان ، بل إن الذي نجح في ذلك كان رَبُّولا بعد عصر افريم بنصف قرن على الأقل . في سيرة رَبُّولا — الذي كان أسقف الرُّها في أوائل القرن الخامس — نجد وصفاً يوضح لنا نهاية هذا النزاع : « لقد أينعت تعاليم ابن ديصان الشريرة في الرُّها حتى أعدمها ربولا وهزمها ، لأنه قبل هذا الوقت كان ذلك البرديصان الملعون قد اجتذب اليه جميع الرجال البارزين في المدينة بلباقته وعذوبة أناشيده لكي يحمي نفسه بهم ، كما يحتمى في الجدران القوية ، لأن الأحمق قد أمّل أنه بالخلاء وقيادة الذين اتبعوه الى الضلال ، يستطيع أن يؤسس أخطاءه قوية بما يلقاه من أعوانه من المساعدة الضعيفة . وقد أحزن ذلك رَبُّولا الرجل

الحكيم ، فلم ينصب نفسه لكي يجتث الأعشاب الطفيلية من ذلك الحقل ، وأن يخلف وراءه سنابل القمح الكثيرة فقط — فان ذلك يكون سهلاً — ولكنه بحكمته نصب نفسه ليحوّل هذه الأعشاب الى قمح ، فان ذلك كان ضرورياً . فبدلاً من نفخ بوشع المزعج في البوق هو وأتباعه الذين نفخوا على أسوار أريحا حتى سقطوا ، وبدلاً من إفناء الرجال والاستيلاء على متاعهم للرب ، فان هذا القائد الحكيم من قوّاد المسيح — بقوة ربه وباكتساب المحبة والصوت الرقيق ، استطاع بسكون أن يحطِّم كنيستهم ، وأن يحمل كنوزها وينقلها الى كنيسته ، حتى لقد استطاع أن يستخدم أحجارها أيضاً » .

وحاول رجال الكنيسة كذلك أن يشوّهوا اسمه ، وأن يتركوا ذكراه غامضة ، وأن يزجّوا به في طيّ النسيان ، فزعموا أنه كان يخلط بين المسيحية وبين ما كان الكاهن المنبجي يلقنه ، وانه أبدع بدعة لم يتقدمه أحد فيها ، وأنه قال : إن الأنواع سبعة ، ثلاثة منها عظام شريفة ، وهي العقل والقوة والفكر ، والأربعة الأخرى دون ذلك ، وهي النار والماء والنور والريح . فتألفت هذه السبعة بعضها من بعض وكان منها ستون وثلاثمائة عالم ، وان الانسان مخلوق من هذه الأصول السبعة أيضاً ، نفسه من الثلاثة الشريفة وجسده من الأركان الأربعة الدنيئة . وقال إن دماغ الانسان من الشمس ، وعظامه من زحل ، وعروقه من عطارد ، ودمه من المريخ ، ولحمه من المشتري ، وشعره من الزهرة ، وجلده من القمر . كما زعموا أنه أنكر قيامة الأجساد .

وكان ابن ديصان آخر الغنوسطيين من السريان (أي العارفين بالله) ألّف فرقة عرفت بالديصانية نسبةً اليه ، ويحدّثنا يعقوب الرّهاوي أنه كان لهذه الفرقة أتباع حتى القرن الثامن ، كما يحدثنا ابن النديم أن أتباع هذه الفرقة كانوا بالبطائح بين واسط والبصرة في القرن العاشر ، وكان لها أتباع قبل ذلك في خراسان والصين وتركستان ذكرها ابن النديم في الفهرست ، والمسعودي في التنبيه والاشراف ، والشهرستاني في الملل والنحل . وقد زعموا أن أتباعه كانوا يقولون بإلهين : إله نور ، وإله ظلمة ، وانهم انقسموا الى فرقتين ، كانت إحداها تزعم أن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها ، فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه . وزعمت الثانية أن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحسّ بخشونتها

ونقمها، شابكها بغير اختياره. ولعلّ هذه الآراء — إن صحت نسبتها اليهم — أن تكون قد دخلت اليهم من المانوية.

والأجزاء الباقية من كتابة ابن ديصان تدل على انه قرأ كثيراً، وفكّر كثيراً، وأنه تعلّم ليفكر بنفسه، ولم يقنع في النهاية بأن يكرر عقيدةَ مدرسةٍ ما. لقد كانت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية في عنفوانهما عند ابن ديصان، وكانت أبرز نواحيهما عنده ميلهما التكويني مع التفسير المسيحي للحياة والقوة الخلقية. لقد كان يفكر في مشكلة الحياة، مشكلة إنسانية المسيح، ولكنه كان في حريته الروحية، وقدرته على الابتكار في مركز من يعمل بغير أمل في الرّها إبان بداية الكنيسة الشرقية. أما في كنيسة المتكلمين باليونانية، فقد أخذ جماعةٌ أسعد منه حظاً هذا العمل الذي بدأه حول مسألةِ إنسانية المسيح فأتمّوه.

ويخبرنا ابن النديم في الفهرست أن ابن ديصان له من الكتب: كتاب النور والظلمة، وكتاب روحانية الحق، وكتاب المتحرّك والجماد، وله كتب كثيرة، ولرؤساء المذهب في ذلك كتب لم تقع الينا، ولعلّ هذه الكتب لجماعة من أتباعه.

ويذكر المؤلفون من اليونان والسريان أنه ألّف كتباً كثيرة، أكثرها في نصرة الدين المسيحي بطريقة فلسفية. فقد وضع رسائل في الرد على الهراطقة، من غلاة الفلاسفة والبابليين، والقائلين بتعدّد الآلهة، والثنوية والمرقونية القائلين بالهين. ويذكرون أيضاً انه كتب تاريخاً لأرمينية، وأنه جمع البيانات التي اعتمد عليها في وضعه من معلومات شفوية استقاها من مسافر هندي مرّ بالرها في طريقه الى البلاط الروماني. ويستدل من هذه أنه وضع كتبه بالسريانية. ويستدل من بعض هذه المصادر أيضاً انه ترجمها بعد ذلك الى اليونانية ترجمة متقنة. ولكن يغلب على الظن أن هذه التراجم اليونانية ليست من عمله. ولم يبق لنا من هذه المؤلفات مقتطفات إلاّ قليلة في ثنايا مؤلفات بعض الكتاب، وقصيدة تحت عنوان «أنشودة الروح» أو «ابن الملك». ورسالة صغيرة عن القدَر على شكل محاورة بين ابن ديصان وأحد تلاميذه عنوانها «كتاب قوانين البلدان»

والراجح أن الذي دوّن كتاب قوانين البلدان هو أحد تلاميذ ابن ديصان وهو يبحث

عن علة الشر الطبيعي ، وبخاصة الشر الخلقي في هذا العالم ، ودفاع عن حرية الاختيار أو حرية الارادة المطلقة ، فالانسان قد خلق حراً ، والنجوم التي لها قوة على الأجسام لا تستطيع شيئاً حيال النفس . وقد نبّه ابن ديصان — تطبيقاً للبراهين المستمدة من العقل والتجربة — الى أن الناس الذين ينتمون الى بلدٍ بعينه يخضعون لقوانينه المختلفة ، عادلةً كانت أم جائرة ، دون أن يكون للكواكب مقدرة على تغييرها . وهذا القسم هو الذي استمدّ الكتاب منه عنوانه . وفي هذا الكتاب يشترك ابن ديصان كعادته مع تلاميذه في الحوار . فيسألونه : أليس الله علة الفساد الأخلاقي . لأن عويذا — الذي يقوم بدور المعارض — قال إن الله قد خلق الانسان لكي لا يستطيع أن يخطىء .

وبعد أن قدّم ابن ديصان بحثاً عن طريقة السؤال والإجابة ، وعن نظام العقيدة والإدراك ، قال : إن الله لا يستطيع أن يخلق الانسان في هذه الحالة دون أن يجعله آلة خالصة ، مجردة عن الحرية وعن اللباقة .

واعترض عويذا على أن الأوامر المفروضة على الناس صعبة ، وأن الانسان لا يستطيع تنفيذها ، فيجيب ابن ديصان : إن الأوامر المفروضة علينا كلها أوامر أخلاقية ، مثل : لا تسرق ، لا تكذب . وعلى ذلك فان تنفيذها ممكن لأنها مستقلة عن قوّة الجسم .

فيقرّ عويذا أن الانسان لا يمكنه تجنب الشرّ ، ولكنه يعتقد أن الإنسان لا قدرة له على فعل الخير . فيذكر ابن ديصان أن فعل الخير أسهل من تجنب الشرّ لأن الخير من خواص الإنسان ، إذا استثنينا بضع حماقات ، وأن المرء يكون سعيداً اذا فعل الخير . وأن الانسان لا يستطيع أن يقول أكثر من أن الشرّ يأتي من طبيعتنا ، لأنه إذا جاء من الطبيعة الانسانية بوجهٍ عام فان الناس جميعاً يعملون بطريقةٍ واحدةٍ ما داموا جميعاً من طبيعةٍ واحدةٍ . فاذا جازهذا بالنسبة للجسد ، كما نشاهد في الحيوانات ، فانه لا يجوز بالنسبة للنفس ، فقد ثبت أن الناس كائنات حرّة يعملون بأنفسهم كل ما أرادوا من الأشياء ، وعلى ذلك فإن الشرّ لا يأتي من الطبيعة الخاصة بكل إنسان ما دمنا نرى أن النفس تنتقل من الخير الى الشرّ أو العكس حسب الظروف ، وإذاً فانه من العبث أن يُحمّل الناس — الذين تقودهم عواطفهم — خالقهم بالخطايا التي ارتكبوها .

وبعد هذا القسم الأول من الكتاب — وهو فلسفي بعامة — يأتي قسم ثانٍ موجه ضد الفلكيين وأشياعهم الذين يخضعون الناس لحكم القضاء والقدر، حيناً ناحية الشر، وأحياناً ناحية الخير. وقد استعرض ابن ديصان الحالتين المختلفتين اللتين يمكن أن يفهم منهما تأثير النجوم، ثم اتبع طريقاً وسطاً. وهو يقرّ تأثير النجوم على الجسد. ثم يتبع ذلك بأن القضاء والقدر أيضاً له بعض التأثير على الطبيعة، وعلى الحرية، ولكن بطريقة غير مباشرة، وبشكل فاتر جداً، لأنه يجب أن تصون هذه الأشياء الثلاثة — : الطبيعة، والقضاء والقدر، والحرية — وجودها الخاص الى نهاية العالم.

وفي هذه القطعة جميعها يظهر تأثير الكواكب مبالغاً فيه، ولكننا اذا نظرنا الى دراسة الفلك، كما كانت، وكما استمرت حتى القرن السابع عشر، فسنجد أن رسالة ابن ديصان معقولة جداً بالنسبة لعصره.

وبعد ذلك يقع الجزء الأساسي من المحاورة، فيسأل عويدا: اذا استطعتَ أن ترينا أن ذلك الذي يخطىء بسبب القدَر (أي النجوم) يخطىء مضطراً، فيجب أن نعتقد إذاً أن الانسان له إرادته الحرة، وأنه بطبيعته موجَّه ناحية الخير، ومبعد عن الشر، ومن أجل هذا فانه من العدل أن يحاسب في الآخرة. وقد دعا هذا السؤال ابن ديصان الى أن يوضح أن الناس يطيعون قوانين بلادهم ولا يطيعون القدَر، وانتقل الى بحث قوانين الصين والبراهمة والهند والفرس والبرتيين والرُّهاويين واليونان والجرمان والامازونيين والكلدانيين والميديين، ولا يسع الانسان الا أن يقول إن تلك القوانين التي يطيعها الناس ليست الا شكلاً للقدَر.

***

ثم لنعرض ملخصاً للقصيدة التي بقيت لنا من شعر ابن ديصان والتي تعرف باسم «أنشودة الروح» أو «ابن الملك»:

ابن الملك يقص عن نفسه: لما كنتُ غلاماً، كنت أعيش مترفاً في منزل والدي، وأراد والدي أن أسافر من بلدي في الشرق الى مصر فحمّلوني بأنواع الهدايا والملابس المختلفة فضلاً عن الذهب والفضة، ولكنهم أخذوا مني الحلة الثمينة والمعطف الثمين. وقد عاهدتهم ألاّ أنسى اذا ذهبت الى مصر لاستحضار اللؤلؤة من الحية السامة التي

توجد في البحر ، أن ألبس الحلة والمعطف عند عودتي لأرث — مع أخي — مُلك أبي

تركت بلاد الشرق متحملاً متاعب الطريق صوب مصر ، فوصلت اليها وحدي وتوجهت الى مكان الحية أنتظرها حتى تنام لأستولي على اللؤلؤة ، وكنت وحيداً غريباً ، ولكني رأيت أحد مواطنيّ من النبلاء فصاحبته وحذّرته من المصريين ، ثم لبست لباس أهل مصر حتى لا يداخلهم الشك فيما أريده من الاستيلاء على اللؤلؤة ؛ ولكنهم لاحظوا من أشياء كثيرة أني غريب عنهم ، فنصبوا لي الشراك ، ولكني أكلت من أكلهم ، ونسيت أصلي الشريف ؛ وقابلت ملكهم ، ونسيت اللؤلؤة التي جئت من أجلها . وما كدت آكل من طعامهم حتى ذهبت في سبات عميق .

وقد شعر والدي بما أصابني فجمع الملوك ورؤساء القبائل وأصحاب المراتب ، وقرروا أن ينقذوني من مصر ؛ وكتبوا اليّ خطاباً موقعاً عليه من الجميع يطلبون اليّ فيه أن أستيقظ ، وان أتذكر أنني ابن ملك ، وأن أتذكر ما يلحقني من العار في العبودية ، وأن أذكر اللؤلؤة التي حضرت من أجلها ؛ وألاّ أنسى أن ألبس معطفي وحلّتي حتى يكتب اسمي في سجل الأبطال ، وأحكم البلاد مع أخي . وقد وصلتني الرسالة في شكل نسر ، فأيقظني صوتها ، وعرفتها وقبّلتها ، وتذكرت اللؤلؤة التي جئت مصر من أجلها ، فذهبت الى الحية وسحرتها حتى نامت ، وسرقت اللؤلؤة . وتهيأت للسفر الى منزل والدي ، وتوجهت نحو الشرق فوجدت الرسالة التي أيقظتني أمامي في طريقي ، وكما أيقظني صوتها أضاءَ لي تقاطيع جسمها . وقد فُرش طريقي بالمغرة (خيوط الذهب) على حرير الصين . وقادتني بسرعة الى بلادي . فأرسل إليّ والدي الحُلة والمعطف فلبستهما ، وكنت قد نسيت شكلهما ، وقابلت والدي مطأطىء الرأس في حلّةٍ مرصّعةٍ مطرّزة ، عليها صورة الملك ، شاعراً بأني كبرت بأعمالي ، وصعدت الى باب السلام ، باب التضرع .

﴿ مدرسة ابن ديصان ﴾ : ومع أن ابن ديصان كان عالماً فذّاً ، ورئيساً لمدرسة الرُّها فإننا لا نعرف إلاّ القليل عمّن تخرجوا عليه ، وعن الأعمال التي خلّفتها هذه المدرسة مثل أعمال توما ، وهو من الكتب غير القانونية .

﴿ أعمال توما ﴾ : وصل إلينا من أعمال توما نصّان : الأول سرياني ، والثاني يوناني ،

أمّا أيهما هو الأصل فلم يُعرَف بعدُ على وجه التحقيق، ولكن المرجح أن الأصل هو النص السرياني. أما فكرة أنه من نتاج مدرسة ابن ديصان فترجع الى أنه من المتوقع جداً أن تقوم هذه المدرسة بتأليف أعمال رسول من كتب الأبوكريفا (أي الأسفار المحذوفة). وإن كان هذا الرأي لا يقوم على أساس. ونحن نتبين فيه أثر المانوية التي كان لها في ذلك الوقت قصص مستقل مستمد من الرحلات والعجائب التي يفعلها الرسل. وربما كانت هذه الرحلة الى القسم الشمالي الغربي من الهند، وهي إما من طريق صبغ القصص البوذي بالصبغة المسيحية، أو عن حقيقة متواترة عن رحلة توما الرسول الى الهند. ويظهر فيها إشارة واضحة الى أنشودة الروح: ابن الملك واللؤلؤة، وأنشودة الزواج.

وقد حُمِل هذا الكتاب على ابن ديصان أو على مدرسته. وإذا كان لدينا في أنشودة الزواج أثر غنوسطي مسيحي، فإننا نجد في أنشودة الروح أثر وثني.

تلاميذ ابن ديصان

﴿هرمونيوس﴾ — بعد وفاة ابن ديصان استمرّ ابنه هرمونيوس يقرض الشعر، وكان قد تعلمّ في بلاد اليونان — وبزّ أباه في هذه الناحية، وكان كل همه أن يُثبِّت تعاليم أبيه في أفئدة العامة. وكانت أناشيده وأناشيد أبيه من قبل موضع الإعجاب والتقليد. ومع أن افريم كان يبغضهما أشد البغض، إلاّ انه على الرغم من ذلك لم يستطع إنكار مواهبهما الشعرية. وليس لدينا شيء عن سيرته.

﴿عويذا﴾ — كان رئيس الشمامسة في كنيسة الرّها أيام مجمع نيقية، ثم فُصل وكوّن له جماعة. وقد أسند اليه تأليف عدد من الرؤى اعترف بها أتباعه الى جانب العهدين القديم والجديد، وهي رؤيا لابراهيم، ورؤيا ليوحنا، وكتاب الأجانب.

والاشارة الى هذه الكتب تدل على روح غنوسطية فلكية ترجع الى تعاليم ابن ديصان.

وقد ذكرت بعض المصادر أن عويذا كان يمثل مذهباً من المذاهب الغنوسطية. على حين يشير مصدر آخر الى انه كان يقول في تعاليمه بالنور والظلمة وتجسّد الله.

ولم يصل الينا شيء من أعمال تلاميذه والراجح أن رجال الكنيسة قد أعدموا كل آثارهم.

كتّاب السريان

في القرنين الثالث والرابع

لم يصل الينا عن القرن الثالث آثار أدبية تذكر، فقد تحوّلت، الجهود للدفاع عن الاضطهادات التي كان يتعرّض لها المبشّرون بالمسيحية في كلٍّ من المملكتين الرومانية والفارسية.

فلما كان القرن الرابع شعر السريان بحاجتهم الشديدة الى الكتابات الأدبية، وكان السَّبق في هذه المرة أيضاً للقسم الشرقي من البلاد التي تتكلم السريانية، فعملوا على تسجيل سير شهداء مدينة الرُّها، فظهرت مجموعتان: ترجع الأولى الى عصر تراجان عن استشهاد كاهن الأوثان شربيل والأسقف بَرسَمْيا، الذي كان معاصراً للبابا فلافيانوس (٢٣٦ — ٢٥٠). وترجع الثانية الى عصر دقلديانوس، وتشتمل على سِيَر جوريا وشيمونا والشماس حبيب. والمجموعتان من كتابة تيوفيلوس عن بعض شهود العيان الذين حضروا استشهاد هؤلاء الرجال.

أسْوَنا

ومن كتّاب القرن الرابع أسْوَنا: عاش راهباً في الرُّها، والظاهر أن شعره كان محبباً الى قلوب العامة لأن الناس كانت تنشده حتى أوائل القرن السادس. وكان معروفاً في ذلك الوقت أنه مات من جرّاء سقوطه من فوق الجبل عندما أراد ركوب المركبة التي تعرج به الى السماء، وكان به مسٌّ جعله يفكر في تقليد أليشع. ويقال إنه كان أستاذاً لأفريم. وينسب اليه شعر ذو مقاطع ستة فيه كثير من الحوار ويبدأ كله بالألف.

فافا بن عَجّى

كان أسقفا على سلوقيا والمدائن، وهو أول من لُقّب بالجاثليق، عمل في الثلث الأول من القرن الرابع على توحيد صفوف المسيحيين المقيمين في الدولة الساسانية وجعلهم تابعين لكرسي عاصمته السياسية، ولكنه لقي معارضة شديدة من كثير من الأساقفة الذين حاولوا في مجمع مقدّس خلعه. فرأى من جانبه — في ذلك الوقت العصيب —

أن يستعين بعدد من أساقفة الكنيسة الغربية ، الذين يعملون في الأقاليم الشرقية المتطرفة لمملكة الروم على حدود الدولة الساسانية ، فكتب اليهم يطلب منهم الاعتراف برياسته على جميع المسيحيين في المملكة الفارسية . وكان من بين الأساقفة الذين وقفوا يعارضونه ويناصرون أندريا أسقف دير ماري ، الأساقفة داود البصري الذي تنازل عن كرسيه ليذهب الى الهند للتبشير ، وعبد يشوع الكشكري ، وابراهام التستري ، وجَدْيَب ْ أسقف بيت لَفَط ْ ، ويوحنا أسقف ميشَن ، ورئيس الشمامسة سمعان بن الصباغين ، وقد استشهدوا جميعاً في عصر اضطهاد الساسانيين للمسيحية الذي قام به شابور الثاني فيما بين سنتي ٣٣٩ و ٣٤١ .

سمعان بن الصبَّاغين

سمّي بابن الصباغين لأن أهله كانوا يصبغون ثياب الملك ، كان رئيس شمامسة فافا الجاثليق ، ثم عُيّن أسقفا على سلوقيا والمدائن والسوس . وقد استشهد في ١٧ ابريل سنة ٣٤١ أو ١٣ ابريل سنة ٣٤٤ في رواية أخرى لأنه لم يقبل الرجوع عن المسيحية الى المجوسية .

ويقول عبد يشوع أسقف نصيبين في فهرسه أن سمعان كتب عدّة رسائل ، ولكن يظهر أنها ضاعت ، وينسب إليه كذلك عدّة أناشيد ، ومؤلف تحت عنوان « كتاب الآباء » أهداه الى تلميذه « أجّور » .

شاهد وست الجاثليق

كانت العادة أن يتخذ الجثالقة لهم أسماء مسيحية عند رسمهم في وظائفهم الدينية ، ولكن يلاحظ أن هذا الجاثليق قد احتفظ باسمه الفارسي « شاهد وست » ومعناه صديق الملك . كان رئيس شمامسة ابن الصباغين الجاثليق ، فلما قتل ابن الصباغين بقيت البيعة فترة بغير رئيس ، فاجتمع الآباء سرًّا وانتخبوا « شاهد وست » خلفاً له ، ولكن أمره ظهر فقبض عليه الفرس مع مائة وثمانية وعشرين أسقفا وقسًّا وشمّاساً وراهباً وحبسوهم خمسة أشهر لاقوا خلالها أصناف العذاب . فلما لم يرجعوا عن دينهم قتل مرزبان المدائن

منهم مائة وعشرين نفساً . وأنفذ الى شابور بـ « شاهدوست » ومن بقي معه . فلاطفه شابور في الخطاب ليدخل في المجوسية ، فلما لم يقبل قُتل هو وأصحابه في اليوم العشرين من فبراير سنة ٣٤٢ .

أفرهاط

عُرف بالحكيم الفارسي، وهو لقب خلعه عليه السريان من أصحاب الطبيعة الواحدة، وبه اشتهر في الأوساط العلمية ، ويعرف أيضاً باسم «فِرهاذ» وقد اتخذ له اسم « يعقوب » عند ما رُسم أسقفا ، وهو فارسي اعتنق المسيحية وخصص حياته لخدمة دينه الجديد ، ونعرف من كتاباته أنه نشأ في محيط الرهبنة ، وأنه كان أسقفا ، وأن مقر أسقفيته كان في دير مار متى بالقرب من الموصل . وكان معاصراً لافريم الكاتب وقد مثّل مدينته نصيبين في مؤتمر نيقية ، وعاش حتى شهد نشوب الحرب بين الرومان والفرس . ويقال إنه أنقذ مدينة نصيبين من الفرس بصلاته .

ويُعد أفرهاط أول عَلمَ من كتّاب النثر في العصر المسيحي، وقد بقي لنا من تآليفه كتاب في المواعظ يشتمل على ٢٢ رسالة تبتدىء كل واحدة منها بحرفٍ من حروف الأبجدية السريانية ، وقد رُتّبت هذه الرسائل وفق ترتيب الأبجدية ، وساعد ترتيبه في هذا النحو على احتفاظ الكتاب بوحدته ونظامه . وقد تناول في هذه الرسائل : القول عن الايمان ، والصدقة ، والصوم ، والصلاة ، ومجاهدة النفس ، وشريعة الرهبان ، والتوبة ، وقيامة الأموات ، والتواضع ، وشريعة الأساقفة ، والختان ، وتحقيق عيد الفصح ، والسبت ، والاسترحام ـ وهي رسالة مجمعية كتبها المؤلف في وقت كانت الكنيسة الفارسية فيه في موقف عصيب وكلف بإرسالها الى مجمع سلوقيا . وتتضمن معارضة الأساقفة لفافا ـ واختلاف الطعام ، وأن المسيح ابن الله ، والرد على اليهود ، والعذراء ، وحساب خلق العالم ونهايته ، وإطعام المساكين ، والاضطهاد ، والموت والآخرة . وقد أضاف المؤلف في نهاية كتابه فصلاً سماه بالسريانية (ط و ط ي ث ا) ومعناها آخر عنقود يبقى في الكرم ، أوضح فيه الصورة التي جاءت في العهد القديم في أشعيا ٤٥ : ٨

وقد انتهى من كتابة الرسائل العشرة الأولى من كتابه سنة ٣٣٧ وانتهى من الكتاب

كله سنة ٣٤٤ أيام الاضطهاد الذي صبّه شابور الثاني على المسيحيين . والظاهر أنه ألّف هذا الكتاب ردّاً على خطاب أرسله إليه شخص اسمه جريجور سأله فيه عن بعض المسائل الدينية . وقد أكّد المؤلِّفون القدماء صحة نسبة هذا الكتاب الى افرهاط : فقد ذكر جرجس أسقف القبائل العربية في خطاب الى صديق له سنة ٧١٤ أنه علم أن مؤلف هذه المواعظ حكيم فارسي ، ولكن لم يدُرْ بخلده أنه أفرهاط . وكان الكتّاب المتأخرون أدق بياناً : فابن العبري يعرف أن المؤلف هو فرهاذ . ويذكر عبد يشوع النصيبيني الصيغة القديمة للاسم أفرهاط ، وكذلك أورده الياس النصيبيني مؤرخ القرن الحادي عشر في تاريخه .

وتعدُّ هذه الرسائل صورة للعقائد المسيحية والنظام الكنسي في الدولة الساسانية في عصره ، كما توضح لنا اختلاف الآراء في علم ما وراء الطبيعة في أوائل القرن الرابع الميلادي . أما أسلوبها فلم يكن على درجة كبيرة من البلاغة إذ كثرت فيها الجمل الاعتراضية التي تتضمن استشهادات من الكتاب المقدس ، وجملها طويلة متعبة والفكرة فيها غير واضحة في بعض الأحيان . ولهذا الكتاب أهمية كبرى فمواعظه هي أقدم ما عرفناه من هذا النوع في الأدب السرياني ، ولغته ليست متأثرة باليونانية — التي أخذ يتزايد تأثر السريانية بها في القرون التالية — وهو الى جانب ذلك مصدر يعتمد عليه في دراسة اللغة والتفكير في الكنيسة السريانية القديمة .

وقد «نسب جنّاديوس» كل آثار أفرهاط الأدبية خطأً الى يعقوب النصيبيني المتوفى سنة ٤٣٨ . ولهذا ظهرت الرسائل التسع عشرة باسم يعقوب النصيبيني في ترجمة أرمنية .

إفريم

كان يطلق عليه عادةً اسم افريم السرياني ، ونبي السريان ، والملفان أي المعلم ، وقيثارة روح القدس . وهو أكثر آباء الكنيسة السريانية ذيوع صيت ، وكان بحق أحد مشاهير كتّاب السريان في النظم والنثر ، ولقي من إقبال القراء ما لم يظفر به كاتب غيره .

أما عن سيرته فان المصادر التي بين أيدينا لا تروي غُلة في كثير من الأحيان ، وكل ما نستطيع استخلاصه عن سيرة هذا الكاتب الفذّ الذي غذّى الأدب السرياني بكتاباته ،

انه وُلد في نصيبين في السنوات الأولى من حكم القيصر قسطنطين الأكبر سنة ٣٠٦ على الأرجح . وكان أبوه كاهن صنم يسمى أبنيل أو أبيزل فيما تقول بعض الروايات ، وكانت أمه مسيحية ، وقد جاء في مصادر أخرى انه وُلد من أبوين مسيحيين ، وانه تتلمذ على يعقوب أسقف نصيبين . وتقول بعض المصادر إن أباه لما رأى اتصال ابنه بالمسيحيين طرده فمضى الى الكنيسة واعتمد في سن الثامنة عشرة أو الثامنة والعشرين ، والأرجح أنه عُمِّد في الثامنة والعشرين ، وانتظم بعد ذلك في سلك الرهبنة ولكننا لا نعرف متى كان ذلك على التحديد . ولا نظن انه رافق الأسقف يعقوب عند سفره الى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ . وقد طُعِّمت سيرته بالشيء الكثير من الأساطير ، منها أنه أنقذ مدينته نصيبين بصلاته من الحصار الذي ضربه الفرس عليها سنة ٣٣٨ .

وفي أيامه حارب القيصر يوليانوس أهل فارس فغلبهم على أمرهم ، ولكنه أصيب بجرح قضى عليه أثناء عودته الى بلاده فمات سنة ٣٦٣ . ثم عاد الفرس فوقعوا على الرومان وألزموا جوفيان خليفة يوليانوس بالصلح على أن تكون لهم نصيبين وما جاورها فهاجر إفريم من نصيبين الى المنطقة الرومانية ونزل في مدينة بيت جَرمَى ، ثم انتقل منها الى آمد (ديار بكر) فأقام فيها بعض الوقت عند خؤولته ولكنه لم تطل اقامته بها فنزح عنها ، وأخيراً استقرّ به المقام في الرُّها منذ سنة ٣٦٥ وعمل استاذاً في مدرستها التي عرفت فيما بعد باسم مدرسة الفرس ، وتقول بعض المصادر إنه هو الذي انشأها وإنه كان ينفق عليها هو ومن خرج معه من الجماعة من نصيبين .

وتقول بعض المصادر إن إفريم غادر الرُّها الى مصر ، وقضى في أديرتها ثماني سنوات ظلّ طوالها يناصب الأريوسية العداء . وقد نشأت عند رهبان دير السريان بوادي النطرون في مصر قصة يروونها عن شجرة لا تزال قائمة هناك الى اليوم ، يقولون إن أصلها عصاً كانت في يد القديس إفريم . وقد بنيت هذه القصة على أساس فكرة أن القديس إفريم جاء الى مصر وأقام في أديرتها ، ولكن ذلك لم يثبت تاريخيًّا

وتقول نفس المصادر السابقة إن باسيليوس (المتوفى سنة ٣٧٩) عندما أصبح أسقف قيسارية، وجّه بقومٍ من حكماء أصحابه وسألهم أن يحتالوا في إحضار القديس إفريم ليجعله

أسقفا على بعض كُوَره . وقال لهم إن ظفرتم برجل قصير القامة ، كبير الهامة ، أصلع ، صغير اللحية ، لباسه خرق مُرقّعة من خلقان ملفقة ، فاحتالوا لإحضاره ، وإياكم أن يفوتكم ويحتال عليكم . ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا في إحضاره . ويقال إنه لما طالت إقامته بمصر عاوده الحنين الى الرُّها فمرّ في طريق عودته بقيسارية ، ولقي باسيليوس أسقفها، ثم استأنف السير الى الرُّها حيث مات ودفن بها في التاسع من شهر يونيو سنة ٣٧٣ م . بعد أن اشتهر اسمه في جميع العالم المسيحي .

وقد قدر العالم المسيحي فضل هذا الكاتب بعد وفاته فزادت عنايته بآثاره حتى أصبح لبعض كتاباته مركز خاص في الطقوس والصلوات فلا يخلو كتاب من كتب الصلوات أو كتاب الأجبية (وهي الصلوات السبع الليلية والنهارية) من صلوات أو طلبات أو توسلات مما أُثر عن القديس إفريم .

وتقول المصادر إن إفريم بدأ يقرض الشعر في نصيبين في سن مبكرة ، والزاجع أن الذي دفعه الى قرض الشعر قراءته لشعر ابن ديصان وابنه هرمونيوس الذي كان شائعاً في ذلك العصر . ولشعره في نصيبين قيمة تاريخية فهو يدلنا على مقدار ما عانته المدينة من آلام أيام حروب الفرس ، كما نعرف منه الكثير من أعمال الأساقفة يعقوب ، وبابو ، وولْجَش ، وابراهام . وكذلك نقف منه على مصير الجماعة المسيحية في نصيبين وما جاورها . وقد بلغ عدد القصائد التي كتبها في نصيبين إحدى وعشرين قصيدة ، زادها في الرُّها الى ست وخمسين ثم زادها حتى بلغت سبعاً وسبعين كانت كلها عن نصيبين ، وأطلق عليها جميعاً اسم « نصيبينيات » وهي تتناول موضوعات مختلفة منها قصائد عن تاريخ نصيبين في عصره : فالقصائد الثلاث الأولى نظمت بعد حصار الفرس لنصيبين لثالث مرة منذ وفاة القيصر قسطنطين الأكبر سنة ٣٥٠ . والقصائد من ٤ الى ٧ ومن ٩ الى ١٢ نظمها تحت تأثير نكبات الحرب في ربيع سنة ٣٥٩ . والقصائد من ١٣ الى ٢١ في مدح أساقفة نصيبين الأربعة وهم يعقوب ، وبابو ، وولْجَش ، وابراهام في السنوات ٣٥٩ حتى ٣٦٣ . وهناك مجموعتان أخريان لتاريخ عصره منها القصائد من ٢٥ الى ٣٠ نظمت حوالي سنة ٣٧٠ والقصائد من ٣١ الى ٣٤ نظمت بعد هجرته الى الرُّها مباشرة

وفيها ذكر محاربة الأسقف ڤيتوس الحرّاني للوثنية في الرّها . والى هنا تنتهي المجموعة الأولى من نصيبينيات افريم .

أما المجموعة الثانية فكانت ذات مركز ممتاز من الناحية الشكلية لأنها أخذت طريقها الى الرّها واعتبرت من النتاج الشعري الرائع لافريم وسُمّيت فيما بعد باسم « سوغيثا » ومنها القصائد من ٥٢ الى ٦٨ وهي محاورة بين الموت والشيطان ،والقصائد من ٣٥ الى ٤٢ عن بدء آلام المسيح .

أما القصائد من ٤٣ الى ٥١ ومن ٦٦ حتى ٧٧ فتشتمل في الأكثر على جدل ضد ابن ديصان وماني ومرقيون ثم قصائد عن قيامة الأموات وأزمة الموت .

وكانت كتاباته في الرّها كثيرة جدّاً . ويعد ما تركه أفريم من الكتابات بوجهٍ عام بما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الأسطر .

وتنقسم آثار افريم الأدبية الى قسمين : كتابات منثورة — اذ المعروف أن افريم قد استعمل النثر في شرح الكتاب المقدس ، وفي الجدل الديني ، وفي مقالاته ورسائله — وكتابات منظومة : وهي القسم الأكبر من آثاره الادبية ، وأهمها نوعان :

الأول « المدراش » : وهو المنظومة التي تنشد . ومنه خرج السوغيث وكان له فيه أثر ظاهر .

والثاني « الميمر » : وهو المنظومة التي تقرأ ولا تنشد . وكتاباته المنظومة نموذج حاول المؤلفون الذين جاءوا بعده أن يحاكوه فيها .

أما قصصه الشعرية فكانت طويلة معها شيء من الملل لما فيها من شرح للحياة والتعاليم الكنسية . وقد خلت تآليفه تقريباً من الاشارة الى المعتقدات الخرافية التي كانت شائعة في عصره،وإن كنا نلحظ قليلاً منها بين السطور في صلاته التي وضعها تضرّعاً لنزول المطر

وكل الكتابات التي وصلت الينا عنه شخصيًّا صحيحة النسبة اليه ،كما أننا نستطيع أن نحكم بأن الكتابات التي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام هي من وضعه أيضاً ، وكذلك النصوص التي ذكرها الكتّاب الأقدمون مثل فيلوكسينوس المنبجي في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس . وكذلك تبين لنا الفقرات التي استشهد بها من الأناجيل

ناحية من كتاباته الصحيحة ، فان إفريم — فيما يظهر — كان لا يستعمل الاَّ الدياطسرون . وكذلك نستطيع أن نحكم بأن الكتابات التي تتناول حوادث وقعت بعد وفاته بعدد تصل أحياناً الى أكثر من عشرين سنة لا يمكن أن تصح نسبتها اليه .

أما افريم الناثر فله شروح على عدد من أسفار الكتاب المقدس والدياطسرون ، لم تصلنا عنه مباشرةً بل عن أيدٍ متأخرة . وقد وصل الينا منه في لغته السريانيـة الأصلية شرح لسفر التكوين وجزء كبير من سفر الخروج محفوظ في مخطوطة في مكتبة الفاتيكان ، ومختصر لشرحه للعهد القديم صنفه سويرس الرَّاهب الرهاوي سنة ٨٦١ م . وقد بقي لنا منه مخطوطان أحدهما في مكتبة الفاتيكان ، والثاني بالمتحف البريطاني . وكذلك وصلت الينا ترجمة أرمينية لشرحه على الدياطسرون . وفي عهده اعترفت الكنيسة السريانية برسائل بولس الرسول على أنها من كتابات العهد الجديد . ولهذا شرح افريم هذه الرسائل مع الأناجيل . كما بقي لنا من آثاره كتابات كثيرة عن محاربتـه لتعاليم ماني ومرقيون وابن ديصان بعنوان « الرد على المارقين ، إلى هيباتيوس » وكتابات أخرى مثلها « الى دومنوس » والكتب الخمسة الأولى يبتدىء كل واحـد منها بحرف من حروف اسمه (ا ف ر ي م) وكذلك بقي لنا منه - فيما يقول فيلوكسينوس - ميمر نثري عنوانه « عن سيدنا » مجَّد فيه الألوهية وأعمال الخلاص على يد المسيح . وكذلك بقيت لنا خمس مقطوعات « عن الرحيم العلي » وسيرة لابراهام قيذونايا تظهر فيها بوضوح قوة إفريم الأدبية .

وقد بقي لنا من رسائله رسالة الى رهبان جبـال الرُّها ، وجزء من رسالة كتبت الى بوپيليوس .

وقد عُـزي إلى إفريم كثير من النثر . منه تورجامات ، أي شروح على موضوعات من سفري التكوين والخروج . وعن ابتداء الصوم ، ونزول روح القدس ، ولكنها في الواقع ليست سريانية الأصل بل يونانية كما يتضح ذلك من دراسة النص . ومنه شروح عن التوبة ترجع غالباً الى العصر الاسلامي . وشروح عن بعض كتب العهد القديم معروفة عند اليعاقبة وترجع الى القرن التاسع . وشرح على أسفار موسى الخمسة باللغة العربية ، يمكن بسهولة معرفة أنه ليس من تأليفه اذا وازناه بشروحه على سفري التكوين والخروج .

ومقتطفات من كتاب من كتب الرهبنة « كتاب الأحكام » وهو أحاديث بينه وبين تلميذ له لا تتفق في معانيها مع ما وصل الينا من كتاباته في الرهبنة في ترجمتها اليونانية . وسيرة الرسل الاثنى عشر وهي موجودة عند اليعاقبة والنساطرة .

وشخصية إفريم الشاعر أشهر وأقوى بكثير من شخصية افريم الناثر ، وكتاباته المنظومة أكثر جداً من كتاباته النثرية ، وقد أخضع لفنه جميع الأوزان السريانية التي كانت معروفة في عصره ، فنظم على المقاطع الخمسة والستة والسبعة والثمانية والتسعة والعشرة بينما نظم الشعراء المتأخرون قصائدهم على وزن أو اثنين . كذلك يظهر لنا فنّه في استعمال الأقسام الشعرية الى حدٍّ لم يصل إليه أحد من السريان فقد فرّق افريم بين نوعين من الشعر : المِدراش والميمر .

أما المدراش فمعناه الأول جَدَل في ثوب شعري ثم استُعمِل للشعر الذي يُنشَد بوجهٍ عام . ويتكوَّن المدراش من عدَّة أبيات تتساوى في عدد مقاطعها أحياناً ، وتختلف في عدد المقاطع في أحيان أخرى ، هذه الأبيات يرتلها فرد ، وترد عليه فرقة (كورس) بعد كل بيت بردود العونيثا عونايا ، وكل بيت من أبيات المدراش قائم بنفسه وليس من الضروري أن تكون له صلة بالبيت السابق أو اللاحق ، وللمداريش أوزان وأنغام شتى ، ويُعدّ إفريم من خيرة ناظمي المداريش ، وقد حذا فيها حذو داود في مزاميره فنظم أبياتها تارةً على ترتيب الحروف الأبجدية وطوراً على ترتيب حروف اسم يسوع أو حروف اسمه (ا ف ر ي م) أو « إفريميون » مصغَّراً . ويقولون إن إفريم كان يتولى بنفسه تعليم المرتلين (الفرقة) طريقة غناء شعره بالنغم الصحيح .

وقد نظم افريم نوعاً آخر من القصائد سماه « السوغيثا » وزنها بسيط ، وتصلح في صياغة المآسي للمسرح الديني ؛ وهو يبدأ عادةً بمقدمة مكونة من فقرةٍ أو أكثر يدخل الشاعر بعدها الى لب الموضوع في أبياتٍ يلقيها فرد ، وقد تكون حواراً بين اثنين ، وترد الفرقة بالإنشاد على طريقة البصَلْمودية بالتبادل بين نصفي الفرقة ، والفقرات الأساسية ينشدها اثنان من المجموعة يتقدمان للإنشاد .

ويشتمل الجزء الأكبر من مخطوطات افريم التي كتبت قبل الاسلام على مداريش ،

وعلى رأسها مجموعتان في الجدل مكونتان من ٥٦ مدراشاً . وفيها جدله مع ابن ديصان ومرقيون وماني ، وعنوانها « الرد على المارقين » ، ومعارضات ضد الأريوسية ، وسبعة مداريش عن « اللؤلؤة » أي عن المسيح وسرّ خلق الانسان ، وخمسة مداريش في الرد على يوليانوس امبراطور الروم الذي ارتدّ عن المسيحية الى الوثنية ، ومداريش جدلية أخرى كتبها في نصيبين في النصف الأخير من سنة ٣٦٣ بعد وفاة القيصر يوليانوس . ومنها مدراش عن الفردوس فيه كثير من الخيال ويتألّف من ١٥ أنشودة .

وهناك بعض مداريش لم تصل الينا كاملة : عن عيد ميلاد المسيح ، والصوم وعيد الفطير والصلب وشهر نيسان بمناسبة عيد الفصح ، والتائب ، وكلها مداريش دينية تستعمل لإحياء أعياد الكنيسة . ومدراشان لإحياء ذكرى رجلين من رجال الكنيسة : الأول عن ابراهام قيذونايا ويشتمل على ١٥ أنشودة ، والثاني عن يوليان سبا ويشتمل على ٢٤ أنشودة . ومدراش عن الإخوان المكابيين ومداريش عن موضوعات دينية مثل التبتل وسرّ سيدنا ، والكنيسة ، وقد بقي لنا المدراش الأخير في مخطوطين يرجعان الى القرن السادس .

وقد اقتطفت الكنيسة السريانية من مداريشه أبياتاً أُلّفت منها المداريش التي ترتل في صلاة الليل أيام الأحد والأعياد والصوم الى غير ذلك ، واليك ترجمة أحد هذه المداريش عن عيد القيامة :

جد علينا أيها الرب المبارك بقليل من فيضك .

في هذا الشهر الذي أغنت هباته جميع البرايا .

لقد انبسطت آلاؤك عليهم قاطبة .

فازدانت الجبال بأعشابها ، والحقول بزروعها .

وزخر البحر بأصدافه ، والبر بحيوانه .

وازدانت السماء بنيّريها ، والبسيطة بزهورها .

فنيسان زينة الأرض . وعيده جمال البيعة المقدسة .

*

هذا هو شهر نيسان الذي يمنح الشبع .

ينتهي بالصائمين الى حيث الأشياء الشهية .

ويلقى نير الصيام عن رقاب المجاهدين الساهرين .

ويقود الناس والحيوان الى النجعة .

لحذار إخواني أن نحاكي الحيوان حين نأكل

فنجعل من الفطر سبيلاً الى الشره ، فقد صمنا للحق فلنفطر مغتبطين .

*

إن نيسان يَحيك للأرض لباساً موشّى بشتى الألوان

فتظهر الخليقة متشحة بحلة من الزهور ، وطيلسان من الورود

إن أم آدم (أي الأرض) ترفل في عيد نيسان وعليها ثوب لم تنسجه الأيدي

وهي تبتهج لأن مولاها قد هبط اليها فيه . وفيه رُفع ابنها

فالأرض في حفلين : حفل سيدها وحفل ابنها .

*

وفي نيسان هبط الرب من علٍ ، فتلقفته مريم

وفي نيسان قام الرب ، وصعد ، وأبصرته مريم

وأحست به مريم عند نزوله ، وقد أبصرته في قيامته

إن اسم مريم مقرون بالصعود والنزول

فهنيئاً لك نيسان فقد شهدت حمل الرب وموته وقيامته .

*

وفي نيسان انتعش الصليب ومنحنا جميعاً ثمرة الحياة

وفي نيسان شاع طير السلام يشدو لنا .

وفي نيسان عيد الفصح الذي فيه تهبط روح المجد .

فتحل في المعمدين ، فيصبحون قيثارات ناطقة .

تنشد أناشيد الحمد ، للحي الذي نزل وحلّ بين الأموات .

*

اللهمّ امنن علينا برحمتك بشهور بهجة وسني ايناس.
فليأتنا نيسان بزهره يا رب بالسلام ، وإيار بزنبقه .
وحزيران بحزمه ، وتموز بحنطته ، وآب وايلول بالعناقيد في سلالها .
وتشرين وسَمِيُّه تشرين بالمعاصر ، وكانون وكانون بالراحة.
وشباط وآذار بالصوم . لك الحمد يا إلهي .

*

و ينظر نيسان الى تشرين حبيبه المطبوع على شاكلته .
فهذا مطلع العام فى ترتيب شهوره . و نيسان رأس شهورها وأعيادها .
لنيسان اللبن ،ولتشرين النبيذ ، لهذا الزهور ، ولذاك الفواكه.
لنيسان العطور الزكيّة ، ولتشرين الأطعمة اللذيذة.
وهما يشبهان الرب ، فإنهما بَرّدا الجسم بطَلِّهما من الحُمّى .
وترد مجموعة المرتلين على أبيات هذا المدراش بالرد التالي :
لك الحمد أيها المسيح في بداية صيامنا ، والآن في منتهاه .

***

وأما الميامر فهي شعر يقرأ ولا ينشد ، وقد يدخل فيها بعض فقرات تنشد ، وهي تعليمية أو قصصية للكتابات الآرامية الشرقية . ويمكن أن تكون هذه الميامر طويلة بحيث تبلغ آلاف الأبيات . وأبياتها متساوية المقاطع غالباً . وهي من ذات المقاطع السبعة ، وهي عادةً ذات دعامتين تتكوّن الأولى من ثلاثة مقاطع. والثانية من أربعة. وهذا هو النوع الذي كتبت به مدرسة ابن ديصان ، وقد نظم به افريم واستعمله سلاحاً ماضياً في جدله ، وكتب به مراثيه ، وعلّم به سامعيه المسائل الدينية المختلفة،واستخدمه كذلك في كتابة الطقوس الدينية ، ومنها ميامر في الرد على ابن ديصان ، وميامر عن الكنيسة — حافظ على وحدتها أنها موضوعة على ترتيب حروف الأبجدية— وميامر عن الصلوات لحاجة الكنيسة ، ومنها صلاة الرجاء لسقوط الأمطار ، وقد عرف منها فيلوكسينوس المَنْبِجي في أوائل القرن السادس الميلادي مجموعة لا تقل عن احدى عشرة قصيدة

وتستطيع أن ترى في هذا الميمر الذي كتبه إفريم في الرد على ابن ديصان — والذي نسجل لك ترجمته العربية هنا — رأي الكنيسة السريانية القائل بأن الله يَحُـل في جميع مخلوقاته ويلازمها وهو في هذا الميمر يعارض رأي ابن ديصان في القدر :

واحد هو الأبديُّ الذي نعرفه ونراه
وهو كائن بذاته ، وبغيرذاته ، تبارك اسمه .
أبديٌّ إرادته بكل مكان
الظاهر الباطن ، المشرق الخفي ، وهو فوق وتحت .
وهو تحت مخلوط مع من تحت تفضلاً منه
وهو سام ومرتفع ارتفاع مجده في العلويين .
وهو قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ومع كل شيء
يشبه البحر عند ما تسبح فيه الأسماك .
فكما تلازم المياه الأسماك طيلة حياتها .
كذا يلازم الله جميع خلقه .
وكما تغطي المياه الأسماك دائماً
كذا يضفي الخالق على كل ما أبدع كبيراً وصغيراً .
وكما أن الأسماك مغمورة بالمياه ، فان الله يغمر
المرتفع والمنخفض ، والبعيد والقريب ، وكل من عليها .
وكما تقاوم المياه السمك حيثما ذهب
هكذا الله مع من يسير .
وكما تصاحب المياه السمك في كل رَوَحاته
كذلك يصاحب الله كل امرىء ويراه في جميع أفعاله .
لا يكره الناس الأرضَ لأنها هي معبرهم
ولا ينأى المرء عن الصالح ، لأنه هو مُرشده .
وهو يربط كل الأشياء في جميع النواحي

كما ترتبط النفس بالجسد والنور بالعيون .
لا يستطيع المرء أن يهرب من نفسه لأنها معه
ولا يستطيع المرء أن يهرب من الله لأنه ملازم له .
وكما تحيط المياه بالسمك وتلامسه
هكذا تتصل الطبائع كلها بالله .
هو مختلط بالهواء ، مع أنفاسك التي تدخل صدرك
ممزوج بالنور كاتصال الرؤية في العيون .
إنه يختلط بروحك ، وهو فيك ، يسايرك حيثما ذهبت
يقيم فيك ، ولا يخفى عليه كل ما يدور في خاطرك .
وكما أن العقل يسبق الجسد ويتعقبه
هكذا الله سابق لنفسك متعقب لها .
وكما أن الرأي متقدم على العمل
هكذا تتقدم فكرته فكرةَ من يفكر .
بعيدٌ عن كل شيء ، مختلطٌ بكل شيء ، ومشرقٌ على كل شيء
الاسم العليّ ، والعجب المستور الذي لا نعرف كنهه .
هكذا الأبدي الذي لا يجادل الناس في كنهه
تلك القوة التي لا تكشف عن غورها .
ليس في المرئيات ، ولا في المغيبات معارض له
ذلك الذي خلق الكل من العدم وأبدعه .
قال الله : فليكن نور . فكان
ولتكن ظلمة . فكانت .
لقد أورى الله النار من الحجارة وأنبع الماء من الصخر
هو واحد قوي أوجد هذا كله من العدم .
هذا هو الموجود الذي جوهره منه

بارادته تتلظى النار وبارادته تخمد

يحرق الخشب في الغابة الكثيفة فتشتعل النار

فيهيج فيها اللهب ويأكل بعضها بعضاً ، وأخيراً تخمد

خاسر حياته الذي يفتح فمه ليقول شيئاً عن الله

كاره لنفسه الذي يوردها موارد الحتف وليس الله

اذا عرف المرء الكثير بعقل الدنيا فإنه يُجرم كثيراً

وكذا اذا بهرته الوثنية بزخرف القول

يا ابن ديصان ، أيها السافك ، يا من عقله كاسمه

ولم يكن عند إفريم ولا عند غيره من الكتّاب القدماء قافية مقصودة ، ولم تظهر القافية إلاّ في وقت متأخر بعد فتح العرب لبلاد السريان، نتيجة لتأثر أدباء السريان بالشعر العربي المقفى . كذلك لم يعرف السريان الوزن الشعري المعروف عند العرب واليونان .

ومن الملاحم التي صحت نسبتها اليه ملحمة عن موعظة يونا في نينوى ، وموعظة التوبة وكان لها ثلاثة ميامر ، الأول : عن زلزال وقع سنة ٣٥٨ ، والثاني : كتبه سنة ٣٦٣ م عن ضم نصيبين الى الفرس ، والثالث : عن هدم نيقوميديا . وله ١٣ ميمراً عن الحصارين الثالث والرابع لمدينة نصيبين .

وقد نسب إلى إفريم عدد كبير جدًّا من الأشعار، وإنه ليصعب علينا أن نجزم بصحة كل ما نسب اليه مما وضعه إبان إقامته في الرّها ، وهل كلها من تأليفه ، أو أن بعضها من نظم بعض تلاميذه ثم نسبت اليه . وليس من اليسير أن يُظهر النقد كل المنحول من كتاباته . ولكن النقّاد توصلوا الى إثبات أن بعض القصائد لا يمكن أن تكون من شعر إفريم ولكنها حملت عليه ، كقصيدة في غزوة التتار التي حدثت في يوليو سنة ٣٩٦ على حين أن إفريم مات في يونيو سنة ٣٧٣ ، ويرجح نولدكه في رسالة له عن سيرة الاسكندر ان هذه القصيدة أُلّفت بعد الفتح العربي ؛ وكذلك القصيدة التي فيها نفي برسيس أسقف الرّها نتيجة لاضطهاد واليس للمسيحية فمعلوم أن برسيس قد نفي في سبتمبر سنة ٣٧٣

أي بعد موت إفريم بثلاثة أشهر ، وغيرها عن رثائه لباسيليوس أسقف قيصرية مع أن باسيليوس قد مات بعده .

هذه القصائد التي قام الدليل على انها ليست لافريم حفزت الباحثين الى الشك في بعض ما نسب اليه ، فقد شكّ الباحثون مثلاً في صحة نسبة قصيدة اشتهرت في تاريخ الأدب السرياني عن سيرة يوسف الصديق ، وتعد هذه القصيدة من أبدع ما خلّفه الأدب السرياني وهي مقسمة الى اثنتي عشرة أنشودة ، اشتملت على الكثير من قوة الشاعرية في الشعر السرياني ، ولذلك فقد لقيت كثيراً من المعجبين بها والمقلدين لها ، ولكن المصادر لم تتفق على أن مؤلفها إفريم ، فقد نسب سليمان الباسوري هذه القصيدة الى إفريم ، على حين تنسب هذه القصيدة نفسها الى « بالي » في مخطوطة ترجع الى القرن السادس محفوظة في المتحف البريطاني ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصحة نسبتها الى واحد منهما .

وقد اشتهرت كتابات إفريم في جميع العالم المسيحي ، ولهذا نقلت بعض مؤلفاته في حياته الى اليونانية ، ومنها ميامر شعرية من ذات المقاطع السبعة ومجموعة تبلغ ٤٩ ميمرا عن الرهبنة قرأها فوتيوس . وكانت معروفة عند الرهبان اليونان لحفزتهم الى الاهتمام بالسريان .

وقد ترجم الكثير من كتب إفريم الى اليونانية والأرمنيــة في عصور متقدمة ، كما نسج كثير من الكتّاب على منوال كتابات إفريم وحمّلوها اسمه ، منها ما يرجع الى القرن العاشر ، ومنها ما يرجع الى ما قبل ذلك . وهناك كثير من كتاباته تحمل اسم « يوحنا فم الذهب » و « مكاريوس » ، كما تحمل بعض كتابات « فم الذهب » اسم إفريم .

***

والراجح أن التراجم القديمة قد دخل عليها كثير من الزيادة والنقص على مرّ السنين تبعاً للتطورات التي تدخل على حياة الأقوام الذين يستعملونها . والترجمة الأرمنية لإفريم ترجع الى القرن الخامس ، وتراجمه في هذه اللغة أحسن بكثير من تراجمه الى اللغة اليونانيــة . وقد نسبت اليه في الأرمنيــة بعض مقطوعات ، منها محاورة بينه وبين اسحاق عن تاريخ عيد الميلاد ، وكتابة عن تأسيس أوّل كنيسة في القدس .

ونقلت الى القبطية بعض كتابات إفريم ، والظاهر أنها تُرجمت عن اليونانية . وكذلك نُقلت بعض كتاباته الى اللغة السلافية ، وهي مترجمة بدورها عن اللغة اليونانية .

وهناك عدد من مؤلفات إفريم منقولة الى اللغة العربية، ففي سنة ٩٨٠ م ترجم الملكي ابراهام بن يوحنا الانطاكي حوالي خمسين مقالة من كتابات إفريم عن الرهبنة .

وهناك بعض كتابات بالخط القرشوني عن العقائد السريانية اليعقوبية يبدو أنها ترجمت عن السريانية .

وكذلك ٥٢ ميمراً في الوعظ ذكرها أبو البركات بن كبر في قائمته، منها نسخة في مكتبة الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٢٩ م . وفي مكتبة الآباء اليسوعيين ببيروت نسخة أخرى أقدم منها تاريخها سنة ١٢١٦ م . وفي آخرها مديح القديس جريجوريوس نيسس للقديس إفريم، وقد نشرت بمجلة المشرق . وله كذلك ٦٨ ميمراً أخرى في احدى مخطوطات الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٢٥ ، وله ميامر أخرى معرَّبة في مكتبة ديار بكر للكلدان ومكتبة دير البلمند للروم وفيها سيرته .

وفي مكتبة دير الشرفة للسريان الكاثوليك ١٦ ميمراً في آلام المسيح ، وميامر متفرقة في الدينونة ، وفي القديس الياس النبي . وهناك أيضاً ترجمة عربية لتفسيره على سفر التكوين بالخط القرشوني في مكتبة الموارنة بحلب . وكتاب مغارة الكنوز المنسوب اليه ، وهو عبارة عن قصة آدم وحوّاء بعد أن طردا من الجنة ، وقد نشر بتسولد Bezold هذا الكتاب في اللغتين السريانية والعربية مع وصف النسخ التي وقف عليها . ويتناول هذا الكتاب أخبار آدم وذرّيته الى عهد المسيح مع تفاصيل عن أحوال آدم وحوّاء بعد خروجهما من الجنة ودخولهما في مغارة تدعى مغارة الكنوز .

وكذلك نُقلت الى الحبشية القديمة بعض كتابات افريم عن طريق العربية، وفي الغرب نقل الى اللاتينية كثير من كتاباته عن اليونانية ، ولا يمكننا غالباً أن نحكم من التراجم عن صحة نسبة أصلها السرياني الى افريم مادام الأصل السرياني غير موجود ، فقد يكون توسّط بين هذه الترجمة وبين الأصل تراجم أخرى .

مدرسة إفريم

نشأت في الرُّها مدرسة لافريم امتدت الى آخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، والظاهر أن افريم على شهرته الواسعة وذيوع صيته ككاتب ديني لم يكن له تلاميذ جديرون بأن يخلفوه . وقد جاء ذكر هؤلاء التلاميذ في عهدٍ خلّفه افريم . ذكر فيه منهم أرْوَط وباولونا مُنحياً عليهما باللائمة لأنهما انحرفا الى الهرطقة، وترجع شهرة باولونا الأدبية الى ما أُثِر عنه من المداريش والميامر في الرد على الهراطقة ، والجدل مع مارقيون ، ورسالة عن المؤمنين ، وأخرى عن العقيدة ، ومنهم جماعة ذكرها افريم بالمدح والثناء ، ومنهم سمعان الذي تنسب اليه سيرة افريم ، وابراهام ، ومارا الاجّيلي ، وأبا . ويذكر الكتّاب المتأخرون أن له شرحاً على الاناجيل أي الدياطسرون ، وموعظة عن أيوب ، وشرحاً للمزامير ومنظومة على المقاطع الخمسة بقي منها قطع قليلة

ومنهم « زنوبيوس الجزرتي » الذي كان شماساً في كنيسة الرُّها ؛ وله عدد من الرسائل في الرد على مرقيون وعلى شخص اسمه پامفيلوس ، وله عدد من الرسائل إلى « إيزودور » ولوكيلوس ، وابراهام ، وأيوب . ومنهم يعقوب وقد بقي لنا منه بعض شروح لكلام أستاذه افريم .

وقد اشتملت سيرة افريم على اسم تلميذ آخر من تلاميذه وهو اسحاق ، وقد فهم خطأً أنه اسحاق الانطاكي . ومن الكتّاب الذين ينتمون الى إفريم في نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، « أرّا » الذي عارض السحرة ، وله كذلك كتاب اسمه « الجعارين » في الرد على ابن ديصان ، وكذلك « پقّور أو برقوسين » ويخلط الناس بينه وبين مؤسس دير نسطوري في أواخر القرن السادس اسمه « برقوسرا » . كتب مجلدين في الرد على الفلك عند الكلدانيين ، وله كتاب عن المارق « پارافرون »

ومع تطور الحياة الأدبية في القسم الروماني لاقليم ما بين النهرين الذي تميز بظهور إفريم ، كانت المسيحية في المملكة الساسانية قد حاقت عاصفة الاضطهاد التي بدأها

« شابور الثاني » (٣٠٩ — ٣٧٩) ضد المسيحيين ، وكان بطلها في ذلك الحين « يزدجرد الأول » (٣٩٩ — ٤٢٠) وكان من ضحاياها ماروثا الذي لعب دور الوسيط في إقامة السلام الديني ، وكذلك « آحي » الجاثليق ، وكان نشاطهما الأدبي يعدُّ فاتحة عصر جديد في الأدب تتمثل فيه حياة الكنيسة الداخلية ، وتسجيل أعمال المجامع التي أُقيمت في ذلك الحين لتسوية الخلافات الدينية ، وجمع سير الشهداء وتدوينها ، وترجع بداية هذا العصر الى السنوات العشرة السابقة على عصر الاضطهاد ، واستمرَّ النشاط الأدبي في هذا الاتجاه في السنوات الأخيرة لحكم « يزدجرد الأول » وأيام « بهرام الخامس » (٤٢٠ — ٤٣٨) و « يزدجرد الثاني » (٤٣٨ — ٤٥٧) . وكان جريجوريوس الراهب يمثل أدب الرهبنة في المملكة الساسانية .

ماروثا أسقف ميفارقاط

كان أسقفاً على مدينة ميافارقين — كما يسميها العرب — ويسميها السريان أيضاً مدينة الشهداء ، ويطلق عليها اليونان اسم Martyropolis وتنحصر فترة نشاطه بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس . وتوفى سنة ٤٢٠م . وكان أديباً مثقفاً ، وكان الى جانب ذلك حجة ثقة في علوم الطب . ظهر سنة ٣٩٥ في القسطنطينية ليدفع القيصر « أركاديوس » الى الاهتمام بحالة المسيحيين الذين كانوا في المملكة الفارسية . فأرسله أركاديوس الى يزدجرد الأول ، فنجح في سفارته هذه بفضل نبوغه في علم الطب . واستطاع أن يعقد سنة ٣٩٩ م مجمعاً للكنيسة الفارسية في سلوقيا رأسه الجاثليق اسحاق (٣٩٩ — ٤١٠)

وفي سنة ٤١٠ م أرسله تيودوسيوس الثاني سفيراً الى المملكة الساسانية ليتوسط في رفع الاضطهاد عن المسيحيين الذين يقيمون في بلاد فارس فاستطاع أن يجدِّد العلاقات الكنسية وأن يعيد السلام الى الكنيسة الفارسية . وتقول المصادر الشرقية إنه حضر مجمع القسطنطينية ، ولكن اسمه لم يرد في جدول أسماء الآباء الذين حضروا هذا المجمع . وتقول نفس المصادر إنه مهد للجاثليق « يب الله » في سنة ٤٢٠ أن يرأس مجمع طيسفون (المدائن أو مدائن كسرى وهي على الشاطىء الأيسر من نهر دجلة وأطلالها على بعد ٢٦

كيلو متراً جنوبي بغداد ويقابلها على الشاطىء الأيمن أطلال مدينة سلوقيا) .

أما كتاباته فأكبرها مجموعة عن أعمال الشهداء الذين اضطهدهم الفرس وتشتمل على بيانات عن الذين اضطهدوا في سبيل العقيدة المسيحية أيام شابور الثاني ، ويزدجرد الأول وبهرام الخامس ، وأضاف إليه خطبتين عن الشهداء وتعذيبهم . ويذكر أن ما سجله هو من رواية شاهد عيان هو « أشعيا بن حَدَبو » من مدينة أرزان وهو أحد فرسان ملوك الفرس ، وتعطينا هذه المجموعة فكرة عن الحالة الاجتماعية في بلاد الفرس ، وبعض المعلومات الجغرافية ، وبيانات عن نظام الأدارة في المملكة الساسانية لم ترد في مصادر أخرى . وقد بقي لنا أجزاء من هذا المؤلف في بعض مخطوطات المتحف البريطاني ترجع الى القرنين الخامس والسادس .

وله كذلك أناشيد وتراتيل شعرية عن الشهداء . وترجمة للقوانين التي صدرت عن مجمع نيقية . أما رسالته الى الجاثليق اسحاق عن مجمع نيقية فانه لا يمكن أن تكون كلها صحيحة النسبة إليه لأنها تختلف كثيراً عن القوانين الصحيحة للمجمع . وهي تتعارض — من الناحية التاريخية — مع الحقيقة التي نعرفها عن علاقة « ماروثا » بالبلاط البيزنطي كما أنها تختلف في ترتيبها عن النصين العربي والحبشي لهذه القوانين ، اذ عدد القوانين ٨٤ قانوناً في النص العربي بينما هي ٧٣ قانوناً في النص السرياني ، فالقوانين الأولى في النص العربي وعددها ٣٢ قانوناً لا يقابلها شيء في النص السرياني لأنها تتضمن نظام تسقيف الأساقفة ومسائل تتعلق بالقسس والرهبان من أتباع فول الشمشاطي . وقد دخلت هذه القوانين في الكنيسة الملكية بنصها العربي ولا نعرف الطريق الذي وصلت إليهم منه ولا التاريخ الذي تمَّ فيه ذلك ، وقد أخذها الأقباط عن الملكية . وعلى أي حال فإن هناك أجزاء منها — كبعض الشروح اللغوية عن الاستعمالات اليونانية في الكنيسة — لا يوجد ما يمنع من التسليم بأنه كتبها الى الجاثليق اسحاق مع قرارات مجمع نيقية الأصلية .

* * *

أما الميمر الذي ينسب إليه ، وشرح الدياطسَّرون فانها تنسب الى « ماروثا » مفريان « تكريت » على الأرجح .

آحيْ الجاثليق

درس على « عَبْدا » مؤسس مدرسة دير عَبْدا . وبعد وفاة اسحاق سنة ٤١٠ بقي مكانه شاغراً عاماً كاملاً ، ثم اختير آحيْ خلفاً له ، وبقي في كرسي الجثلقة أربع سنوات وسبعة أشهر ، وتوفي سنة ٤١٦ . وكان يزدجرد الأول يقدره قدره فأرسله الى أخيه لتسوية خلاف بينهما، وقد زار في رحلته هذه مقابر الذين استشهدوا في الاضطهاد وجمع ما نُقل من سِيَرهم ودوّنه في كتاب ، وكتب الى جانب ذلك سيرة معلمه عَبْدا .

سير شهداء الفرس

تعرّضت الكنيسة المسيحية في القرون الأولى لقيامها لكثير من الاضطهادات ، وكان الرهبان ورجال الدين هم أكثر الناس تعرّضاً لها عقاباً لهم على ما قاموا به من أعمال في سبيل نشر دينهم ، وكانت هذه الأعمال في الأدب السرياني — كما كانت في غيره من الآداب المسيحية — موضوعاً لعدد من الكتابات خلال فترة طويلة من الزمن . ففي الشرق استشهد بريخ يشوع ويوناف مع سبعة آخرين سنة ٣٢٨ م فكتب سيرهم شاهدُ عيان هو أشعيا بر حدبو الذي عرفناه من قبل ، وفي سنة ٣٤٠ م استشهد عدد من أساقفة الفرس فسجل سيرتهم الأسقفان ماروثا وآحيْ .

وفي العام الرابع للاضطهاد استشهد الأسقف نرسى من شهارقَذْ في بيت جَرْمي . وشهداء مدينة بيت سلوك (كركوك الآن) . وما لقيته جماعة من منطقة جيلان من عسكر الفرس سنة ٣٥٠ م . وقد ظهر في الاضطهاد الذي وقع في عصر يزدجرد الأول سيرة عبدا وأقرانه ، ونرسى من بيت رازيقايا وشهداء بيت جرمي . وفي السنوات الأولى لحكم بهرام الخامس استشهد ميهرشابور وفيروزُ ، والكاتب يعقوب . وقد دوّنت سير هؤلاء جميعاً وما لاقوه من تعذيب في سبيل عقيدتهم .

جريجوريوس الراهب

تذكر المصادر النسطورية المتأخرة أن جريجوريوس كان من رهبان الطبقة الأولى للسريان الشرقيين وهو فارسي من نستير من أعمال مدينة سوسة . ويقال إنه ذهب الى

نصيبين على أثر رؤيا رآها ، وانتقل منها الى الرُّها ليدرس في مدرسة الفرس هناك ، ودخل دير طور عابدين في جبال الأزل ، ثم ارسل الى جزيرة قبرص ليرأس رهبانها السريان هناك . يقول صاحب تاريخ النساطرة : ولكنه كان لا يحسن اليونانية فجعله الرهبان بستانيًا وأقام على ذلك عامين تعلّم خلالهما اليونانية ، ثم صار رئيساً على الرهبان وبقي على ذلك حيناً . ثم ترك الجزيرة وعاد الى صومعة في جبل الأزل وينسب اليه كتاب في تدبير الرهبنة جعله ثلاثة أجزاء : الأول مواعظ للاساقفة . والثاني في الرؤيا التي رآها . وضمن الثالث رسائله وهي موجهة الى صديقيه تيودوروض وابيفانيوس ويظهر أن أبيفانيوس هو أسقف سلاميس في جزيرة قبرص ، وله رسائل أخرى في الرد على أسئلة مختلفة للرهبان . وله مختارات في الصلاة جمعت من كتاباته يظهر فيها أثر الاعتقاد بالشياطين

***

الى جانب الكتابات التي ظهرت في الاقليم الشرقي واقليم ما بين النهرين الفارسي ، ظهر في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع مسرح ثالث للكتابات السريانية من وضع السريان الذين كانوا تابعين للدولة الرومانية . وكان يمتد الى جميع مناطق الحدود التي كانت خاضعة للثقافة الهلينستية ، وكان منها كتابات رجال اللاهوت اليونان وجيرانهم من أهل فلسطين . مثل أوسابيوس القيصري وطيطوس البُصري وأوسابيوس الحمصي . وقد ترجمت أعمال هؤلاء في عصر متقدم الى اللغة السريانية . وينتهي كتاب القرن الرابع بشاعر ظهر في سوريا الغربية وبقيت لنا بعض أعماله وهو قوريللونا وكانت كتاباته باللغة السريانية .

أوسابيوس القيصري

بقي لنا من كتاباته ثلاثة كتب مترجمة ترجع الى القرن الرابع ولكن أصلها مفقود . الأول عن شهداء فلسطين والثاني موعظة للشهداء والثالث عن عدم سقوط المطر .

وقد عرفنا كتابه عن تاريخ الكنيسة من ترجمة ارمينية . ولما يصلنا شيء من كتابه عن سيرة قسطنطين ، أما خطابه الى اسطفانوس ومارينوس فقد عرفناه مما كتب عنه في الكتب الأخرى .

وقد أضيف الى أوسابيوس كتاب عن النجوم ، وأشياء عن التقاويم وشرح

لقاطيغورياس أرسطو . وقد وجدت له — الى جانب كتابه عن شهداء فلسطين ترجمة لشهداء من الأريوسيين في نيقوميديا .

الاسقف طيطوس البُصري

توفى أيام القيصر واليس (٣٦٤ — ٣٧٨) ألّف كتبه الأربعة ضد المانوية بعد سنة ٣٦٣ م وترجمت الى السريانية بعد كتابتها بعشر سنوات تقريباً . وقد بقيت لنا تحت اسمه مقطوعة من موعظة عن عيد الميلاد يظهر أنها مترجمة عن اليونانية .

الاسقف أوسابيوس الحمصي

ولد في الرّها ، وقد نصّبه مجمع انطاكيه الذي اجتمع عام ٣٤٠ م بطرقاً على الاسكندرية بدلاً من اثناسيوس . كتب ميمراً عن الصوم بالسريانية وصلت الينا منه مقطوعة ، ويظهر أن كثيراً من كتاباته قد ترجمت الى السريانية ولكنها ضاعت . وله ميمر عن الشهيد اسطفانوس ، وكثير من المواعظ .

قوريللونا

ويسمى أيضاً كيريلينوس ، وهو شاعر لا نعرف عن حياته شيئاً ، وقد وصلتنا منه بعض قصائد ومقطوعات ومقدمة لمدراش ، وميمر على وزن المقاطع الأربعة عن هجوم الجراد ، وآخر عن غارة التتار التي وقعت في يوليه سنة ٣٩٦ م ، وقد كتبت هذه القصيدة بعد الغارة بعام أي سنة ٣٩٧ إذ يقول فيها « لمّا تمرّ سنة بعدُ منذ خرّب التتار سوريا» وله ميمر عن العشاء الربّاني وصلب المسيح ، وسوغيثا عن عيد الفصح وقصيدة عن عيد الميلاد ، وتنسب اليه مقطوعة عن زكّى العشّار ، وميمر عن القمح على وزن المقاطع السبعة ، ولكن عبارتهما تدل على أنهما ليسا لشاعر ممتاز ، وهما فيما يظهر لشاعر آخر ظهر في النصف الأول من القرن الخامس يسمى « قورى » .

وقد خلط بيكّل بين قوريللونا وعبسّميا الذي كان قسيساً في الرّها، وهو ابن أخت إفريم وتلميذ زنوبيوس ، وزعم أنهما شخص واحد، وحجته في ذلك أنه يُروى أن كليهما قال شعراً عن غارة التتار وأن كليهما كتب مداريش وميامر على وزن المقاطع السبعة وهي

حجة واهية . وقد ورد في تاريخ الرها أن عبسميا نظم أشعاراً عن غارة التتار سنة ٤٠٤ م وتكلم عنه ديونسيوس التلمحري في سنة ٣٩٧ . ولا نستطيع أن نعتمد على ما ذكره ابن العبري في تاريخ الكنيسة ، إذ أنه بعد أن تحدث عن وفاة «يوحنا فم الذهب» سنة ٤٠٧ ذكر أن تيودور المفزوستي مات حوالي ذلك الوقت سنة ٤٢٩ وقال إن عبسميا كان مشهوراً في ذلك الحين ، وأنه وضع كثيراً من القصائد عن غارة التتار على وزن القديس إفريم ذي المقاطع السبعة ، ولما كان ازدهار برصميا يرجع الى حوالي سنة ٣٩٦ أو سنة ٤٠٣ فقد قيل تبعاً لذلك إنه كان حاضراً مجمع نيقيا كما قال ابن عبد السلام . ولكن يظهر ان ابن العبري أخطأ عند ذكر عدد المقاطع التي نظم بها قوريللونا .

واليك مقطوعة من إحدى قصائد قوريللونا عن غارة التتار :

إن الشمال يائس ينوء تحت أثقال الحرب ، فإن أهملت يا رب فسيهلكوني ثانية . فاذا غزاني التتار يا رب ، فلِمَ احتمي مع الشهداء ؟ فاذا كانت سيوفهم ستهلكني ، فلماذا أمسك صليبك العظيم ؟ وإذ أنت سلمت مدُني اليهم ، فأين عظمة كنيستك المقدسة ؟ لما ينقض عام منذ وقعوا علينا ، وأهلكونا وأخذوا أطفالي في الأسر ، وهم واحسرتاه يهدذون أرضنا بإخضاعها مرة ثانية .

كتابات لا يُعرف مؤلفوها

ونختم حديثنا عن القرن الرابع بعدد من المؤلفات لا نعرف شيئاً عن كتّابها مثل السِّير المسيحية القديمة للرسل ، التي نقلت من اليونانية الى السريانية في القرن الرابع ، ومنها سيرة يوحنا بن زَبَدَيّ ، وأعمال متى وأندراوس ، ووعظ فيلبوس في قرطاجنة ، وتعاليم سمعان كيفا (بطرس) في مدينة روما ، وسيرة لوقا الانجيلي .

وكذلك الأسفار المحذوفة من أدب الانجيل وأهمها بالسريانية أعمال بيلاطس ، والمراسلة التي كانت بين بيلاطس وهيرودس ، وخطاب الأسقف يعقوب المقدسي الى قوَا دراتوس عن تقرير بيلاطس الى طيباريوس في محاكمة المسيح ، وكتاب طفولة المسيح والراجح أنه يرجع الى أصل سرياني . وهناك ترجمة لهذا الكتاب نقلها السريان النساطرة الى أرمينيا حوالي سنة ٥٩٠ ، وتاريخ ولادة العذراء وتنشئتها ، والغالب أيضاً

أن انجيل توما قد كتب أصله بالسريانيـة ، وإنجيل يعقوب ، وكتاب عودة العذراء ، ورؤيا تيوفيل الاسكندري عن إقامة العائلة المقدسة في مصر .

وكذلك ظهرت مؤلفات من أدب الرؤيا ، منها انجيل الرسل الاثنى عشر ، والراجح أن أصله موضوع بالسريانية . أما القول بأن أصله موضوع في اللغة العبرية ، وعنها ترجم الى اليونانية ، ثم نقل من اليونانية الى السريانية فلا أساس له . ومنها رؤيا بولس والغالب أنها ترجمت الى السريانية عن اليونانية ، ثم ترجم النص السرياني الى الأرمنية في القرن السادس . أما كتابُ عزرا الرابع المعروف برؤيا عزرا — والذي علّمه لتلميذه كاربوس في الصحراء عن حكم الاسماعيليين فالمؤكد أنه يرجع الى العصر الاسلامي .



تاريخ انقسام الكنيسة

ظهرت المسيحية في وقت كانت الثقافة اليونانية مزدهرة فيه ، وكانت مدرسة الإسكندرية هي المقرُّ الرئيسُ لهذه الثقافة في العالم ، فلما انتشرت المسيحية في مصر كانت الأفلاطونية الحديثة هي مذهب اليوم — إن صحَّ هذا التعبير — عندما بدأ المسيحيون في الاسكندرية في الاتصال بالفلسفة اليونانية . وكان كليمانس الأسكندري أول عالم حاول التوفيق بين الفلسفة واللاهوت المسيحي ، ولكن اجتهاده العلمي كان سبباً في تجريده من منصبه.

وحاول أوريجين تلميذ أفلوطين نفسه إخضاع فلسفة عصره حتى تساير النظرية المسيحية ولكنه لقي في سبيل ذلك بعض الصعاب ، مع أن العالم المسيحي كان ينظر الى هذا التنقيح بعين ملؤها الاطمئنان والرضى ، فلما قام كليمانس وأوريجين بتكوين مدرسة مسيحية ذات لاهوت فلسفي لهذا الغرض ، أوجست كنائس العهد القديم خيفةً من هذه المدرسة ونظر اليها الفلاسفة نظرة ريبة . بل لقد كان فريق من المسيحيين في الاسكندرية يرمقون هذه المدرسة شزراً . ولكن المدرسة — على الرغم من ذلك — بلغت شأواً بعيداً وأحرزت شهرةً واسعة ، حتى أخذت تغطي على النظام الأسقفي القديم . ولكن ذلك لم يدم طويلاً فان الشراك قد نصبت لأوريجين ، وحيكت حوله المكائد حتى اضطرَّ أخيراً الى ترك الاسكندرية والرحيل عنها الى فلسطين ، وهناك أسس مدرسة في قيصرية على نمط مدرسة الاسكندرية ، ولكنها لم تبلغ ما بلغته تلك . ومهما يكن من شيء ، فقد لعبت هذه المدرسة دوراً هامًّا في تاريخ الكنيسة السورية ، ففيها كان يتركز النشاط اللاهوتي ، وشجعت على قيام مدارس أخرى من هذا النوع ، وكانت أولى هذه المدارس تلك التي أسسها مليطون في انطاكية حوالي سنة ٢٧٠ م .

نشأت مدرسة انطاكية في جوٍّ كان يسوده تفكير بولس الشمشاطي أسقف انطاكية حوالي سنة ٢٦٠ م . الذي كان يقول إن المسيح مجرد إنسان وإن كان قد هُيِّئَ ليرقى تدريجيًّا الى مرتبة اللاهوت . ومع انه قد عُقدت بانطاكية ثلاثة مجامع فيما بين سنتي ٢٦٤ و٢٦٩ للبحث في آراء بولس هذا ، وأن هذه المجامع قد انتهت الى إدانته ، فان حكم

الحرمان لم ينفذ الا سنة ٢٧٢ عندما كفت زنوبيا التدمرية (الزباء) عن حمايته . وهذا يدل على عدم التحمس لمناهضة هذه الآراء التي أعلنها بولس الشمشاطي ، يؤكد ذلك ان هذه الآراء لم تندثر وإنما ظهرت ثانية في أوائل القرن الرابع على يدي أريوس الاسكندري المتوفى سنة ٣٣٦ وكان قد تلقنها عن أستاذه لوقيان الراهب الانطاكي .

ظهر آريوس في وقت كانت كثرة المسيحيين فيه تعتقد أن المسيح ابن الله ، وانه انبثق عن الأب بطريق الفيض ، وليس بطريق الأبوة الانسانية ؛ وأن المسيح إله ، لأن الفيض لابدّ أن تكون له نفس طبيعة المصدر الذي فاض منه ، وان الابن نتج عن الأب في الأزل وقبل أن تخلق العالمين ، وان الابن أو الكلمة هو الواسطة في الخلق . فلم يقبل آريوس هذه الآراء . وقال إن الله خلق المسيح من لا شيء ، وأن المسيح إنسان ، وأنكر أن يكون إلهاً أو شخصاً إلهياً ، وقال إنه لا يجوز لذلك أن تسمى أمه « والدة الله » وتبعه جماعة من المسيحيين كانوا يسمون بالأريوسية .

وخاف رجال الدين أن يستفحل أمر آريوس وينتشر مذهبه فاجتمع الأساقفة في مجمع ديني عقد بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ م . في أيام الملك قسطنطين واجتمع به ٣١٨ من آباء الكنيسة . وقد أسفر هذا المجمع عن دحض مذهب آريوس ، وانتهى الأساقفة فيه الى وضع الأمانة البهية ضد مذهب آريوس أثبتوا فيها عقيدة المماثلة المطلقة بين الابن والأب : أي أنه لا فرق بين المسيح وبين الله من جهة الألوهية . وكانت نتيجة المعركة أن أصبحت الكنيسة الشرقية تفسر مذهبها طبقاً لفلسفة الاسكندرية ، وتبعها الجزء الأعظم من أنصار الكنيسة الغربية ، ومع ذلك فقد بقي الغوط في ايطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا على صلتهم بالآراء الأريوسية ، حتى ظهر « أبوليناريوس » في النصف الثاني من القرن الرابع ، فعاود إعلان هذه الآراء ، ونسب الى المسيح جسماً إنسانياً ، وكان ينكر عليه النفس العاقلة وإن كان قد نسب اليه الاتصاف بالكلمة الإلهية أو العقل الإلهي ، وجعل المسيح يتوسط بين الانسانية والإلهية بأن ركّبه من جزء إلهي وجزئين إنسانيين .

وكانت مدرسة إنطاكية قد استطاعت خلال هذه الفترة أن تخرّج جماعة من

المفكرين المسيحيين ، الذين كانوا قد اقتنعوا بآرائها . وكانت هذه المدرسة لا تميل الى الصوفية المسيحية ، وتُغلِّب العنصر الانسانيّ في المسيح على العنصر الإلهي، وتكلم علماؤها عن الابن الذي تولّد عن الآب كأنه قد سبق الابن كما تسبق العلةُ المعلول ، وأن الابن لهذا يكون أقلّ خلوداً من الآب ، وليس في الخلود درجات لأن ذلك يجعل الله قابلاً للتغيُّر : لأنه كان بمفرده في فترة من فترات الخلود ثم أصبح أباً ، والعلة الأولى أو الإله الحقُّ عند الفلاسفة غير قابل لأدنى تغيير ، واهتموا بالمسيح من الناحية التاريخية ، فلما شرحوا الانجيل لم يُحمِّلوا كلماته أكثر مما تحتمله، ورأوا في صلب المسيح النهاية المقدورة لرجل ، ولم يروا فيها أنها وسيلة للخلاص من الخطيئة .

وقد ظهرت آراء مدرسة إنطاكية مرّة أخرى بشكل عملي في النصف الأوّل من القرن الخامس ، أي بعد قيام آريوس بقرن تقريباً ، حينما عُيِّن يوحنا أسقفاً على إنطاكية سنة ٤٢٩ م . وعُيِّن نسطوريوس أحد أصحاب يوحنا أسقفاً على القسطنطينية في نفس العام . فقد خطب نسطوريوس عقب توليته خطبة قال فيها: إن يسوع إنسان ، وإن تجسُّم المسيح عبارة عن مصاحبة بين الكلمة الأبدية والمسيح الإنسانيّ ، وإن مريم أم المسيح ولا يصح لذلك أن تُسمّى « والدة الله » . فأغضبت هذه التعاليم عدداً كبيراً من الأساقفة والقسس لاسيما في أوروبا ومصر .. وكان أشد الأساقفة سخطاً عليه كيرلّس أسقفُ الاسكندرية الذي نشر اثنا عشر فصلاً سماها لعنات ، لعن فيها مذهب نسطوريوس ، وحمل فيها على نسطوريوس نفسه وعلى كل المدرسة الانطاكية ، ووقف يوحنا أسقفُ أنطاكية يناصر نسطوريوس فردّ على اللعنات الاثنتي عشرة التي نشرها كيرلّس وحقّرها أشد تحقير

واشتدت المناقشة بين يوحنا الانطاكي وبين كيرلّس الاسكندري حتى دعى تيودوسيوس قيصر القسطنطينية في آخر عام ٤٣٠ م . أساقفة مملكته من كلا الحزبين الى مجمع عقد في افيزوس بالأناضول في عيد فصح سنة ٤٣١ وبكّر كيرلّس وأصحابه في الحضور الى المجمع قبل خصمه يوحنا ، وقد أفاده هذا التبكير فاستطاع أن يحمل المجمع على رفض مذهب نسطوريوس قبل أن يصل صاحبه يوحنا . فلما وصل يوحنا مع أصحابه غضب عند ما علم بما حدث ، وعقد هو وأصحابه مجمعاً مستقلاً في افيزوس جرّدوا فيه كيرلّس وأصحابه من رتبهم الكنسية .

وفع كل ذلك ولمّا يصل مندوبو البابا وأسقف روما، الذين كانت لهم رئاسة المجمع، فلما وصلوا شايعوا كيرلس وأقرّوه على رأيه ورفضوا مذهب يوحنا وأصحابه .

ولما انتهى خبر ما وقع في افيزوس الى القيصر تيودوسيوس غضب، وبعث مندوباً بمرسوم يعزل به كيرلس ونسطوريوس . ثم أقيم على القسطنطينية أسقفٌ اسمه مكسيميانوس خلفاً لنسطوريوس ، فظهر أنه من أصحاب كيرلّس . وحاول القيصر أن يصلح بين يوحنا وبين كيرلّس فلم ينجح لأن كيرلّس اشترط لذلك عزل نسطوريوس ، والاعتراف بمكسيميانوس أسقفاً على القسطنطينية . ولم يتمّ الصلح بينهما إلاّ في سنة ٤٣٣ على يد الأسقف أقاقيوس أسقف مدينة بيرا إحدى مدن سوريا . وكان بولس أسقف حمص — وهو أكبر أساقفة سوريا سنّاً — هو رسول يوحنا الى كيرلس للاتفاق معه على مسائل الخلاف ، وأرسل معه رسالة تشتمل على نصوص الاتفاق .

وفي نفس ذلك الوقت كان النساطرة قد ازدادوا اعتقاداً بأن معارضيهم قد حادوا عن المنطق : إذ فرضوا أن النفس العاقلة والكلمة قد اندمجتا في المسيح أو اتحدتا معاً . فنبذوا الكنيسة الرسمية وكوّنوا كنيسة لا تتعارض مع هراطقة افزوس . ولكن الدولة كانت تؤيد الكنيسة الرسمية . فأخذ النساطرة يلقون مختلف أنواع الاضطهاد ، وبخاصة في أنطاكية والأقليم الذي كان يميل الى الثقافة اليونانية في سوريا ، واعتُبر النساطرة فرقة آبقة ، ولم تجد النسطورية لها مجالاً إلاّ بين المسيحيين الذين يميلون الى الثقافة السريانية .

وبعد ما يقرب من نصف قرن من إنشاء مدرسة أنطاكية أي حوالي سنة ٣٢٠ أسّست مدرسة نصيبين الحديثة في وسط لغتُه السريانية ، ولهذا كانت الدراسة فيها باللغة السريانية فوُضعت تراجم سريانية للكتب اللاهوتية التي كانت تدرس في أنطاكية . وكانت تُدرس فيها اللغة اليونانية أيضاً ، وبذلك أصبح المسيحيون الذين يتكلمون السريانية على اتصال بالحياة الكنسية العامة .

ولكن مدرسة نصيبين لم تُعمّر طويلاً ، وإنما اضطرت الى الانتقال الى الرّها سنة ٣٦٣ حينما سُلّمت مدينة نصيبين للفرس تنفيذاً لشرط الهدنة بعد الحرب الطائشة التي بدأها يوليانوس ، وكذلك نزح رجال كنيسة نصيبين الى الرّها ، وافتتحوا بها

مدرسة سنة ٣٧٣ . وبهذا أصبحت الرُّها مركز الكنيسة غير الرسمية للمتكلمين بالسريانية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية . وجمعت الرُّها شمل أولئك الذين لم يوافقوا على قرارات مجمع افزوس ، ولهذا أغلقها الامبراطور زينون سنة ٤٣٩ بحجة أنها ذات صبغة نسطورية قوية . فهاجر النساطرة وعلى رأسهم برصوما أحد تلاميذ إباس وأكبر أعلام الرُّها ، وارتحلوا عبر الحدود الفارسية . وتمكن برصوما من إقناع « فيروز » امبراطور الفرس بأن الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية كنيسةٌ يونانية ؛ وأن النساطرة قد هجروا الامبراطورية البيزنطية لسوء المعاملة التي لاقوها . ولهذا الاعتبار قوبل النساطرة بالترحاب في بلاد الفرس ، وبقوا مخلصين للعرش الفارسي في الحروب التي قامت بعد ذلك مع الامبراطورية الرومانية . وأعاد النساطرة فتح مدرسة نصيبين ، فأصبحت مركز الحركة النسطورية وخلعت على المسيحية مسحةً شرقية ، وانتشرت البعثات النسطورية تدريجيًّا في كل وسط آسيا وجنوبها ناحية البلاد العربية . والراجح أن المسيحيين الذين كانوا في الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام كانوا من النساطرة .

أما اضطهاد الدولة البيزنطية للنساطرة فلعلنا نلحظه في قصة أوطيخي (اوتيخيوس) ، الذي كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، والذي أعلن سنة ٤٤٤ م . أن الابن الأزليّ لم يأخذ من مريم شيئاً ، ولكنه استحال وتغيَّر وصار لحماً ودماً وجازَ في مريم من غير أن يأخذ منها شيئاً . فلما بلغت مقالته الى رئيسه « فلاڤيانوس » أسقف القسطنطينية عزله ؛ فالتجأ أوطيخي الى ديوسقوروس الذي خَلَفَ كيرلُّس على كرسي الاسكندرية ، فأعاده وحرَّض الامبراطور تيودوسيوس الثاني على عقد مجمع يُفرَض عليه محو النسطورية محواً

واجتمع المجمع في افيزوس مرةً ثانية في أغسطس سنة ٤٤٩ وأفلح ديوسقوروس في أن تكون الكثرة في هذا المجمع الى جانبه . وانتهى المجمع الى إعلان براءة أوطيخي من تهمة الهرطقة وإعادته الى مركزه وعُزِل فلاڤيانوس وعدد غيره من الأساقفة وأُهين المندوبون الرومان وغيرهم ممن قاموا بالمعارضة في المجمع . وسُمِّي هذا المجمع « بالمجمع الطمث » .

ورفض الامبراطور ليو الأول أن يعترف بالمجمع وأوقف ديوسقوروس وطاب عقد

مجمع كبير . ونرى من ذلك أن ديوسقوروس فقد بوفاة تيودوسيوس الثاني أكبر معين له .

ومع أن نسطوريوس قد عُزِل ، فإن الكنيسة السريانية قد وجدت نفسها أمام مشكلة ، فقد كان الاعتراض حقًّا : فإنه اذا كانت الكلمة والنفس العاقلة في المسيح قد اندمجتا معاً لدرجةٍ أن النفس العاقلة أو الروح قد تلاشت في مصدرها ، فإن الكلمة قد سكنت جسداً حيوانيًّا فتلاشت إنسانيةُ المسيح كلها . ولهذا شعرت الكنيسة في قرارة نفسها بأن مقالة الدين لا تتفق والمنهج العلمي الصحيح ، أو على الأقل لا تتفق مع العلم الذي كان معروفاً في ذلك الحين . وكان أعداء الكنيسة هم المتحمسين للعلم الذين يطبّقون مناهجه .

وظهرت معارضة أخرى أيّد أصحابها فكرة الاتحاد بين الكلمة والنفس العاقلة في المسيح . وقالوا إنه بهذا الاتحاد بينهما يحفظ ناسوت المسيح كاملاً كما يحفظ لاهوته كاملاً ، ويكون الاتحاد بمثابة شيء لا ينفصل. وبهذا تحرزوا من الفكرة النسطورية .

كانت هذه الفكرة ، وهرطقة أوطيخي وبعض ما دار في مجمع افزوس الثاني الذي عقد سنة ٤٤٩ م . سبباً في ازدياد الرغبة الى عقد مجمع مسكوني جديد ، وهي الرغبة التي كان يتجاهل وجودها تيودوسيوس الثاني الأوطيخي النزعة ، والتي عجل خلفه مرقيان بتحقيقها . فاجتمع في كلقدونية في الثامن من أكتوبر سنة ٤٥١ م تحقيقاً للرغبة الأمبراطورية ما بين خمسمائة وستمائة كلهم من الأساقفة الشرقيين ، عدا مندوبين من الرومان واثنين من أساقفة افريقية . وطلب أسقفُ روما أن تكون رئاسة المجمع لمندوبيه ، وأصرّ على وجوب بطلان كل ما لا يوافقون عليه . وكانت الجلسة الأولى صاخبة عنيفة ، وكانت العبارات البذيئة تقذف خلالها هنا وهناك . وعرضت نتائج مجمع افزوس الثاني على بساط البحث فاستبعدت جميعها ، وانتهى الأمر الى عزل بطلها ديوسقوروس في الجلسة الثالثة .

وقد طلب الأمبراطور الى المجمع أن يرسم حدود العقيدة الصحيحة . ولكن المجمع لم يشأ أن يصدر تحديداً جديداً ، وإنما اكتفى بتأكيد ما صدرعن مجمع نيقية والقسطنطينية خاصًّا بالعقيدة ، والتحديد الذي وضعه مجمع أفزوس الأول الذي عقد سنة ٤٣١ ، مع قبول الوضع الذي جاء في كتاب ليو الأول الى فلافيانوس خاصًّا بطبيعة المسيح ، كما رفض

كلاًّ من عقيدتي النسطورية والاوطيخية . وانتهى الى الاعتقاد بأن للمسيح طبيعتين : كل منهما كاملة في ذاتها متميزة عن صاحبتها ، وهما مع ذلك متحدتان في شخص واحد هو في وقت واحد إلـه وإنسان .

وقد تبعت الكنيسة المصرية عقيدة أصحاب الاتحاد أو أصحاب الطبيعة الواحدة ، الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم اليعاقبة ، نسبةً الى يعقوب البردعي ، وكان لهم في سوريا أتباع كثيرون . وكانوا كالنساطرة موضع اضطهاد الامبراطور وكنيسة الدولة ، ولكنهم لم يهجروا الامبراطورية البيزنطية ، بل بقوا داخل حدودها كتلة هامَّة ولكنها ساخطة أشد السخط . وكانوا كالنساطرة يميلون الى ترك لغة مضطهديهم ، فاستعملوا اللغتين القبطية في مصر والسريانية في سوريا.

والى جانب هذه المدارس الثلاث كانت هناك مدارس أخرى أثرت الى حدٍّ ما في هذا النزاع تأثيراً كان غير مباشر في بعض الأحوال ، منها :

١ — المدرسة التي أنشأها القديس أبـا في سلوقيا سنة ٥٥٠ وهو من المتحولين عن الزرادشتية الى المسيحية النسطورية ، وقد أنشأ هذه المدرسة حين كان جاثليقاً على النساطرة وجعلها على نمط مدرسة نصيبين .

٢ — المدرسة الزرادشتية التي أنشأها كسرى أنو شروان امبراطور فارس في جنديسابور بخوزستان ، وكان يعمل فيها عدد من فلاسفة اليونان الذين هاجروا الى فارس حينما أغلق يوستنيان مدارس أثينا ، وكذلك عدد من أطباء النساطرة ، ومن بين من نشأوا في هذه المدرسة الحارث بن كلدة وابنه النضر الذي أورد ابن سينا اسمه في القانون الخامس

٣ — مدرسة حرّان الوثنية ، ونحن لا نكاد نعرف عن تاريخ تأسيسها شيئاً وكل ما نعرفه أن حرّان كانت مركزاً للتأثير اليوناني منذ عصر الاسكندر . ثم أصبحت مأوى للديانة اليونانيــة القديمة عند ما أصبح العالم اليوناني كله مسيحيّــا . ومع أنه يظهر أن حرّان قد ورثت شيئاً عن الديانة البابلية القديمة التي بعثت أخيراً في القرون الأولى للمسيحية فقد طغى على ذلك تقدم الوثنية بعد أن نقحتها الإفلاطونية الحديثة .

كـتّـاب السريان

في القرن الخامس

كانت المنازعات التي قامت بين المسيحيين حول طبيعة المسيح ومشيئته سبباً في ازدهار الأدب السرياني في هذا العصر ، وظهور أجود ما عرفه السريان من آدابهم ، ونستطيع أن نقول إن العصر الذهبي للأدب السرياني يبدأ منذ انقسم المسيحيون الى جماعتين، تنسب إحداهما للمسيح طبيعتين ، وتنسب له الأخرى طبيعة واحدة . وعاد أصحاب الطبيعة الواحدة فانقسموا الى قسمين : أصحاب الطبيعة الواحدة والملكية . والملكية هم أصحاب الكنيسة الرسمية . ويلاحظ مع ذلك أن هناك حدًّا فاصلاً في السريانية بين أصحاب الطبيعة الواحدة في الغرب وأصحاب الطبيعتين في الشرق : فقد اتخذ كل جماعة منهم لهجة تختلف عن لهجة الجماعة الأخرى ، ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة الموقع الجغرافي ؛ ولكن الأرجح أن ما كان بينهما من نزاع على العقيدة قد زهّد كل واحد منهما فيما كان عند الآخر ، فاستعمل كل منهما حروفاً مختلفة في الكتابة ، ونظاماً متبايناً للحركات .

ومنذ بداية القرن الخامس يبدأ انقسام كتّاب السريان الى جماعتين تناصر كل جماعة منهما مذهباً مَن المذهبين المسيحيين الرئيسيين ، ولذلك فإننا سنفرد للحديث عن الكتّاب في كل قرن من القرون التالية قسماً خاصًّا ، فنبدأ عادةً بالحديثَ عن كتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة ثم ننتقل الى الحديث عن كُتّاب أصحاب الطبيعتين أو النساطرة .

ربّولا

كان ربولا هو أول من ظهر من كُتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة في هذا القرن . وُلد في قنسرين [1] ، وكان أبوه كاهن الأصنام فيها ؛ ويقولون إن يوليانوس قد ارتدَّ عن المسيحية الى الوثنية على يديه ، حينما مَرَّ بقنّسرين عند خروجه لحرب الفرس . وكانت أمه مسيحية ، فأخذت تحبّب إليه دينها ، ثمّ زوّجته من مسيحية .

---

(١) قنسرين اسم سرياني مركب من كلمتين (قن + نسرين) ومعناه عش النسور . ومكانها الآن خراب تقوم عليه قرية بسيطة تسمى بالعيص . وقد زعموا أنها سميت كذلك لأن قبر عيسى عليه السلام يقع في جانبها .

درس العلوم اليونانية ، ودخل سلك الوظائف حتى وصل الى وظيفة رئيسية ؛ وكانت أمه وزوجه مثابرتين على إغرائه باعتناق المسيحية ، يعاونهما في ذلك أبراهام راهب دير مرقيانوس القريب من قنسرين . وأخيراً تعمّد على يدي أوسابيوس أسقف قنسرين ، وأقاقيوس أسقف حلب ، وصلى في قداس استشهاد القديسين كوسماس ودميانوس في حلب. ثمّ أراد أن يؤكد ايمانه فسافر الى فلسطين حاجًّا ليتعمد في نهر الأردن . فلما عاد أراد أن يأخذ نفسه بتعاليم الدين الجديد ، فعمل بقول الانجيل « اترك مالك واتبعني » فترك زوجته وأولاده ، وأعطى أمواله للفقراء ، ودخل دير أبراهام بالقرب من قنسرين ، وبقي به حتى مات ديوجين أسقف الرُّها في أوائل سنة ٤١١ فاختير خلفاً له سنة ٤١٢ فبدأ حياته كأسقف بمحاربة الهراطقة القدماء الذين حاربهم افريم قبله ؛ والذين كان لا يزال لهم مشايعون في الرُّها .

وقد اشترك ربولا في النزاع الديني الذي كان قائماً في أيامه ، فحضر مجمع افزوس الأول سنة ٤٣١ وكان في أول أمره الى جانب يوحنا الانطاكي مشايعاً لنسطوريوس ضد كيرلس . ولكنه عاد فانضمّ الى الجانب الآخر ، وأصبح من أشد المتحمسين لعقيدة كيرلس وأصبح من أقرب أصدقائه ، ولذلك اعتبره أتباع نسطوريوس منذ ذلك الحين معارضاً قويا . فقد هاجم نسطوريوس في القسطنطينية في خطاب مطوّل ألقاه أمام تيودوسيوس الثاني . وقد بلغت به الخصومة حدًّا دفعه الى احراق كتابات تيودور المفزوستي ، وقد لقبه إباس في خطابه الى ماري بـ «طاغية الرُّها» . وكان أندرو الشمشاطي يشكو من اضطهاد ربولا للنساطرة مرّ الشكوى في خطاب بعث به الى الاسكندر أسقف هيرابوليس ومات في أغسطس سنة ٤٣٥ .

وكان يجيد اللغتين اليونانية والسريانية فترجم عن اليونانية عدداً من الكتابات ، أهمها ترجمة العهد الجديد وهي الترجمة المعروفة باسم « پشيطتا » وكذلك ترجم الى السريانية رسالة كيرلس التي وجهها الى القيصر تيودوسيوس عن نسخة أرسلها اليه كيرلس نفسه ، وترجم لعنات كيرلس الاثنتي عشرة وأضاف اليها شرحاً ومقدمة دفاعاً عنها . والخطبة التي ألقاها هو في القسطنطينية يهاجم فيها نسطوريوس ويعدد فيها أخطاءه .

وقد بقي لنا من كتاباته السريانية : ثلاث مجموعات من الرسائل والقوانين والأوامر الموجهة الى الرهبان ، عنوان الأولى « قوانين » ، وعنوان الثانية « تنبيهات خاصة بالرهبان » وعنوان الثالثة « أوامر وتنبيهات الى رجال الدين » . وموعظة عن إخراج الصدقات على أرواح الموتى ، ووقف الاحتفال بالأعياد في مناسبات ذكراهم ، وعدد من التراتيل الطقسية اليعقوبية مقسمة على نظام الأنغام الكنسية الثمانية .

ويذكر كاتب سيرة ربولا أن ربولا كتب باللغة اليونانية عدداً من الميامر و٤٦ رسالة موجهة الى القسس والأباطرة والأشراف والرهبان ، وانه يعتزم ترجمتها الى اللغة السريانية . ومن هذه الرسائل رسالته الى اندرو الشمشاطي يهدم فيها رسالتـه في الطعن على لعنات كيرلس الاثنتي عشرة . ورسالته الى كيرلس بشأن تيودور المفزوستي . وكتابه الى جمليانوس أسقف فارين عن الرهبان والجماعـة الذين يسيئون استعمال الأسرار المقدسة فيتناولون القربان كأنه طعـام عادي . وقد نشرت هذه الرسالة الأخيرة في الفصل الرابع من الكتاب العاشر من تاريخ زكريا . وفي تاريخ ديونسيوس التلمحري . وله كذلك كتاب باليونانية عنوانه « أنت أيها المسيح » .

سيرة ربولا

وبعد وفاة ربولا بوقت قصير قام مؤلف رهاوي مجهول يرجح أنه أحد شمامسة اسقفيته بتسجيل سيرة ربولا في رسالة تعد من روائع الأدب السرياني أبرز فيها صورة واضحة تمثل شخصية ربولا وما عرف عنه من عطف على المساكين وانكار للذات وحياة كلها حرمان وتقشف .

سيرة الانسان التقي

وفي ذلك العصر أيضاً ظهرت سيرة سريانية لمؤلف مجهول بعنوان « رجل الله » أو « الانسان التقي » . وقد لقيت هذه السيرة من الذيوع والانتشار ما لم تلقه سيرة قديس آخر. فقد نقلت هذه السيرة عن السريانية — وهي اللغة الأصلية التي أُلـفت فيها — الى اليونانية واللاتينية ، ثم انتقلت بعد ذلك الى جميع الآداب في أوروبا المسيحية ، ومن المرجح أيضاً أنها نقلت الى الأرمنية والعربية والحبشية .

وملخص هذه السيرة : أنه كان في روما شاب من أبناء العظماء اسمه « الكسيوس » وأراد أبوه أن يُزَوّجه ، فلما كان يوم العرس هرب الشاب من عروسه ومن بيت أبيه وسافر الى مدينة الرُّها ، وبقي فيها زاهداً يصلي ويعيش على ما يجود به عليه الخيِّرون ، يتبلَّغ منه بكسرة خبز وقليل من البقل ، ثم ينفق ما يتبقى منه بعد ذلك على غيره من المعوزين .

وكان ذلك الرجل يصرف وقته كله في الكنيسة لا يكاد يبرحها ، فعرف فيه خادم الكنيسة رجلاً زاهداً صالحاً تقيّاً لم يشهد في حياته رجلاً في مثل سيرته ، فأنِس اليه ، وحُبِّب الى نفسه مراقبته ومتابعة حركاته . ثم إن الرجل مات ذات يوم ودُفن ، فأسرع خادم الكنيسة وأخبر أسقف المدينة — وكان ذلك الأسقف هو ربّولا — وقصّ عليه كل ما عرفه من أمره ، وكان صيته قد سبقه الى ربولا ، وأراد ربولا أن يحتفل بتشييع جثمانه بما يليق برجل تقي ورع ، فتوجه الى المقابر لاستخراجها للاحتفال بتشييعها . فلما فتح قبره ، لم يجد فيه إلاَّ الخِرَق التي كانت تكسو ذلك الانسان التقي .

هذا هو ملخص السيرة في صيغتها السريانية ، ومع أن الحقائق التاريخية تصطبغ عادة ، بالصبغة القصصية متى بلغت أفواه العامّة فتُطعّم بالكثير من الأشياء العجيبة — وبخاصة اذا كانت هذه الحقائق سرداً لحياة قديس — فإن هذه السيرة لم تخضع لهذه القاعدة ، وكل ما فيها من الأشياء العجيبة هو الجزء الخاص بزيارة القبر واختفاء الجثة وبقاء الخرق التي كانت تكسو ذلك الانسان التقي ، وأغلب الظن أن هذه الفقرة قد زيدت بعد وضع السيرة نتيجة لانتقالها الى الآداب الأوروبية .

وكان من أثر انتشار السيرة هذا الانتشار الكبير أن الزيادة لم تقف عند هذا الحد ، فإن العامّة تحب أن تسمع العجائب والمعجزات ، وكان لا بدَّ من إشباع نَهَمِهم ، وإطلاعهم على ما كان من أمر ذلك القديس الذي اختفت جثته من قبره ، فكان لا بدَّ إذاً من إعادة سبك السيرة ليضاف اليها قسم آخر مجمله : أن ذلك الإنسان التقي قد بُعِث بعد ذلك ، فلما قام من قبره عاد الى مدينة روما ثانية ، وعمل مع العبيد في دار أبيه ، ولكن أباه لم يعرفه إلاَّ بعد موته ثانية .

ومعروف ان السيرة بقسميها تمَّ نَسْخها في القرن السادس على الأرجح، أي في عصر قريب من عصر أبطالها .

ولعلَّ أوضح دليل على أن القسم الاول منها هو الأصل أن المخطوطات القديمة الباقية تخلو من القسم الأخير وتنتهي بوفاة الكسيوس في الرُّها .

ثم ان القسم الأول سرياني أصلي في فكرته ، كاملٌ قائمٌ بذاته بينما القسم الثاني من أصل أجنبي ، وظاهر انه لم يلحق بالسيرة إلاّ في وقت متأخر ، ولعلَّ ذلك نتيجة للخلط بين هذه السيرة وسيرة قديس آخر .

وأقدم مخطوطات هذه السيرة ثلاث ، واذا عرفنا ان تاريخ نسخها يرجع الى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس وعلمنا أن ربولا يوصف فيها بالطيِّب مرة والقديس أخرى ، لرجحنا أن هذه السيرة قد كتبت بعد وفاة ربولا سنة ٤٣٥ وأنها ترجع على الأرجح الى الربع الثالث من القرن الخامس . أما القسم الثاني فيغلب على الظن أنه كتب في وقت متأخر جداً ، يدل على ذلك أن نسخ المخطوطات التي تشتمل عليه يرجع أقدمها الى القرن التاسع ، والأمر الذي لا شك فيه أن هـذا القسم لم يكتب إلاّ بعد وفاة جميع من شاهدوا وقائع هذه السيرة بزمن طويل أي حوالي أواخر القرن الثامن .

بالَيْ

اسم لشاعر لا نكاد نعرف شيئاً عن شخصيته أو تاريخ حياته ولكنه كان يمثل الشعر الكنسي السرياني القديم بعد إفريم ، وكل ما نعرفه عنه مستمد مما جاء في أحد مداريشه ومما رواه ابن العبري في قطعة ذكرها السمعاني في كتاب المكتبة الشرقية انه رسم أسقفا (خور أفسقفوس) على منطقة في أبرشية حلب بعد زمان إفريم وقبل مجمع أفزوس الأول سنة ٤٣١ م .

أما عن أعماله الأدبية فقد بقى لنا من القصائد الثابتة النسبة اليه من كتابات القرن السادس ، خمسة مداريش في ذكرى وفاة أقاقيوس أسقف حلب الذي يقال إنه كان صاحب الفضل الأكبر في تحويل ربولا عن الوثنيـة الى المسيحية . ويقال إنَّـه عُـمِّـر مائة سنة وعشر وتوفى سنة ٤٣٢ م

ومدراش سادس في تدشين كنيسة جديدة بمدينة قنسرين . ونستطيع أن نستنتج من مداريشه أنها كتبت في القرن الخامس ، وكان مسرحها في الشمال الغربي من سوريا بين الفرات وشاطىء البحر المتوسط . وله ميامر على المقاطع الخمسة ، منها قصيدة عن القديسين قوستينوس ومترودورا ، وأخرى عن القديس جرجس ، ومرثية في مقتل أورياس ، وقصيدة في رثاء هارون أخي موسى على وزن المقاطع الأربعة .

أما من الناحية الطقسية فاسمه يُقرن بالسلالم والبواعيث في الشعر ذى المقاطع الخمسة ، وينسب إليه نشيد ينشده اليعاقبة والموارنة في صلاة الليل عنوانه « راحم الخطاة » ، ويضاف هذا النشيد الى افريم أيضاً . ويلاحظ في الأشعار التي تنسب أحياناً الى بالي وأحياناً إلى افريم ، أن المخطوطات المتأخرة تنسبها الى بالي ، ومنها قصيدة كبيرة في تاريخ يوسف الصديق مكونة من ١٢ ميمرا تعدّ من أروع ما كتب في الشعر السرياني .

سمعان العمودي

كان سمعان هذا أول رهبان الأعمدة ولهذا لُقّب بالعمودي ، وقد ذاعت شهرته عند أصحاب الطبيعة الواحدة من المسيحيين في المشرق. ولد سنة ٣٩٠ م . بقرية الصيص بالقرب من مدينة نيقوبوليس على حدود سوريا الشمالية [١]

وكان أبوه — فيما يقولون — من سراة القرويين المسيحيين . كان في صغره يرعى غنم أبيه فاعتاد الوحدة والصمت منذ الصغر ، وترعرع قوياً جميل الطلعة ولكنه كان قصيراً . وكان أثناء رعيه يجمع أنواع البخور ويحرقها قرباناً ، ولكنه كان لا يدري لمن يقربها . وربما كان يفعل ذلك منقاداً الى عادة وثنية قديمة دون أن يشعر . لأنه الى أن تعمد لم يكن ذا ثقافة دينية . ويقولون إن ذهنه انصرف الى الناحية الدينية لأول مرة عند ما ذهب مع أبويه مرة الى كنيسة قريته فسمع مَثَلَ الانجيل الذي يتحدث عن سعادة الفقراء والمحرومين فتأثر به كثيراً . ويقولون إنه ظهرت له بعد ذلك رؤى دفعته الى ترك العالم والسير حثيثاً في طريق التنسك . وتسجل له السيرة السريانية بعض العجائب في هذه المرحلة الأولى من حياته نورد هنا واحدة منها لنصوّر للقارىء هذا النوع من العجائب ، فيروي

---

(١) اسمها الآن اصلاحية وهي بين سوريا وقليقية وهي غير الصيص المعروفة الآن في اقليم قليقية

صاحب السيرة أن سمعان اشتهى السمك بعد صيام دام عشرين يوماً ، فذهب الى ابنة سماك كان يصيد في بحيرة قريبة وطلب اليها أن تبيعه خمسة ارطال من السمك . تقول السيرة إن ابنة السماك أقسمت له كذباً أن ليس عندهم سمك فانصرف سمعان ، ولكن قوة خفية استولت على السمك وكذلك على الفتاة ، فأخذ السمك يتقلب زاحفاً خلف سمعان في الطريق والبنت تعدو من خلفه ، فلما رأى سمعان ذلك صرف تلك القوة التي استولت على السمك ، وهدّأ من روع الفتاة ووعظها مؤنباً ، ثم تابع سيره فوجد في طريقه سمكة كبيرة بارك الله فيها فأخذها وبقي يأكل منها ثلاثة أيام هو وبعض الرعاة واثنان من الجند.

ودخل سمعان صغيراً دير يوزيبونا في «تل عدا» في منطقة أنطاكية وأهدى ماله ونصيبه من تركة عمة له الى هذا الدير وغيره من الأديرة ، ومكث سمعان في هذا الدير نحواً من عشر سنوات فلما بلغ الثلاثين من عمره طرده رهبان هذا الدير لمبالغته في التقشف في معيشته فلم يشأ أن يدخل ديراً آخر ورحل الى قرية تل نيشي[1] فربط رجله اليمنى بسلسلة طويلة الى حجر كبير ، وكان لا غطاء له وأقام فوق هذا الحجر منذ سنة ٤١٢ الى أن رجاه مليطيوس الانطاكي فك هذا القيد . فعاش بعد ذلك على عمود في معبد الآلهة في منبج . وهو عمود مرتفع كان يتسلقه رجل مرتين في العام ويمكث مع الآلهة سبعة أيام . ولكن هذه العادة كانت قد اندثرت تماماً قبل عهد سمعان . والراجح أن سمعان كان يجهل كل شيء عن هذه العادة ، بل إن جميع المثقفين في عصره كانوا ينظرون الى فكرة الأعمدة على أنها فكرة جديدة ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يدللوا أن فكرة عمود منبج كانت مثلا احتذاه قديسو الأعمدة وعلى رأسهم سمعان . ولكننا لا نستطيع أن نجد أي رابط تاريخي بينهما .

أقام سمعان بعد ذلك ثلاثة أشهر على أحجار باب سور المعبد ثم بنى له عموداً ليقيم فوقه ارتفاعه ست أذرع لكي يمكنه أن يخاطب الناس بسهولة . وكان يتحمل في الإقامة فوقه حرارة الشمس وبرودة الجوّ ، ومع أنه كان في ذلك نوع من أنواع التعذيب الجثماني إلاّ أنه كان في نفس الوقت يرفعه عن سكان الأرض . وقد تساءل الناس قديماً عما يقصده سمعان من الإقامة فوق عموده ، وكان بعضهم يهزأ من هذه الحماقة ، ولم

---

(١) وتقع بين انطاكية وحلب وتبعد مسيرة يوم عن أنطاكية

يتمكن المدافعون عنه إلاّ أن يقولوا إنه فعل ذلك لأن الله أراده . ولكن الراجح أن هذا الوضع الشاذ لسمعان قد أثر في نفوس الكثيرين ، فإنه لو أقام على الأرض كغيره من الناس لما بلغ هذه الشهرة التي بلغها. وقد بنى سمعان بعد ذلك ثلاثة أعمدة خلال سبعة أعوام كان كل واحد منها أكثر ارتفاعاً من سابقه ، حتى كان ارتفاع آخر عمود بناه ٢٠ متراً . وقد عاش فوق عموده الأخير ثلاثين عاماً دون أن يهبط الى الأرض ، والظاهر أن تلاميذه كانوا يحملون إليه جميع حاجياته من مأكل ومشرب وملبس إما بواسطة سُلَّم ، أو بواسطة قفة يدليها القديس يضع له فيها تلاميذه ما يحتاج إليه . وفوق هذا العمود كان القديس ينام ، ويصلي ، ويقوم بالتبشير لرد الكثيرين عن الوثنية الى النصرانية ، كما كان يشترك في السياسة الكنسية . وكان يستقبل الناس بعد الظهر فيخطب من يحضر منهم مُعلّماً ومعزّياً ومحذّراً ، ويفض ما يقوم بينهم من منازعات . ويكفي لكي نتصوّر قوّة احتمال سمعان أن نعلم أنه كان يسمع الناس كلامه من فوق هذا الارتفاع الشاهق ، وهذا يدل على أن صحته كانت قوية .

ويذكرون أنه كان لا يخاف السلطان . ويروي صاحب سيرته للتدليل على ذلك أن « اسكلپيودوتوس » عامل القيصر تيودوسيوس الثاني كان يحمل أمراً من القيصر بأن يُردّ الى اليهود الكنيس الذي أخذه المسيحيون منهم عنوةً وأقاموا فيه شعائرهم . وقد أثار ذلك المسيحيين ، ولم يتخيلوا أن يعطوا للذين صلبوا المسيح أماكن تقام فيها الطقوس المسيحية ، والتجأ الأساقفة الى سمعان فكتب خطاباً شديد اللهجة الى القيصر واضطرّ القيصر تيودوسيوس الى إلغاء الأمر ، وأرسل الى سمعان يعتذر له كتابةً ، وعزل اسكلپيودتوس صديق الوثنيين واليهود . ولكننا لا نذهب في أمر هذه القصة مذهب صاحب السيرة فقد كان أمر القيصر ينص على أن يُعوّض اليهود عن الكنيس الذي أخذه المسيحيون من اليهود وأقاموا فيه طقوسهم الدينية . وقد صدر هذا الأمر سنة ٤٢٣م في الوقت الذي لم يكن سمعان قد عُرف فيه بعدُ ، ولعله لم يلعب هذا الدور الذي تحكيه السيرة ، وهذا يدلنا على أن السيرة تريد أن تصوّر سمعان في صورة صاحب السلطان الكبير والقدرة الفائقة على حل المشاكل .

وكان سمعان يكاتب العظماء ، وينسب إليه في هذه الناحية أنه أرسل في أواخر حياته (سنة ٤٥٧ — ٤٥٨ م) موافقة كتابية الى القيصر ليو يوافق فيها على ما انتهى إليه مجمع كلقدونية الذي قرّر أن المسيح طبيعتين ، وأنه كتب في ذلك المعنى أيضاً الى باسيليوس بطرق أنطاكية ؛ ولكن الراجح أن السريان من أصحاب الطبيعة الواحدة — الذين يعدّون سمعان أحد قديسيهم — يجهلون تماماً مشاركته في مشايعة أصحاب مجمع كلقدونية . وينسب إليه أيضاً أنه كان يعارض تعاليم مجمع افزوس الذي عقد سنة ٤٣١ م. وأنه كتب خطاباً في ذلك الى يوحنا الأول بطرق أنطاكية ولذلك يعده النساطرة أحد قديسيهم . ومع أن هذه الرسائل قد وصلتنا في مخطوط يرجع الى حوالي القرن الثامن إلاّ أننا نظن أنها من وضع النساطرة فاننا نشك كثيراً أن سمعان قد فهم مسائل النزاع حول طبيعة المسيح التي عرضت على بساط البحث سواء في مجمع كلقدونية أو في مجمع أفزوس.

وكان لسمعان تأثير كبير على الأميّين الذين يسمعون عن أعماله ، وبخاصة على البدو من العرب الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، ولكن العدد الذي يروونه مبالغ فيه .

وبعد أن عاش سمعان ٦٥ عاماً في حياة الرهبنة ، قضى منها ٣٧ سنة فوق الأعمدة ، توفى في السبعين من عمره في يوم الأربعاء ٢ سبتمبر سنة ٤٥٩ م ونقلت جثته الى انطاكية ودفن في كنيسة قسطنطين . ويروون أن القيصر ليو أراد أن تُحمل جثته الى القسطنطينية لتدفن هناك ولكن أهل انطاكية لم يقبلوا ذلك ، وعملوا على بقائها في مدينتهم لكي تدفع عنهم شر الزلازل .

ويُعرف الموضع الذي بنى سمعان أعمدته فيه الآن باسم قلعة سمعان ، وبجانبها دير سمعان وهما بين انطاكية وحلب ، ولا يزال عموده الأخير قائماً حتى اليوم ، وقد أُقيمت حوله خمس كنائس ، كما أُقيمت كنيسة في المكان الذي عاش فيه سمعان على تل نيشى وصفها إفاجريوس في تاريخه ، ولا تزال أنقاضها باقية الى اليوم . وقد نسج كثير من الرهبان على منوال سمعان فعاشوا مثله فوق اعمدة ، ولم تبطل هذه العادة إلاّ منذ القرن السادس عشر .

وكانت لسمعان كتابات منتشرة ، كما كان يتلقى كثيراً من الرسائل وقد بقيت لنا نماذج منها بالسريانية لعلها صحيحة النسبة اليه ، منها نُظُم وتحذيرات كنسية موجهة الى رجال

الدين بمناسبة الزلزال الذي وقع في انطاكية سنة ٤٥٩م وقد بقيت لنا في مخطوط يرجع الى القرن السادس . ورسالة الى الأب يعقوب من كفر رحيما ، الى جانب الرسائل التي مرّ ذكرها من قبل . ولكن هل هذه الكتابات صحيحة النسبة الى سمعان ؟

ليس لدينا ما يدل على أن سمعان كان يعرف القراءة والكتابة ، ويرجح أنه كان أُمّيًّا وأنه كان يملي خطاباته على أحد تلاميذه ، وأن هذا التلميذ كان يقف على أعلى السُّلم حيث يقف الاخصاء ، ولهذا فإن ما نشر من رسائل سريانية لسمعان يحتاج الى التريث في الحكم عليها فهي إما محمولة عليه ، وإما أدخل فيها كثير من الاضافات على النص الأصلي . وتشتمل المكتبة العربية على عدد من الكتب تحمل اسم سمعان : فقد ذكر له أبو البركات بن كبر في قائمته كتاب المقالات الجامعة ويشتمل على ٣٦ ميمراً من أقوال القديس سمعان ، وكتاب أجوبة عن مسائل عدتها ٤١ مسألة و ١٥ قولاً . وفي مكتبة الفاتيكان كتاب أعمال القديس سمعان وترجمة حياته في ٢٨٩ صفحة .

ولسمعان سيرة بالسريانية كتبها مجهول إذ يظهر أن العادة كانت أن يتقرب التلاميذ الى الله بكتابة سِيَرَ أساتذتهم من القديسين تخليداً لاعمالهم ، والغالب أنهم كانوا يعتقدون أن عدم ذكر اسم الكاتب فيه شيء من إنكار الذات وذلك يزيد من ثوابه . أو لعلّ كتّاب هذه السير رأوا أن في نسبتها الى أنفسهم — وهم من غير الكتّاب المبرزين — حطًّا لقيمة السيرة ، ومضيعة للفائدة التي يرمون إليها من كتابتها وهي تمجيد المترجَم لهم وتعظيمهم . وتنسب هذه السيرة الى تيودوريت الكاتب والمؤرخ الكنسي أسقف قورا في شمال سوريا وهو معاصر لسمعان . وقد عرفه في حياته ومات قبل سمعان . وكلها تقريظ لهذا القديس ، وسرد لمعجزات وقصص تنسب اليه لا يكاد يقبلها العقل من ذلك قوله إنه إذا ذكر اسم سمعان توقف الغزال والجدي السريع عن الجري بقوته السحرية حتى يمكن صيدها . وهناك سيرة أخرى أطول من السابقة ، كتبت بعد موت سمعان بمدة قصيرة حوالي سنة ٤٧٢م وهي تكمل السيرة السابقة ، وتقوم على المبالغات أيضاً ، ولكنها على أي حال تصوّر لنا محيط التفكير في البيئة التي نشأت فيها . وفي نهاية هذه السيرة خطاب وجهه كوسماس قسيس قرية پانير الى سمعان العمودي كتبه على لسان رعاياه يمدونه فيه

باطاعة أوامره واتباع نظمه ، وقد استنتج السمعاني من وجود هذا الخطاب في آخر السيرة أن كوسماس هذا هو مؤلف هذه السيرة ، مع عدم وجود شيء يشير الى ذلك بل على العكس هناك ما يمكن أن يشكك في هذا الزعم فقد جاء في خاتمة الكتاب أن هذا المخطوط قد نسخ لسمعان بن ابولون، و بَرْ حاطر بن أُذان في ١٧ ابريل سنة ٥٢٧ م لبناء انطاكية أي سنة (٤٧٢ م) . أي بعد وفاة سمعان بسنوات قلائل ، ولهذا فقد ذكر إڤاجريوس في الجزء الأول من كتابه تاريخ الكنيسة أن هناك سيرة سريانية في دير تل نيشى لرجل العجائب يظهر أنها من عمل سمعان بن أبولون ، و بر حاطر بن أذان . وقد أخطأ السمعاني في فهم هذه النبذة الختامية أيضاً فافترض أن هذه السيرة قد أُلفت بناءً على طلب هذين الرجلين . وقد لقيت هذه السيرة رواجاً ، وتدل النصوص على أنه في مثل هذه الكتب الشعبية تظهر اختلافات وزيادات . وقد استعان إڤاجريوس بهذه السيرة .

ويوجد لسمعان — الى جانب هاتين السيرتين — سيرة أخرى باليونانية يقال إن كاتبها هو أنطونيوس تلميذ سمعان ، وفيها مخاطرات تنم على أن هذه ليست بالقديمة كما أراد لها كاتبها — أما أخبار سمعان المتأخرة فليست لها أية قيمة خاصة .

وقد نظم يعقوب السروجي قصيدة طويلة عدّد فيها مناقب سمعان العمودي .

اسحاق الانطاكي

كان اسحاق من نجوم الأدب السرياني ، وكان يعرف عادةً باسم عظيم أنطاكية واسحاق الكبير ، والسوري ، والناسك . وليس لدينا عن مطلع حياته إلاّ القليل ، ومع ذلك فان هذا القليل مضطرب : فهو من ضواحي آمد (ديار بكر) ذهب الى الرُّها في حداثته حيث تلقى العلم على زنوبيوس تلميذ افريم فيما يقول برشوشان الذي جمع شعره في القرن الحادي عشر . أو على افريم نفسه فيما يقول يعقوب الرُّهاوي الذي كان يشير اليه عادةً باسم اسحاق تلميذ افريم وتبعه على هذه التسمية كثير من الكتّاب . فقد ذكر يعقوب الرُّهاوي في ملاحظة نقلها عنه الأب مارتين أنه يجب التمييز بين ثلاثة يتسمى كل منهم باسم اسحاق ، وقد خلط الناس بينهم جميعاً .

الأول : اسحاق الأنطاكي تلميذ افريم الذي ذهب الى روما لكي يرى الكابيتول ،

والثاني : اسحاق الرُّهاوي الذي ظهر في أيام زينون (في أواخر القرن الخامس) والذي استوطن انطاكية .

والثالث : اسحاق الرُّهاوي أيضاً الذي ظهر في أوائل القرن السادس

والأمر الذي لا شك فيه أن يعقوب الرُّهاوي لم يدقق كثيراً عندما وصف اسحاق الانطاكي بأنه تلميذ افريم ، فان افريم قد توفي في يونيو سنة ٣٧٣ م ، ويجب لكي يتلقى اسحاق عليه العلم أن يكون قد وُلد في أواخر الربع الثاني أو أوائل الربع الثالث من القرن الرابع على الأكثر . فاذا علمنا بعد ذلك أن أكثر الذين بحثوا في أدب السريان يكادون يتفقون على ما رواه جنّاديوس من أن القصيدة التي قيلت عن تخريب الزلازل لأنطاكية سنة ٤٥٩م هي من نظم اسحاق الانطاكي ، وجب أن يكون اسحاق قد عاش حتى نيّف على قرن من الزمان بما يقرب من عشر سنوات ، وهي سن لا يعقل أن يخصب في نهايتها خيال شاعر بقصيدة كالتي نظمها اسحاق عن تخريب أنطاكية . وعلى ذلك فانه لا يعقل أن يكون اسحاق الأنطاكي هو تلميذ افريم الذي يتردد اسمه في سيرة افريم . بل إنه من المشكوك فيه كثيراً أن يكون اسحاق الانطاكي قد وُلد قبل وفاة افريم .

انتقل اسحاق من الرُّها الى انطاكية . والظاهر أنه قد طوّف في حداثته الى أبعد مما ذهب إليه كثير من مواطنيه إذ يروي زكريا البليغ في تاريخه أنه زار روما ومدناً أخرى . ويؤكد ذلك ما رواه ديونسيوس التلمّحري في التاريخ المنسوب اليه أنه نظم قصيدة عن الألعاب التي أقيمت في روما سنة ٤٠٤م احتفالاً بالعيد المئوي ، وقصيدة أخرى عن استيلاء ألاَريك ملك الغوط على روما وتخريبها سنة ٤١٠م

ولعلّ اسحاق قد وجد في روما من المتعة ما حبّب إليه أن يُطيل الوقوف بها ، إذ أنه لابدّ أن يكون قد أمضى في روما هذا الوقت فيما بين سنتي ٤٠٤م — تاريخ العيد المئوي — و٤١٠ م تاريخ استيلاء ألاريك على روما . أما العيد المئوي فالظاهر أنهم كانوا يحتفلون به عند بداية جيل جديد على اعتبار أن بداية الجيل هو نهاية جيل سابق بما مرّ فيه من شرور وكوارث ، وكان الاعتقاد السائد حينئذٍ أن الشرور واللعنات لا تتخطى عتبة قرن جديد ، ولهذا كان الناس يفرحون بابتداء كل قرن ، بل لقد كانوا إذا نزلت بهم محنة نادوا أحياناً ببدء جيل جديد اعتقاداً منهم بأن في طيّ صفحات الجيل القديم طيًّا لهذه المحنة التي نزلت بهم . وكان الاحتفال بهذا العيد احتفالاً دينيًّا له طقوسه وشعائره .

وقد احتفل في عصر الجمهورية الرومانية بمثل هذا النوع من أعياد التكفير سنة ٢٤٩ ق . م ، ١٤٦ ق . م . وكان المعنى الذي يرمز له هذا العيد هو أن القيصر أعطى

روما عهداً جديداً . ثمّ تعطّل الاحتفال بهذه الأعياد في عصر الثورة الى أن أعاد أغسطس قيصر الاحتفال به من وجهة نظر يونانية شرقيـة ، هي الاحتفال بتجديد العالم بعد أن حطمته الثورة . وقد احتفل به بعده دومتيان سنة ٨٩ م . وسبطيميوس سويروس سنة ٢٠٤ م . وهناك أعياد مئوية أخرى ترجع الى تأسيس روما . وقد أدخل البابا بونيفاز الثامن هذه الأعياد في الكنيسة سنة ١٣٠٠ م . ولا تزال قائمة الى اليوم في أعياد اليوبيل .

وقد عاد إسحاق من روما عن طريق القسطنطينية ، وفيها قبض عليه ولكنا لا نعرف سبب ذلك . ويقول يعقوب إنه عمل قساً في مدينته آمد ، وقال جِنّاديوس إنه رآه قسيساً لكنيسة أنطاكية . ولا يُعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق ، غير أن آخر ما يُعرف من كتاباته هو قصيدته في وصف ما أحدثه الزلزال الذي وقع في أنطاكية في ٤٥٩ م . والراجح أنه توفى قبل سنة ٤٦١م . ولهذا يرجح الباحثون أنه توفى سنة ٤٦٠ م .

وكان اسحاق شاعراً منتجاً أخصب أيام تيودسيوس الثاني (٤٠٨ — ٤٥٠) وكتاباته كثيرة متعددة النواحي وكانت كلها على وزن المقاطع السبعة ، جمع أكثرها البطرق اليعقوبي « يوحنا بن شوشان » في سفر واحد وعلق عليها ، بدأ بذلك في شيخوخته ، ومات سنة ١٠٧٣ قبل أن يتم جمعها . وقد أورد السمعاني في المكتبة الشرقية قائمة تشتمل على أكثر من مائة قصيدة من شعر اسحاق مبثوثة في المخطوطات المحفوظة بمكتبة الفاتيكان . وقد نشر « بيكلّ » ٣٧ منظومة من شعره ، ونشر « بدجان » ٢٤ قصيدة ، ونشر شابو والقرداحي واغناطيوس افرام الرحماني وغيرهم قسماً من الجزء الباقي من منظوماته ؛ ومن هذه القصائد واحدة عن « حب الدرس » ، ١٠٠ ميمر عن الصلب ، والسامرية على بئر يعقوب ، واضطهاد الصديقين ، ومقطوعات من ميامر الصلوات ، وفي الرد على اليهود ، وعن الأموات وقد أدخلها أصحاب الطبيعة الواحدة في طقوسهم الجنائزية . وله عدد من القصائد الطويلة المسرفة في الطول منها قصيدة عن الندم تشتمل على ١٩٢٩ بيتاً، وثانية عن ببغاء صاحت في شوارع انطاكيـة « قدوس الله » وعدد أبياتها ٢١٣٧ بيتاً ولكن طولها يدعو الى السأم.

ولاسحاق بعض قصائد وُضعت خطأً تحت اسم إفريم نشرها المستشرق « لامي » في كتابه عن إفريم منها قصيدة في « معارضة السحرة » وأخرى عن « الدينونة » وعلى العكس تنسب اليه قصيدة نشرها أوفربك . (Overbeck) عن صلب المسيح وهي من القطع التي وردت في قائمة السمعاني ولكن بيكلّ يميل الى نسبتها الى بَالَيْ أو قوريللونا .

وبعض شعر اسحاق ممتع الى حدٍّ ما لأنه يكشف عن عقيدة المؤلف الدينية ، فهو

يُعرِّض فيه بأخطاء نسطوريوس وأوطيخي . ولكن هذا النوع قليل في شعره ، فإنه لم يوجّه اليه عناية كبيرة ، ولكنه وجّه همّته الى الحضّ على التأدب ، وعيشة الصلاح ، ولوم المفسدين ، وتعنيف من لا خلاق لهم ، فقد كان يشعر في نفسه بأنه واعظ أخلاقي ، وأن مُهِمّته أن يُطالع الناس بوجهٍ عام ورجال الدين بوجهٍ خاص على حقيقتهم ، فوصف لهم حركاتهم ، وصوّر لهم طباعهم فجاءت صوره لاذعة أحياناً .

وقد سما اسحاق بالشعر السرياني ، ثم أن أوزان الشعر قد استعصت عليه ، فلم يَسلُس له إلاّ قياد وزن المقاطع السبعة — على عكس ما كان عليه إفريم ، فقد لعب إفريم بالأوزان الشعرية جميعها — إلاّ أن إسحاق قد فاق إفريم في سيطرته على اللغة ، ومحاكاته لأسلوب الكتاب المقدس وطرافة تعبيراته طرافة لم يسبق اليها .

ولبعض قصائد اسحاق شيء من القيمة التاريخية كقصيدته عن الصيام التي يحتمل أن تكون قد نظمت بعد سنة ٤٢٠ مباشرة . والقصيدتين اللتين كتبتا عن هدم العرب لمدينة بيت حور حوالي سنة ٤٥٧ ، وقصيدتيه في التنديد بمن يلجأون الى العرّافين .

والشعر الذي ينسب الى اسحاق الانطاكي كثير ولا يمكن أن يكون كله صحيح النسبة اليه ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اسحاق قد نظم الجزء الأكبر من المداريش التي تنسب اليه ، وان شهرته هي التي كانت سبباً في أن يضاف اليه أعمال جميع من تسموا باسمه . ونستطيع أن نتخذ من أسلوب الشعر في القصائد الصحيحة النسب اليه مقياساً نتبين منه القصائد التي ليست له .

ومع أن نَظْم اسحاق كان كثيراً إلاّ أن نثره — فيما يظهر — كان قليلاً وتنسب اليه مجموعة من الحِكَم ، كما ينسب اليه خطأ بعض كتابات عن النُسك ، ومرجع هذا الخطأ ما قام من لبس بين اسحاق الأنطاكي واسحاق النينوي إذ يجب أن تنسب جميع كتابات التنسك الى اسحق النينوي .

وتشتمل المكتبة العربية على عدد من الكتب تحمل إسم اسحاق الانطاكي فقد ترجم الشماس عبد الله بن الفضل الأنطاكي ٤٠ ميمراً و ١٥ نصّاً في كتاب عنوانه « الميامر والمواعظ في السيرة النسكية » ذكره أبو البركات في قائمته وميمر لعيد بشارة العذراء نشر في مجلة المشرق سنة ١٩١٤ . ومسائل سأل فيها القديس سمعان العمودي أحد الحبساء القدماء في مبدأ أمره القديس المعلم النفيس اسحاق الأنطاكي وهي خمسة أسئلة في الأمور الروحية .

كتاب النساطرة

إيهيبا

ويسميه اليونان إيباس . خَلَف ربولا أسقفاً على الرُّها سنة ٤٣٥ م . وكان مشايعاً لنسطوريوس وفي أيامه خمدت الحرب التي شنَّها ربولا على النساطرة .

ونحن لا نكاد نعرف عن الطور الأول من حياته إلاَّ أنه كان معلماً في المدرسة الفارسية بالرُّها ، واليه والى تلاميذه تنسب أول ترجمة سريانية لمؤلفات ديودور الطرسوسي وتيودور المفزوستي ، وهي المؤلفات التي أتلفها ربولا وأحرق كل ما وصل الى يديه من نسخها . ولهذا قام النزاع بينه وبين ربولا لدفاعه عن تيودور المفزوستي .

أما الطور الثاني فيبتدىء بانتخابه أسقفاً على الرُّها في خريف عام ٤٣٥ م . وفي ذلك الحين ظهر جليًّا أنه يشايع النساطرة ، وذلك من الخطاب الذي وجّهه الى ماري الفارسي يشجع فيه الدعوة بين السريان الشرقيين ، والذي كان له الأثر في تعبيد الطريق أمام النسطورية في جميع أنحاء الجزيرة .

وقد كان هذا الخطاب وترجمة إيهيبا لكتابات تيودور وبعض أقوال أخرى مما دفعت قساوسته صمويل وقورا ومارا وأولوجيوس على شكايته الى دومنوس الانطاكي ، فلما لم يحرك هو ساكناً شكوه سنة ٤٤٨ م. الى فلافيانوس أسقف القسطنطينية . كما كان ذلك سبباً في مهاجمة ايهيبا في مجمعي صور وبيروت ولكنه بُرِّىء وبقي في عمله الكهنوتيّ ولم يحرم إلاَّ في مجمع افيزوس الثاني سنة ٤٤٩م. هو وابن أخيه دانيال أسقف حران، فقد حُكم عليه في غيبته أن يتخلى عن كرسيّه لنونوس[1] . ولكن هذا الحرمان لم يدم أكثر من عامين التأم بعدهما مجمع كلقدونية سنة ٤٥١م وقرر إعادته الى وظيفته الدينية ، وبذلك يبدأ الطور الثالث والأخير من حياة إيهيبا . وقد قضى إيهيبا بقية حياته في هذه الفترة في راحة

(١) لم يؤثر عن هذا الاسقف من الاعمال الادبية الا خطاب الى الامبراطور لبو عن مجمع كلقدونية .

وهدوء، حتى توفى سنة ٤٥٧ م . فخلفه نونوس مرة ثانية ، وبقى أسقفاً على الرُّها حتى سنة ٤٧١ م ، إذ ولى قورا كرسي الأسقفية بعده.

ونستطيع أن نتبين أعماله الأدبية من اللقب الذي أطلقه عليه عبد يشوع فهو ينعته بالمترجم ، ومع ذلك فلم يبق لنا أمثلة لترجمته صحيحة نسبتها اليه . وينسب اليه عبد يشوع في فهرسه الى جانب ترجمته لمؤلفات ديودور الطرسوسي وتيودور المفزوستي التي مَرَّ ذكرها شرحاً على سفر الأمثال ، وبعض المداريش والميامر . ومجادلة مع أحد الهراطقة . وخطاباً الى المفريان ماري من روردشير مترجم عن اليونانية . وينسب اليه عبد يشوع أيضاً ترجمة لمؤلفات ولكن لم يثبت له شيء من ذلك وكل ما عرف عنه أنه ترجم كتاب ايساغوجي .

وقد حدث بعد وفاة إيهيبا أن نفي جميع من شايعوه من الرُّها وهم جماعة المدرسة الفارسية معلمين ومتعلمين ، ولكن هذه المدرسة لم تغلق نهائيًّا إلاّ سنة ٤٨٩ م. بأمر الامبراطور زينون عن طلب الأسقف قورا . وقد بقيت أسماء الذين نفوا من الرُّها والألقاب التي كانوا يحملونها في المدرسة في الخطاب الذي كتبه سمعان البيت أرشامي حوالي سنة ٥١٠ م. وهو أقدم وثيقة عن الدعاية النسطورية في بلاد الفرس . وقد نشره السمعاني في المكتبة الشرقية ، ومنهم معنا وبرصوما وأقاق ونَرْسَيْ ، ولم يصلنا إلاّ القليل من كتاباتهم جميعاً

بابُويْ

وُلد في رِتلاّ ، وكان في شبابه يدين بالزرادشتية ، ثم اعتنق المسيحية على يد أحد الرهبان فقبض عليه فيروز (٤٥٧م — ٤٨٤ م) وزجّ به في السجن حيث بقي عامين . وكان برصوما أسقف نصيبين قد كتب كتاباً يبيح فيه زواج الكهنة والرهبان ، ورضي بذلك كثير من الأساقفة ، ولكن بابوي عارض في ذلك .

ولما رأى بابوي ما يصيبه فيروز ملك الفرس من العذاب على المسيحيين وبخاصة في المدائن بعث الى زينون ملك الروم كتاباً يطلب اليه أن يكتب الى فيروز يسأله الرفق

بالمسيحيين المقيمين في بلاده ، الا ان الكتاب ضُبط مع الرسول فقبض عليه ثانية في نصيبين ، وعُذِّب حتى مات سنة ٤٨٤ م .

أما عن كتاباته الأدبية فلم يصلنا منها إلا رسالة عن التنسك بعث بها الى القس قرياقس .

برصوما

كان من أقطاب النساطرة في هذا القرن ومن كبار معلميهم ، وكانت المدرسة الفارسية في عهده أهم مركز لنشاط النساطرة التعليمي والأدبي ، حيث كان برصوما وغيره من المعلمين يعملون جادين في الدفاع عن النسطورية والترويج لعقائدها .

ولم يصلنا من سيرة هذا المعلم الا ما نقله السمعاني في المكتبة الشرقية عن سمعان البيت أرشامي ، أحد كتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة — وهم أعداء النسطورية — وهو كلام أقرب الى البذاءة والاقذاع منه الى الحقائق المعقولة ، فهو يذكر مثلاً أنه كان عبداً لرجل اسمه مارا ، وان أهل الرُّها كانوا يطلقون عليه اسم « العائم بين الأدغال » ، ويقصدون بذلك نعته بالخنزير البري . وتابعه في ذلك ابن العبري والسمعاني . ولذلك وجب علينا أن نأخذ أقوالهم جميعاً بالحذر وعدم التسليم بصحتها قبل تمحيصها .

ولد برصوما في بيت قردو[1] ودرس في الرُّها على ايهيبا ، وكان مقيماً بها سنة ٤٤٩ م . حينما نادى الرعاع بابعاد النساطرة عنها ، ولكننا لا نعرف متى رحل عنها على وجه التحقيق . والراجح أن ذلك كان بعد سنة ٤٥٧ م . فقد ذكر ابن العبري في كتابه تاريخ الكنيسة أنه كان يعمل جاداً للدعوة النسطورية في الشرق في عهد بابوي الجاثليق (٤٥٧ — ٤٨٣) وفي عهد خلفه أقاقيوس (٤٨٤ — ٤٩٦) وأنه كان في هذه الفترة أسقفاً على نصيبين . وعلى ذلك فليس صحيحاً ما ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية من أنه رحل عن الرُّها في أيام ربولا . وليس صحيحاً أيضاً ما ذكره ابن العبري في كتابه تاريخ الكنيسة أنه رحل عن الرُّها سنة ٤٨٩ م . عند ما أغلق زينون المدرسة الفارسية في الرُّها ، فقد أثبت جويدي المستشرق الايطالي أن برصوما كان أسقفاً على نصيبين سنة ٤٨٥ م . أي قبل اغلاق المدرسة الفارسية

(١) قرية على الضفة اليسرى لنهر الدجلة مقابل جزيرة ابن عمر

بأربع سنوات على الأقل . وكان برصوما هو واضع أول تقويم لمدرسة نصيبين ولكنه ضاع قبل أن يصل الى أيدينا ، وقد وصلنا تقويم خلفه هوشيا

ومهما يكن من شيء فالأمر الذي لا شك فيه أن برصوما قد رحل عن الرُّها وأنه عين أسقفاً على نصيبين ، وانه تقرَّب الى فيروز حتى رضي عنه وعينه مشرفاً على منطقة الحدود الفارسية الرومانية فجعل من هذا المنصب وسيلة لمحاربة دعاة أصحاب الطبيعة الواحدة .

وفي سنة ٤٨٤ م . رأس مجمعاً في بيت لفَـط قرر المجتمعون فيه اباحة زواج القسس والرهبان واحتجوا لرأيهم هذا بقول بولس الرسول « الزواج خيرٌ للانسان من الاحتراق بالشهوة » ، فعارضه بابوي ، ويقولون إن برصوما هو الذي قبض على الرسول الذي كان يحمل رسالة بابوي الى زينون ، وانه هو الذي دفع بالرسالة الى فيروز . وكان من جراء ذلك أن لقي بابوي حتفه ، ولكننا لا نعرف على التحقيق مدى ما يقع عليه من التبعة في هذه النهاية المحزنة .

وبعد سنة ٤٨٥ م . ظهر برصوما في القسطنطينية ـ الى جانب أقاق السلوقي خليفة بابوي ـ سفيراً لفارس في القسطنطينية . فلما قال أقاق برأي سلفه في موضوع زواج الرهبان عارضه برصوما وكان ذلك في سنة ٤٩١ م . ولا يعرف تاريخ وفاة برصوما على التحديد ولكنه توفى قبل سنة ٤٩٦ .

أما أعماله الأدبية فتدور كلها حول الجدل في سياسة الكنيسة وله مواعظ جنائزية وميامر ومداريش ورسائل . ومن رسائله خمس موجهة الى أقاقيوس بمناسبة المجمع الذي عقد في بيت عذري سنة ٤٨٥ م . ووصلنا كذلك بعض مقتطفات من القوانين التي صدرت عن مجمع بيت لفط الذي عقد تحت رياسته .

أقاقيوس

عاش في هذه الفترة اثنان عرفا بهذا الاسم الأول الآمدي ، والثاني السلوقي أما أولهما فيذكر السمعاني في المكتبة الشرقية أنه ألَّف بعض الرسائل ، وقد اشتهر بعمل جليل أشار اليه Socrates في حوادث سنة ٤٢٢ م . فيقول : « في التاسع من ابريل حدث في آمد بين النهرين أن باع القديس أقاقيوس الأواني المقدسة التي تستخدم في الطقوس الدينية لكي يفدي

الأسرى الذين وقعوا في أيدي الرومان في بيت عربايا . وكان هؤلاء الأسرى من رعايا الفرس فدفع دياتهم وأعادهم الى بلادهم. وهذا يدلنا على انه كان نسطوريًا وقد اعتنى ماري اسقف بيت أردشير بشرح خطاباته .

وأما عن ثانيهما السلوقي فقد اختير جاثليقاً سنة ٤٨٤ م . بعد استشهاد بابوي ، وكان أقاقيوس هذا أحد الذين رحلوا عن الرُّها الى الأراضي الفارسية وتابع سيرة سلفه في معارضة برصوما . يقول صاحب تاريخ النساطرة : وقد كره أصحاب برصوما رياسته وقذفوه بالزنا فلم يتم لهم ما قدّروه . ويشير ابن العبري في كتابه تاريخ الكنيسة الى خروج أقاقيوس الى بلاد الروم في أيام زينون وسؤاله له أن يردّ الأساقفة الذين نفاهم . ومات سنة ٤٩٦ م . وكان أسقف الحيرة تلميذه فحمل جسده اليها ودفنه بها .

وله بعض مؤلفات منها أعمال المجمع الذي عقده في سلوقيا والمدائن سنة ٤٨٦ م ، وخطاب بعث به الى برصوما في بدء النزاع الذي قام بينهما ، ومقالة في الأمانة كشف فيها عوار من يعتقد جوهراً واحداً في المسيح . وثلاث مقالات في الصوم . وترجمة رسالة اليشع في العقيدة الى الفارسية للملك قباذ

بَابَيْ

ليس لدينا شيء عن الدور الأول من حياة بابي وكل ما نعرفه عنه أنه كان كاتباً لمرزبان «بيت أرامايا» وهي بلاد النبط فلما مات أقاقيوس الجاثليق اختار المسيحيون بابَيْ بن هرمز خلفاً له سنة ٤٩٧ م . وكان رجلاً كبير السن ذا قرابة لمنجم مسيحي في بلاط داماسف Zamasp اسمه موسى عقد مجمعاً سنة ٤٩٧م. حضره اثنان وثلاثون من رجال الكنيسة وأصدر قوانين لتدبير البيعة وأبطل المكاتبات التي كانت بين بابوي وبرصوما وأقاقيوس ورفع الحرمان الذي وقع على المسيحيين إبان الاضطراب الكنسي الأخير . وأقرّ زواج رجال الدين والرهبان ، وصحح ما كان أقاقيوس وبرصوما والأساقفة قد رسموه في أمر الزواج . وبذلك كان النصر النهائي لرأي برصوما .

نَرْسي

هو نرسيس المعلّي أيضاً ، وُلد في عين الدّالية من قرى «معلثا» في الشمال الشرقي من الموصل ، فلما بلغ السابعة من عمره التحق بمدرسة قريته وبقي بها حتى توفى أبواه وهو في سن التاسعة ، فانتقل مع عمه عمنويل راعي دير كفر ماري في بيت زبدي ، وأمضى فيها الشتاء يتلقى العلم في الدير ، فلما بلغ العاشرة ذهب الى الرُّها والتحق بالمدرسة الفارسية وبقي بها عشر سنوات رجاه عمه في نهايتها أن يعود اليه للتدريس بمدرسته دير كفر ماري. ولكنه عاد مسرعاً الى الرُّها وتلقى العلم على أيهيبا رئيس المدرسة الفارسية ومكث بها عشر سنوات أخرى عاد بعدها الى كفر ماري ليتولى رياسة الدير بعد موت عمه ، ولكنه لم يقِم بها إلاَّ عاماً واحداً عاد بعده نهائيًا الى الرُّها ، وخلف قيوري في إدارة المدرسة الفارسية .

ويقولون أنه لقي تادوروس تلميذ تيودور المفزوستي المعروف بالمفسر مع أقاقيوس وأنه باركه ولقبه بـ « لسان المشرق » . وان أصحاب نرسيس من النساطرة الذين تذوّقوا شعره وأعجبوا به كانوا يلقبونه بـ « قيثارة روح القدس » . أما أعداء النسطورية كسمعان البيت أرشامي فكانوا يلقبونه بالأبرص .

والرُّواة كلُّهم مجمعون على أنه أقام في الرُّها عشرين عاماً ولكنهم مختلفون في تحديدها : أما ابن العبري فيقول إنه هرب من الرُّها سنة ٤٨٩ م. فراراً من اضطهاد الأسقف قورا (٤٧١ — ٤٩٨) وتبعه رايت المستشرق الانجليزي في هذا الرأي . وأما السمعاني فإنه يرى أنه رحل عن الرُّها في عهد ربولا حوالي سنة ٤٣١ م . ويقول صاحب تاريخ النساطرة إن نرسي عاش في الرُّها عشرين عاماً ، فلما علم المخالفون أنه يعتقد مذهب ديودوروس وتيودور أرادوا إحراق قلاَّيته فهرب الى نصيبين ووجد هناك مدرسة صغيرة كان شمعون الجرمقاني أسسها ، فأقام فيها واعتنى بها برصوما المطران وانتقل إليها من كان بالرُّها من السريان .

ومهما يكن من شيء فإن نرسي كان من زملاء برصوما وعمل معه في الرُّها ، ثم رحلا

سويـًّا منها سنة ٤٥٧م . وأراد نرسى الاتجاه الى داخل المملكة الساسانية ولكن برصوما صحبه الى نصيبين ، وهنـاك اشترى برصوما خاناً ليجدّد فيه نرسي المدرسة التي كان سمعان الكشكري المفسر قد أقامها هناك من قبل ، وقام نرسي فعلاً بإنشاء هذه المدرسة وجعلها من أكبر المراكز التعليمية عند السريان الشرقيين وفيهـا أمضى القسم الثاني من حياته ماعدا فترة بسيطة لجأ فيها الى دير كفر ماري . فأقام رئيساً للدير خمس سنوات شاهد خلالها حصار قباذ لآمد سنة ٥٠٣ م .

والرّواة مختلفون أيضاً في مدّة القسم الثاني من حياته بعد رحيله عن الرّها : أما ابن العبري فيقول إنه عاش خمسين عاماً بعد رحيله عن الرّها ولـكن ابن العبري يجعل رحيله عن الرّها على إثر إغلاق مدرسة الفرس سنة ٤٨٩ م . فتكون وفاته إذاً عند ابن العبري سنة ٥٣٩ م . وذلك في رأينا غير صحيح .

ويذكر « برحـَذ بشبـَّا » أن نرسى قضى خمسة وأربعين عاماً في نصيبين وتوفى سنة ٥٠٢ م . ولـكن برحذ فيما يظهر نسي السنوات الخمس التي قضاها نرسي في رياسة دير كفر ماري في أواخر أيام حياته وبذلك يكون نرسي قد توفي سنة ٥٠٧ م . وعن مائة سنة وثلاث وهو عندنا أصح الآراء .

وأما المستشرق بيكـل فيذكر أن نرسى قد توفي سنة ٤٩٦ م . دون أن يبرر رأيه بسند أو دليل . والراجح أنه يخلط بينه وبين أقاقيوس . وقد تبعه فلدمان على رأيه .

وأما صاحب تاريخ النساطرة فانه يذكر أن نرسي أقام بنصيبين أربعين سنة ، ومات ودفن في البيعة المعروفة باسمه . وشايعه بومشتارك على هذا الرأي .

وكتاباته كما أوردها عبد يشوع في فهرسه تنقسم الى قسمين :

كتابات نثرية وجلـّها في التفسير : فقد وضع شروحاً على الـكتب الأربعة الأولى من التوراة — أو على أسفار موسى الخمسة فيما يقول صاحب تاريخ النساطرة — وأسفار يوشع والقضاة والجامعة وأشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال والاثنى عشر نبيا الصغار . وله الى جانب كتب التفسير قداس ، واستعراض لقداس الاحتفال بكسر الخبز المقدس ، والعماد ، وخطب للوعظ والجناز ، وكتاب في قبح التدبير ذكر فيه ما يفعله كهنة الهراطقة ورهبانهم .

وكتابات منظومة تشتمل على قصائد تعليمية استحق من أجلها لقب « قيثارة روح القدس » . ويقولون انه نظم ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين قصيدة رتبها على أشهر العام في ١٢ جزءاً وينقسم كل جزء منها الى قسمين ويشتمل كل قسم على خمس عشرة قصيدة ؛ ويقولون إنه عارض في أكثر من ثلاثمائة قصيدة منها يعقوب السروجي أحد أصحاب الطبيعة الواحدة ، ولو صحّ ذلك فإنه يكون قد نظم الشعر حينما تقدمت به السن . وقد استعمل في شعره وزنَ المقاطع الاثنى عشر والسبعة والأربعة . ويقول صاحب تاريخ النساطرة « وقد كان المخالفون لما خرج من الرُّها أحرقوا كتبه بل بعضها » . ولعلّ هذا هو السبب في ضياع كثرة كتاباته وبخاصة النثرية منها . أما منظوماته فإن النساطرة يحتفظون ببعضها حتى اليوم في الطقوس الدينية ولم يصلنا من المجلدات الاثنى عشر إلاَّ قسم ضئيل .

وكل شعره غنائي وقصصي ، وكل موضوعاته دينية . وينسب اليه من الشعر القصصي ملحمة عن قصة يوسف الصديق وهي في اربعة ميامر : الأولان على وزن الاثنى عشر مقطعاً ويشتملان على القصة كما جاءت في العهد القديم بشيء من التصرف حتى إحضار يعقوب الى مصر . أما الثالث فقصير وهو على وزن المقاطع السبعة ويتحدّث عن وصف رحلة يعقوب الى مصر . والرابع على وزن الاثنى عشر مقطعاً وهو محاورة بين يعقوب ودينا ويوسف وفيه يشرح يوسف ما حدث له . والقصيدة في مجموعها على نمط الملحمة التي تنسب الى مدرسة افريم ، ولكنها أقصر منها . وقد نشرها بدجان . ونشر جابوسكي وماكس فايل أجزاء منها .

وقد بقي لنا من منظوماته قصيدتان عن فساد الأخلاق وبعض قصائد للأُغراض الطقسية طول العام . ومقطوعات تستعمل في الصلوات اليومية في الكنيسة النسطورية . وهو مؤلف منظومات تتركب كل منها من فقرتين تعرف باسم (هفختا) وتستعمل في أيام الآحاد والأعياد في نهاية صلاة الليل ، والظاهر أنها بقايا مستقلة من مجموعة شعرية كبيرة . وله كذلك مقطوعات تستعمل في الطقوس النسطورية الجنائزية تعرف باسم (فاسوقا) والظاهر أنها من مواعظ التعزية الشعرية (بويّاءا) وليست تأبيناً نثريًّا وينسب اليه أيضاً تسابيح في الصلوات اليومية . ويذكر اسمه أيضاً في صلوات الشماس للشعب المعروفة

باسم (كاروزوثا)، وكذلك شرح لطقوس القداس بالشعر، وشرح لطقوس العماد.

وقد نشر منجانا أكبر مجموعة من كتابات نرسي في جزأين في الموصل سنة ١٩٠٥ م وتشتمل على أربعين ترتيلاً وعشرة أناشيد وقد ذكر الناشر انه أهمل نشر التراتيل التي اعتقد أن فيها شيئاً من الهرطقة.

* * *

ويعرف هذا القرن أيضاً عدداً من كتّاب النساطرة لم يبلغنا عن سيرتهم أو عن أعمالهم الأدبية إلاّ قدر يسير. ومن بين هؤلاء الكتّاب «دَدْ إيشوع» الذي كان جاثليقاً على سلوقيا بين سنتي ٤٢١ م — و٤٥٦ م. وقد ضاعت جميع الكتب التي تنسب إليه، وهي شروح على كتب دانيال والملوك وغيرها.

ومنهم ميخا أسقف لاشوم (١) وكان في الرُّها، ثم رحل عنها مع من رحل من النساطرة الى بلاد الفرس حيث رُسم أسقفاً على لاشوم.

ومنهم أيضاً يَزيدَدْ وكان ممن رحل عن الرُّها الى نصيبين مع برصوما ونرسي. وينسب إليه عبديشوع في فهرسه كتاب مختارات.

أما أَرّا فلا نكاد نعرف شيئاً عن سيرته ولا عن الوقت الذي ظهر فيه على وجه التحقيق، وتنسب إليه رسالة في الرد على المجوس وأخرى في الرد على أتباع ابن ديصان، أطلق عليها اسم «الخنافس» تحقيراً لهم.

النقل عن اليونانية في القرن الخامس

يظهر أن ترجمة ربولا للعهد الجديد قد هيأت لحركة نقل علمية من اليونانية الى السريانية كان مسرحها القسم الروماني فيما بين النهرين، وقد ساعد على تهيئة هذا أسباب أهمها: أن المسيحية لما انتقلت الى اليونان والى البلاد التي تسود فيها الثقافة اليونانية كمصر، أثّر اللاهوت اليوناني في اللاهوت السرياني، وظهر أثر ذلك في الجدَل الذي ثار بين المسيحيين حول طبيعة المسيح، وانقسامهم الى معسكرين رئيسين، وقد وجد كل من الفريقين في

---

(١) اسمها الآن لاسيم على مسافة قصيرة جنوب غربي داقوق أو تاءوق في بيت جرمي.

الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو عدته لتدعيم رأيه . كما وجدوا في الشروح التي وضعت باللغة اليونانية على الكتاب المقدّس جلاءً لكثير مما غمض عليهم من أمر هذا الدين الجديد. وكانت أهم هذه الشروح كتابات تيودور المفزوستي وغيره من كبار اللاهوتيين ، أمثال جريجوريوس النزيانزي القبادوقي ، وباسيليوس ، وجريجوريوس النصيصي ، ويوحنا فم الذهب الأنطاكي ، الذي كان لهم شأن في النزاع الكنسي . وانتفع النساطرة وكذا أصحاب الطبيعة الواحدة بما كتبه هؤلاء في الجدل في عصر متقدم مما يجعلنا نذهب الى أن ترجمة هذه الكتابات الى السريانية كانت متداولة في القرن الخامس .

وقد عملت أيدي النقلة في هذا العصر أيضاً في ترجمة رسائل إغناطيوس الأنطاكي السبع ، وخطاب برنابا ، وموعظة لجريجوريوس فاعل العجائب ، المتوفي حوالي سنة ٢٧٠ م . « عن النفس » ، وبعض كتابات أخرى له ضاع أصلها اليوناني ، ومنها رسالته الى ثيوفنفوس . وترجم كذلك السريان خطاب يوليوس الإفريقي الى ارستيدس ، وعرفوا هيبوليتوس الرومي المتوفي حوالي سنة ٢٣٦ م . وترجموا الكثير من كتاباته ، وقد عُرفت له بالعربية تراجم لشروح على بعض أسفار الكتاب المقدّس . وترجموا كذلك قوانين المجامع وقوانين مدنية ، منها القوانينُ اليونانية ، وكتاب القانون السرياني الروماني . كما ترجموا كتابات الرهبنة لعدد من الكتّاب ، أمثال أنطونيوس وأمونيوس ومكاريوس وأواجريس ويوحنا الأسيوطي ونيلوس وماركوس .

ولكتابات الرهبنة هذه قيمة كبيرة في تاريخ الرهبنة والقيادة الروحية عند المسيحيين الأراميين الشرقيين ، وقد ترجمها النساطرة على الأرجح ، ولكنها وصلت إلينا في مخطوطات يعقوبية ترجع الى عصور متقدمة .

وترجم السريان أيضاً عدداً من القصص يدور موضوعها حول الرهبان المصريين في عصر يرجع الى ما قبل انقسام الكنيسة السريانية . ثم ترجمت عن السريانية الى العربية : مثل رسائل القديس انطونيوس ، والكتاب المنسوب الى بلاديوس الراهب الغلطي المتنسك في صعيد مصر في القرن الرابع الميلادي ، وقد نقل هذا الكتاب من اليونانية الى السريانية قبل نهاية القرن الخامس ، ووضع له مختصر بالسريانية . وكذلك تُرجمت الى السريانية

سير شهداء اليونان، وكان لها قيمة أدبية في لغتها اليونانية . ومن بين ما ترجم الى السريانية سير شهداء مدينة سبست الاربعين ، وسير كوزماس ودميانوس وكيريان ويوسطا ، وأعمال بنتاليون ورفاقه ، وأعمال القديسة صوفيا وبناتها بستس واليس وأغابي ، وسير بعض قديسي أنطاكية وسميصات ورومة والاسكندرية ومصر وتسالونيكية وقبادوقية .

وكانت المدرسة الفارسية في الرُّها هي المركز الأساسي للدراسة اليونانية والنقل الى السريانية في هذا العصر . وأول أثر وصل إلينا عنها ترجمة آراء كليمانس الاسكندري في العقيدة ، وكتابات طيطوس البصري ضد المانوية ، وتاريخ أوسابيوس عن المؤمنين في فلسطين ، وقد بقيت لنا في مخطوطة محفوظة بالمتحف البريطاني ترجع الى سنة ٤١١ م . وكذلك تاريخ الكنيسة لأوسابيوس . وقد وصل إلينا في مخطوط بمكتبة بطرس برج (لننجراد) وتاريخه سنة ٤٦٢ م . كما ترجم ايساغوجى لفوفوريوس ثلاث تراجم على الأقل فيما بين القرن الخامس ومنتصف القرن السابع . وأقدم شروح ايساغوجي السريانية مستقلة عن الشرح اليوناني لأمونيوس ، ويرجع هذا الشرح الى عصر الازدهار الأول للدراسات السريانية اليونانية الذي انتهى بإغلاق المدرسة الفارسية النسطورية في الرُّها سنة ٤٨٩ م .

ونحن لا نعرف شيئاً عن أقدم المترجين ، أما أقدم المخطوطات فكلها رهاوية ، والغالب أن ما تشتمل عليه من كتب قد نقل الى السريانية في حياة مؤلفي هذه الكتب أو بعدهم بقليل ، فان أوسابيوس قد توفى سنة ٣٤٠ م . وتوفى طيطوس سنة ٣٧١ م . وترجمت كتاباتهما قبل سنة ٤١١ م . وهو تاريخ مخطوط بالمتحف البريطاني ، وأغلب الظن أن هذا وذاك وأمثالهما من المؤلفين باليونانية كان لهم أصدقاء في مراكز التعليم السريانية ، وأن هؤلاء الأصدقاء كانوا على استعداد لأن يقدموا لهم نفس الصنيع الذي قدمه ربولا لكيرلس كما ذكرنا من قبل .

وكلما تقدَّم الزمن ازدادت معلوماتنا عن الكتب المترجمة وأصبحت أكثر دقة فيظهر أولاً اسم المترجم ، ثم تزداد معلوماتنا فنعرف بعض مدارس للترجمة تتميز كل مدرسة منها بطابع خاص .

وأول مترجم ظهر اسمه على تراجمه هو « معنا » وهو فارسي الأصل من شيراز. بدأ حياته في الرُّها في المدرسة الفارسية ، وكان يترجم فيها من اليونانية إلى السريانية كتابات تيودور المفزوستي . ثم انتقل الى مدينة فارس بعد وفاة إيهيبا سنة ٤٥٧ م — فيما يقول سمعان البيت أرشامي حينما تعرَّض للحديث عنه بين المبرزين من علماء النساطرة الذين جعل منهم موضوعاً لسخريته ، وكان يلقبه بـ « شارب الرّماد » .

وظهر نشاطه الأدبي في عصر فيروز الساساني (٤٥٧ م — ٤٨٤ م) وله مداريش وميامر باللغة الفارسية للأغراض الطقسية ، وثمانية كتب بالسريانية في شرح الفلك والنجوم ، وقد وصلتنا أجزاء منها .

وقد خلط صاحب تاريخ النساطرة بينه وبين سَمِيِّ له كان في الرُّها ورحل عنها أيام ربولا الى بلاد الفرس وخلف يبالاها جاثليقاً على سلوقيا سنة ٤٢٠ م . وترجم كثيراً من الكتب السريانية الى الفارسية .

وتقول المصادر إن أعضاء المدرسة الفارسية أتموا العمل الذي بدأه « معنا » ، والذي لا نعرف ما هو على وجه التحقيق ومنهم كومي الذي ترجم شروح تيودور والذي تعد ترجمته من أقدم التراجم ، وقد وصلتنا منه ترجمة غير كاملة لكتاب « ناسوت المسيح » ذكرها جِنّاديوس . ومنهم تيودوريتوس وهو من أتباع إيهيبا ، اشتهر جدله ضد أصحاب مجمع افزوس ، وأصحاب الطبيعة الواحدة .

وكان النساطرة بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة الى دراسة فلسفة ارسطو ، وكان پروبا أول من ترجم ارسطو فيما نعلم ، حين كان رئيس الشمامسة ورئيس الأطباء في أنطاكية . وليس من اليسير تحديد الزمن الذي عاش فيه على وجه التحقيق . وذكر عبد يشوع انه كان معاصراً لإيهيبا في النصف الأول من القرن الخامس . وأورد السمعاني اسمه محرّفاً « فوبري أو فوبربوس » وتابعه رينان على هذا التحريف . أما الكتب العربية كالفهرست لابن النديم وطبقات الحكماء لابن أبي أصيبعة فقد ذكرته خطأً باسم الفُوَيْرِيّ أبي اسحاق ابراهيم ، وهو ارسطي من السريان العرب عاش حوالي أوائل القرن العاشر الهجري .

ويرجع إلى پروبا الفضل في نقل منطق ارسطو الى الأماكن الارامية الشرقية ، الى جانب

ترجمته لكتاب باري أرمنياس وأنالوطيقا . ولم يكتف بالترجمة ولكنه شرح منطق أرسطو من وجهة نظر السريان الشرقيين، وكما شرح إيساغوجي لفورفوريوس الصوري وأنالوطيقا وباري أرمنياس، وله كذلك رسالة في استعمال حروف الأبجدية السريانية لتأدية الأرقام عند السريان . وقد نشر زاخاو بدايتها وتوضيح طريقة استعمالها في فهرسه للمخطوطات السريانية بمكتبة برلين .

أما المؤلفون الذين كتبوا باليونانية وترجمت كتاباتهم الى السريانية فكان أشهرهم تيودور المفزوستي . فإنه وإن لم يكتب بالسريانية إلا مقطوعات قليلة . فإن ما كتبه باليونانية كان مرجعاً هاماً للمفسرين من السريان في جميع العصور ، وقد نقل كله الى اللغة السريانية . ولم يصل إلينا النص السرياني لكثير من هذه التراجم السريانية . وقد وصف صاحب تاريخ النساطرة تيودور بقوله : « إن الله وهبه فضيلة لم يسبقه اليها غيره في معرفة البرهان واختراع التأويل « مستعيناً » بجميع الكتب العتيقة والحديثة » .

وُلد تيودور من أب من أهل اليسار في انطاكية . ودرس الفلسفة في حداثته وتتلمذ على باسيليوس الكبير، وآثر الرهبنة على غيرها، ولكن رهبان الدير الذي قصده امتنعوا من قبوله ، فلبث بباب الدير سنة لا يبرحه ، فلما عرف الرهبان فضله أذنوا له بالدخول فمكث في الدير إحدى وعشرين سنة كان الرهبان خلالها يسألونه تفسير الكتب وهو يجيبهم الى ما سألوه . ولبث خمساً وخمسين سنة يكد بالنظر في الكتب والتفسير ومقاومة أهل البدع. حتى توفى سنة ٤٢٩ م . فيما يقول ابن العبري . وكان له كثير من التلاميذ منهم يوحنا بطرق انطاكية ، والاسكندر مطران منبج ، وفلافيانوس بطرق القسطنطينية، ونسطوريوس بطرق القسطنطينية ، وتيودروس أسقف قوروس ، وميلاطوس الذي كان أسقف المصيصة .

وقد عرفنا من شروحه شرحاً على الأنبياء الاثنى عشر في جزءين ، ومجلداً يشمل شرح سفر الجامعة ، وشرحاً على المزامير في خمسة أجزاء ، وشرحاً على أيوب في جزءين ، وشرحاً لصموئيل واشعيا وحزقيال وأرميا ودانيال ، من كتب العهد القديم . وشرحاً من العهد الجديد : الأناجيل الأربعة ، وأعمال الرسل وبعض رسائل بولس .

وقد ذكر فوتيوس أنه عرف له ٢٨ كتاباً باللغة السريانية لم يعرف لها أصل يوناني. وذكر بعض القدماء أن له كتباً يعارض فيها القائلين بالرمزية ، وكتاباً في الرد على أبوليناريوس ، وكتاباً في شرح رمز العماد وسر الأسرار المقدسة ، ومجموعة من الرسائل في كتاب يسمى كتاب الجواهر . وكتاباً في تفسير الأمانة التي وضعها مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر ، وتفسير الرازين ، وكتاباً في انسانية المسيح ، وكتاباً في كمال التدبير ، وكتاباً في الرد على من قال إن الخطيئة شيء في الطبع ، وكتاباً عن الروح القدس ، وكتاباً في الكهنوت ، وكتاباً في الرد على المجوس ، وآخر في الرد على أومانيس ، ومقالة عن مجيء الدجال ، وكتاباً في تفسير مذهب آريوس ، وكتاباً في الرد على أهل البدع سماه كتاب الجوهر

وكان جريجوريوس النزيانزي المتوفى سنة ٣٨٩ م أحد الذين ترجمت كتاباتهم من اليونانية الى السريانية. وعرفت له ترجمة سريانية لرسائله ، وله مواعظ عند النساطرة واليعاقبة. وتعرف المكتبة العربية له عدة ميامر ذكرها أبو البركات في قائمته ، ومقالات في مجلد ضخم يبلغ نحو الف صفحة ناقص في أوله . والراجح أن الذي عرب هذه الميامر والمقالات هو عبد الله بن الفضل الانطاكي في أواسط القرن الحادي عشر . وله أيضاً كتاب مسائل القديسين: جريجوريوس وباسيليوس ، ورؤيا جريجوريوس وما شاهده في السماء والجحيم. وتسبيحة التقديس المعروفة بالتريزاجيون (التقديسات الثلاث) وشرح المفريان شمعون الطوراني على مقالة القديس جريجوريوس فيها، وتفسير ما قاله القديس جريجوريوس الثاولوغوس لتلميذه مار افرام، ورسالة للقديس جريجوريوس في تشبه الانسان بطبائع الحيوان. ولها عنوان آخر هو الفاظ القديس جريجوريوس عن الأشياء المخلوقة . ويغلب على الظن أن بعض هذه الكتابات المترجمة محمول على جريجوريوس .

وكذلك تُرجم الى السريانية كثير من كتابات باسيليوس الكبير أسقف قيصرية (٣٢٩ م — ٣٧٩ م.) في العقيدة والرهبنة والمواعظ ، كما ترجم كثير من رسائله . وتعرف المكتبة العربية الكثير من أعماله ، منها كتاب الأكساميرون ، أي تفسير الأيام الستة للخليقة ترجمة عبد الله بن الفضل الأنطاكي ، وقوانين باسيليوس ونسكياته ، وكتاب ترتيب الرهبان النساك وقوانينهم ، وكتاب صلاح الحكيم وفساد الذميم ، ومسائل باسيليوس

وجريجوريوس ، وميامر باسيليوس ، وليتورجيته (قداسه) .

أما جريجوريوس النصيصي الذي كان أسقف نصيص (حوالي ٣٣٥ م — ٣٩٤ م.) فقد تُرجم له الى السريانية أعمال مختلفة في العقيدة والمواعظ والرهبنة والجدل. وتعرف المكتبة العربية عدداً من كتبه ترجمها عبد الله بن الفضل الانطاكي وغيره ، منها تفسيره لنشيد الأناشيد ، وحكمة سليمان ، وسفر الجامعة ، وشرح عنوانات المزامير ، وكتاب خلقة الانسان ، وهو تتمة كتاب الأكسيمرون الذي وضعه القديس باسيليوس، وكتاب الفردوس العقلي ، وكتاب مختصر كنز الأسرار ، وكتاب الأبواب في صفة طبيعة الانسان ، الذي ترجمه من اليونانية الى العربية حنين بن إسحاق ، وكتاب مديح القديس جريجوريوس للقديس افريم ، وكتاب ايساغوجي ، وهو المدخل الى قاطيفورياس وهو ذو فائدة في تقسيم المعاني وتفهيم أصول العقيدة التي عليها أسست المعاني .

وكذلك ترجمت الى السريانية كتابات يوحنا فم الذهب (٣٥٤م — ٤٠٧ م.) بطرق القسطنطينية وإمام الخطباء الكنسيين ، وسمي لعذوبة حديثه بفم الذهب، وأكثر كتاباته شروح على الكتاب المقدس ، وجعل شروحه على طريقة التعليم ، وآخر مقالاته مواعظ . وفسر متى ويوحنا في أربعة كتب ، وله رسائل بولس ، ورسائل الأعياد ومقالات في الكهنوت، ورسائل ينتقد فيها كل من يعتقد مذهباً فاسداً . وتعرف المكتبة العربية كثيراً من كتابات يوحنا جلها من ترجمة عبد الله بن الفضل الانطاكي ، منها شرحه لسفر التكوين وأيام الخليقة الستة وشرحه لانجيلي متى ويوحنا ، وبعض رسائل بولس ، وكتاب الكهنوت ، وكتاب المواعظ ، وكتاب الدر المنتخب ، ويشمل ٣٤ مقالة ، ومحن أيوب الصديق، وليتورجيه ، وميامر متفرقة في الكتب الدينية والمجاميع الروحية. وله سيرة من وضع جيورجيوس بطرق القسطنطينية في القرن الثاني عشر .

وكذلك ترجمت الى السريانية بعض مواعظ ورسائل لاثناسيوس الرسولي أو الاسكندري (٢٩٥م—٣٧٣م.) . وتعرف له المكتبة العربية تراجم لبعض كتب تنسب اليه، منها كتاب البرهان ، وكتاب الرد على اليهود ، وعدد من المواعظ والميامر والخطب .

وقد تُرجم الى السريانية في هذا القرن مجموعة قوانين يونانية استخدمت في مجمع

الجاثليق "يب الله"، ككتاب قوانين لمسيحيي الفرس، ويشمل — الى جانب القوانين الرسولية — قوانين مجمع نيقية، والمجامع الشرقية المحلية في انقرة وقيصرية الجديدة (٣١٤م—٣٢٥م) وجنجرا وانطاكية واللاذقية. وقد زيد عليه بعض قوانين مجمعي أفزوس وكلكدونية في وقت متأخر وعرفت هذه المجموعة في منبج سنة ٥٠٠ م. وهي في العربية باسم كتاب الناموس في قوانين الرسل والآباء والمجامع. ترجمه الياس الدمشقي ابن الجوهري مطران القدس النسطوري المتوفي في أوائل القرن العاشر.

وفي هذا القرن أيضاً ترجم الى السريانية كتاب القوانين السريانية الرومانية، ويعرف باسم كتاب الناموس الذي وضعه القياصرة: قسطنطين، وتيودوسيوس الأول، ولاون (ليو)، وهي قوانين دنيوية مدنية وضعت للشئون السريانية الكنسية. ويغلب على الظن أن أحد رجال الدين قد صنّف حوالي سنة ٤٧٦ م. كتاب القانون الروماني باللغة اليونانية ليسد به فراغاً، شعر بضرورة ملحة الى ملئه. ومع أن المؤلف قد توخى في وضع كتابه اللباقة والمنهج العلمي إلاّ أنه كانت تنقصه الثقافة القانونية، وأكمل جزء فيه الجزء الخاص بالزواج والميراث. والراجح أن تأليف هذا الكتاب كان في الفترة التي تقع بين موت لاون سنة ٤٧٤ م، حيث ذُكِرَ اسمُه عدّة مرات، وبين ظهور كتاب في القوانين لزينون (٤٧٤م — ٤٩١ م) وكان هذا القانون يطبق في سوريا بين أصحاب الطبيعة الواحدة، ولا يستبعد مطلقاً أن يكون ذاك القانون غريباً في نشأته عن هذا الاقليم، إلاّ أنه كان معمولاً به هناك. وقد سمّاه العلماء بالقانون السرياني الروماني نسبة الى مصدره والجهة التي كان معمولاً به فيها. وقد سمي في مخطوط متأخر باسم «كتاب القوانين الذي منحه المؤمنون والمحبون لله القياصرة «قسطنطين وتيودوسيوس ولاون». والسبب في نسبة هذا الكتاب الى هؤلاء الأباطرة ورود أسمائهم فيه.

ونحن نرجح أن أقدم ترجمة لهذه القوانين السريانية كانت في الربع الأخير من القرن الخامس بعد سنة ٤٦٨ م. وقد وصلتنا أربعة نصوص سريانية لهذا الكتاب وترجمة أرمنية وأخرى عربية من وضع النسطوري أبو الفرج عبدالله بن الطيب. وقد عُرفت أول ترجمة سريانية له عند أصحاب الطبيعة الواحدة، والثلاثة الباقية عند النساطرة، وهي قريبة الشبه

من بعضها . ويرى الأستاذ نللينو المستشرق الايطالي أن هذا الكتاب لم يكن موضوعاً للتطبيق العملي ، ولكنه كتاب علمي مدرسي ، كان الغرض منه تعليمي محض ، وأنه وُضع باليونانية أولاً حوالي سنة ٤٧٦ م . وأن المؤلف ليس من أصحاب الطبيعة الواحدة ولكنه ملكي المذهب من أتباع الدولة الرومانية الشرقية ، غير أننا لا نستطيع أن نجزم أنه كان من رجال الدين . ويرجح الأستاذ نللينو أن ترجمته الى السريانية وإدماجه في القانون النسطوري كان في أواسط القرن الثامن ، لأنه ثابت أن النساطرة لم يعرفوا عنه شيئاً قبل هذا القرن . وقد ذكره أبو الفرج حين ذكره لمجمعي الجاثليق جيورجيس الأول سنة ٦٧٦ م . والجاثليق حنا نيشوع الثاني سنة ٧٧٥ م .

وما ذهب اليه الأستاذ نللينو صحيح فيما يختص بالترجمة السريانية النسطورية ، ولكن الراجح أن أقدم ترجمة لهذه القوانين كانت ترجمة أصحاب الطبيعة الواحدة في أواخر القرن الخامس . ثمّ ترجمها النساطرة بعد ذلك في أواسط القرن الثامن ، وأخذها الملكيون بعد ذلك باسم قوانين الملوك ، وكان ذلك في مصر على الأرجح ، وفيها ترجمت الى العربية في نهاية القرن الحادي عشر ، ثم اتخذها الموارنة بعد ذلك مع بعض التحوير باسم « كتاب الهدى » . أما عند الأقباط فقد استعان به أولاً البطرق غبريال الثاني (١١٣١ م — ١١٤٥ م) في وضع نظام الميراث ، ولكنه سرعان ما ظهر عند الأقباط بعد ذلك ضمن كتاب « الكتب الأربعة في قوانين الملوك » . وقد أشار الصّفي بن العسال الى ذلك في مقدمته . ويشمل هذا الكتاب كما عرفه الملكيون والأقباط ١٣٠ مادّة

القصص السرياني

في القرن الخامس

في هذا القرن نرى لأول مرة أن أدب اللغة الآرامية الشرقية بدأ يستخدم القصص ، وكان القصص أول أمره متصلاً ببعض المناحي الدينية : فكان منه ما هو متصل بالتبشير في الرُّها كما هي الحال في سيرة أدّى وأعماله ، وقد عرضنا لها عند الحديث عن انتشار المسيحية في بلاد السريان (ص ٤٤ وما بعدها) ، وما هو متصل بالقصص في الكتاب المقدّس كقصة مغارة الكنوز التي هي مزيج من قصص العهدين القديم

والجديد ، وسيرة يوسف الصديق المنظومة التي رأينا لها صورتين تنسب أولاهما الى بالي والثانية الى نرسي . ومنه قصص محلية وضعت في الرُّها لتمجيد أعمال القديسين، كسيرة جوريا وشيمونا وحبيب ، أو قصص وضعت في الرُّها وانتشرت في الغرب بعد ذلك عن طريق اليونانية واللاتينية، كسيرة الكسيوس رجل الله ، وقصة منظومة عن برص قسطنطين الأكبر وشفائه ، وقصة النائمين السبعة من أهل أفزوس التي تعرف في العربية باسم أهل الكهف ، وقصة برلام ويواسف . ثم قصص غربية دخلت الى السريانية ، كقصة العثور على الصليب ، وقصة مريم ، وسير شهداء اليونان .

أما قصة مغارة الكنوز فاستمدّت عنوانها من المغارة التي يقال إن آدم كان قد اختبأ فيها بعد خروجه من الجنة ، وهي تقوم على أصل كان ذائعاً في الأوساط اليهودية المسيحية للدفاع عن نسب المسيح ضد ما وصمه به اليهود ، وفي الظن أن هذا الأصل يرجع الى أواسط القرن الرابع والى مصادر أقدم من ذلك ، مثل كتاب آدم الذي كان معروفاً عند أصحاب شيث والذين مذهبهم تمجيد شيث بن آدم ، وتسلسل النسب من شيث الى مريم والمسيح وكتاب مغارة الكنوز مملوء أصله السرياني بمواد قصصية مختلفة ، ويظهر فيه حوار قائم على الجدل بين النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة ، ولذلك فقد اشتهر عند النساطرة واليعاقبة على السواء ، وتُنسب هذه القصة خطأً الى إفريم . وقد ترجمت الى العربية في عهد متقدم وقد وصلت الينا هذه الترجمة على رأس مجموعة تحت عنوان « كتاب المجال » . وتُرجمت أجزاء منها الى الحبشية القديمة .

وأما قصة برص قسطنطين الأكبر وشفائه بالمعمودية ، فيرجع نصها المنظوم الى القرن الخامس ، وهناك نص نثري يخالف النص المنظوم ، و يتفق مع ما عرف من هذه القصة في اليونانية واللاتينية ، وهو أن تعميد القيصر كان في روما . وبعيد أن يكون النص الأخير للقصة كتب بعد منتصف القرن السادس .

ومُجمل هذه القصة أنه نزل بقسطنطين برَص فلما انتقل الى مدينة روما هرب من كان بها من المسيحيين خوفاً على أنفسهم منه ، فأتاه قوم من الوثنيين وقالوا له : إن أردت أيها الملك أن تبرأ من برصك فاذبح أطفال هذه المدينة واغتسل بدمائهم ، فأمر الملكُ بذلك .

فلما جمعت الأطفال ضجّت المدينة بالبكاء ، ورأى قسطنطين ذلك ، فرقّ قلبه ، ورجع عن عزمه ، وأعاد الأطفال الى ذويهم ؛ وفي الليل رأى في منامه رجلين يقولان له : إنك لن تبرأ من برصك إلاّ على يدي أوسابيوس أسقف روما الذي فرّ خوفاً منك ، فلما أصبح الملك أمر فأحضر الأسقف، وقصّ عليه ما رآه في منامه . فأخبره الأسقف أن الرجلين هما بطرس وبولس من تلاميذ المسيح، وعرض عليه صورتهما فعرفهما الملك ، واعتنق المسيحية ، وما كاد يفعل حتى سقط البرص من جسمه مثل قشور السمك ، وبرىء الملك من علته .

أما قصة النائمين السبعة التي تعرف في العربية باسم قصة أهل الكهف فقد بدأت تتطوّر منذ منتصف القرن الخامس فكانت ذات صبغتين : إحداهما نسطورية ، والثانية مع أصحاب الطبيعة الواحدة .

أما قصة ابن الملك يواسف ومعلمه المسيحي « برلام » فهي من أخير القصص الروحية في العصور الوسطى وأشهرها ، وقد أصبحت بفضل اتجاهها الأدبي والاخلاقي من الكتب الدولية الشعبية ، وُضع أصلها بالسريانية ، وضعه بعض المبشرين من السريان النساطرة الذين رحلوا الى الهند ، والراجح أن مادة القصة تعتمد على أصل بوذي وأنها لقيت رواجاً في كلقدونية وفي مناطق أصحاب الطبيعة الواحدة ، ومع ذلك فإن رواجها في هذه الأقاليم لا يمكن أن يكون دليلاً على أنها من وضع أصحاب الطبيعة الواحدة . والذي نرجحه أنها نقلت من السريانية الى اليونانية ، وأن الذي وضعها بالسريانية صقلها بالطابع المسيحي لكي توائم ذوق الشعب الذي كتبت له . فلما ترجمت الى اليونانية صقلت بالطابع اليوناني أيضاً ، وعن اليونانية وصلت الى العالم الغربي ، ثم نقلت الى الأرمنية والعربية والحبشية القديمة . ويُعزى النص اليوناني الى يوحنا الدمشقي ، وهناك من يرى أنه يرجع الى راهب فلسطيني اسمه يوحنا وأن المؤلف عاش في أواخر القرن العاشر . وهناك من يرى أيضاً أن أصل النص الذي ترجم الى اليونانية عربي إسلامي منقول عن ترجمة بهلوية لقصة بوذية ، وأن أول ترجمة عربية كانت في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، وكلها احتمالات ضعيفة إذ أن أقدم نص سرياني لهذه القصة يرجع الى القرن الخامس .

وملخص القصة أنه كان بأرض الهند ملك كبير يحب الدنيا ويعمل جاهداً لها، ويكره الزهد، ويحرق الزاهدين. فلما كان ذات يوم سأل عن رجل من خاصته، فقيل له إنه قد زهد في الدنيا، فعظم ذلك عليه، وأرسل في طلبه. فلما مثل بين يديه، أنكر عليه الملك اهلاكه لنفسه ومفارقته لأهله، فأجابه الناسك بأن الدنيا الى فناء: فحياتها موت، وغناها فقر، وفرحها حزن، وشبعها جوع، وصحتها سقم، وقوتها ضعف، وعزها ذل، ولذتها ألم، وأنها الصاحب المؤذي، والطريق المهلك، والمركب الخشن؛ تجمع لصاحبها الأغاني والمضحكين والمادحين، ثم تجمع عليه النوائح والباكين والنادبين؛ واستمر الناسك على ذلك يصف الدنيا وأهلها في حديث طويل، وما انتهى منه حتى سأل الملكَ هل يريد أن يصف له الآخرة فلم يكن جواب الملك الاّ أن جازاه بالشقاء والحرمان وبطرده من مملكته.

ويدور الفلك ويرزق الملك بغلام بعد يأس، فيجمع المنجمين والعلماء فيبلغونه أن هذا المولود سيبلغ مرتبة لم يبلغها ملك من ملوك الأرض، وأنه سيكون إماماً في النسك، فيشيع الحزن والبؤس في نفس الملك من أجل ذلك، ولكنه يطرق حيناً ثم يأمر فاذا مدينة قد أخليت ممن فيها، وإذا بين يديه جماعة ممن نبغوا في التربية، واذا هو يلقي اليهم بأنه سيعهد اليهم بولي العهد ويوصيهم بألاّ يذكر أحدهم شيئاً عن الموت أو الآخرة، أو الدين أو الزهد؛ ولا أن يسمحوا لبصره بأن يقع على شيء مادي تستفاد منه هذه المعاني.

وينظر الملك فاذا للنساك منزلة في قلوب الناس، ولكنه لا يطمئن لذلك ويأمر بنفيهم من بلاده، ويتوعدهم بالقتل، فأخذوا في الهرب والتخفي.

وكبر ابن الملك ونبت نباتاً حسناً، ونشأ عالماً فاضلاً، ولكنه نظر فاذا أمره الى جماعة لم ير لهم على نفسه فضل، واذا هم يحاصرونه في ذلك البلد وهو لا يفهم لذلك معنى، فمال الى واحد كان يأنس اليه من هذه الجماعة وما زال به حتى استوضحه جلية الأمر. فكاشف أباه بأنه يرى في مقامه هذا ضيقاً وسوء حال، ويتعلل الأب بأنه إنما يريد أن يبعد عنه الأذى حتى لا يرى ولا يسمع الاّ ما يسره، ولكنه رأى أن حبسه لن يزيده إلاّ إغراء، فأمر المربين أن يخرجوا به الى ظاهر المدينة وأن يجنبوه النظر الى ما يسوء، ولكنه سرعان ما يرى الشيخوخة ويعلم أنها بداية طريق الموت، ثم يسأل عن طول

الطريق التي تنتهي بالمرء الى هذه الخاتمة، فيعلم انه مهما طال فلن يجاوز المائة عام ، ثم يتدبر الأمر فيرى الأيام تمر سراعاً ، وأن الأجل غير طويل ، وأن الأمر لغير ما نشتغل به . فانصرفت نفسه عن الدنيا ، ثم سأل فعلم أن هناك جماعة هم النساك يختلف شأنهم عن عامة الناس ، يرفضون الدنيا ويطلبون الآخرة ، ولكنه يعلم أن الناس يعادونهم وأن الملك أباه قد نفاهم وأحرقهم بالنار .

تقول القصة إن أمر ابن الملك قد اشتهر حتى بلغ ناسكاً اسمه برلام فسار حتى بلغ المدينة التي يقيم فيها وخلع لباس النساك ولبس ثياب التجار واحتال حتى وصل الى ابن الملك ، وما زال به يشبه له الناسك بتابوت النار المملوء بالذهب ظاهره غث وباطنه ثمين ، ويشبه له المتزينين من الاشراف بتابوت الذهب المملوء بالجيفة القذرة النتنة ، ثم ما زال به يضرب له الأمثال عن الدنيا وغرور أهلها بها وما هم عليه، وعن صاحب الدنيا المغرور فيها بما لا ينفعه، ويصف له الحكمة. وابن الملك منصت يستزيده ويتمنى لو يسمع أبوه شيئاً من هذا الكلام وهو مع هذا مشفق عليه متوجع له . ثم أخذ الناسك يوضح له الفرق بين النساك وبين عبّاد الأصنام . ولم يزل برلام يتردد على ابن الملك أربعة أشهر وهو يغذيه بلبان الحكمة ويدني نفسه الى الزهد في الدنيا ، وفي يوم زعم برلام أن له عيداً يريد أن يحضره مع أصحابه . فقال له ابن الملك: أنا أخرج معك . فقال له برلام : إن خروجك معي فيه تحريض للملك عليّ وعلى أصحابي ، وإن بقاءك عند الملك تكفه عن أهل الدين ، وفي ذلك عبادة لك . وخرج برلام بعد أن تعاهدا على أن يرجع لابن الملك قبل أن يحول الحول .

أما قصة العثور على الصليب فالظاهر أنها طارئة على الرُّها ، دخلت اليها من الغرب ، مما رواه أمبروزيوس وروفينوس عن قصة هيلانة الأصلية ، وهي تعارض هنا ما جاء في سيرة أدّى التي ذكرت أن پروتونيكي زوجة القيصر كلاودوس ، هي التي عثرت على الصليب ومن هذه القصة السريانية ، ومن القصة الغربية قصة هيلانة نشأت قصة سريانية تدور حول عثور هيلانه على الصليب . وأن إيهوذا قرياقس أسقف بيت المقدس اليهودي الأصل قد لعب دوراً هامّاً في العثور عليه . ولم تكتف السريانية بنقل النص الموجود في اليونانية واللاتينية بل أضافت اليه قصة استشهاد إيهوذا قرياقس .

وقد درس العلماء هذه القصة في لغاتها المختلفة شرقية وغربية ، غير النص العربي فإنه لم يدرس دراسة علمية صحيحة ، والراجح أنه مأخوذ عن السريانيـة . وقد استخدمت العجائب المعزوة الى الصليب في بعض الأغراض الجدلية ، كما استخدمت في تبرير عبادة الصليب.

وترجع القصة الى السنة السابعة من مُلك قسطنطين حينما خرجت جيوش البربر لغزو بلاد الروم وتخريبها ونزلت على نهر دوبانيس ، ويرى قسطنطين ذلك فيبرز اليهم في جيشه ، وينزل بحيث يقاربهم من هذا النهر ، ويعزم على لقائهم ، ولكنه يعلم بوفرة جيشهم وكثرة عدته ، فيجبن عن مقارعتهم ، ويزداد اضطرابه حين يعلم بعزم العدو على مباكرته ، وينام مهموماً فيرى في منامه أنه ينظر الى السماء فيراها تنفتح عن ضوء عظيم يصدر عن صليب مؤلف من الكواكب ، واذا هو يقرأ بين هذه الكواكب « إنك تغلب بهذا الصليب » فيهب قسطنطين من نومه متعجلاً ، ويأمر بصياغة صليب من الذهب بنفس الشكل الذي رآه في منامه ، ويأمر بوضعه على رأس علمه ، ويتحرك جيشه لملاقاة العدو فيوقع به الهزيمة .

تقول القصة : ثم إن الملك جمع علماء اليهود والوثنيين ليتجادلوا مع المسيحيين في أمور الدين بحضرته ، فلما تبين له رجحان كفة المسيحية أبعد اليهود والوثنيين عن مراتب الدولة . ثم سأل عن خبر الصليب فأنبيء به ، ثم سأل عن مكانه فلم يجد من يعلم ، إلا أنه كان في بيت المقدس ، فكلف هيلانة والدته بالمسير الى بيت المقدس والاهتمام بالبحث عن هذا الصليب ، فتوجهت الى هناك في عسكر جرّار ، وزوّدها بالأموال الوفيرة وستور الديباج الفاخرة ، والأواني المقدسة للمذابح من الذهب والفضة ، وكان اليهود قد دفنوا الصليب والمسامير في بئر وجعلوا عليها مزابل أهل البلد حتى صارت مع طول الزمان كالجبل العظيم . فلما وصلت هيلانة الى بيت المقدس استدعت الكسندروس أسقفها وأعلمته بما جاءت من أجله ، وأمرت باستدعاء وجوه اليهود ، ولما حضروا مجلسها سألتهم عن الصليب — وكان بينهم واحد اسمه ايهوذا كان معروفاً ان أباه قد أخبره بموضعه — فأجمعوا على أن الذي يعرف موضعه هو إيهوذا .

تقول القصة : ثم إن هيلانة انطلقت ومعها إيهوذا حتى دلها على المزبلة . فأخذت هيلانة تنثر فوقها المال ، والناس يحتفرونها بحثاً عن المال ، حتى رفعوا المزبلة من فوق البئر، وتقدم إيهوذا الى الموضع واحتفره ففاحت منه رائحة ذكية ، فوصل الحفر حتى وجد ثلاثة صلبان فأخرجها ، ثم سئل عن المسامير فعاود الحفر حتى وجدها . وبينما كانت هيلانة تفكر كيف تميز صليب المسيح من صليبي اللصين اذ أقبل قوم وبين أيديهم سرير ميت ، فقال إيهوذا الآن نتعرّف أيها صليب المسيح ، وأخذ يضع الصلبان واحداً بعد الآخر على جسد الميت ، فلما وضع الصليب الثالث نهض الميت فضج الناس للآية . وأخذت هيلانة الصليب وصفّحته بالذهب ورصعته بالجواهر واتخذت له تابوتاً من الذهب أودعته فيه وصاغت من المسامير لجاماً لفرس ابنها . أما إيهوذا فانه مال الى المسيحية واعتنقها واتخذ لنفسه لقب قرياقس ، ثم رسم أسقفاً على بيت المقدس بعد وفاة الكسندروس أسقفها .

وآخر القصص التي تنسب الى هذا القرن هي قصة مريم ، وقد وُضعت حيث المتكلمون بالسريانية ، ووصلتنا في نصين مختلفين حوالي سنة ٥٠٠ م . الأول قريب الشبه جدا من أسلوب رسالة ليوحنا الرسول ، والثانى قريب الشبه جداً من أسلوب ميمر ليوحنا التسالونيكي . ويظهر في النص الأول تأثير قصة ابجر وقصة العثور على الصليب .

كتّاب السريان

في القرن السادس

كتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة

حملت أنطاكية لواء النساطرة في الاعتقاد بالطبيعتين ، ولقيت آراؤهم معارضة شديدة من الآراء السكندرية التي كانت تقول بالطبيعة الواحدة . ولم يكن القرار الذي اتخذه مجمع كلقدونية بحرمان النساطرة ذا أثر عليهم ، بل قابلوه بمعارضة وعناد قويين في الشرق . وقد ظهر أثرهم قويّاً الى حدّ بعيد على الحكومة في مناطق الكنيسة الآرامية الشرقية التي لا تتكلم اليونانية .

فلما انتقل النساطرة الى بلاد الفرس شهد مطلع القرن السادس عصر اضطهاد عظيم لأصحاب الطبيعة الواحدة فيما بين سنتي ٥١٢ . و٥١٨ م . حينما كان سويرس الأنطاكي بطرقاً على أنطاكية العاصمة الهلينستية في بلاد السريان في ذلك الحين . ومع أنه كانت لأصحاب الطبيعة الواحدة كنيسة قومية أعيد تنظيمها تبعاً لآراء سويرس الأنطاكي . إلاّ أن تطوّر الأدب السرياني الخالص لأصحاب الطبيعة الواحدة قبل الإسلام لم يتعدّ أراضي الدولة الرومانية . ولم تكن آثارهم الأدبية أقل من الآثار التي خلفها النساطرة . أما الآثار التي ظهرت في المملكة الساسانية فكانت ممزوجة بعناصر فارسية .

ومع أن أصحاب الطبيعة الواحدة كانوا يقيمون في الأقاليم التي كان يظلها النفوذ الروماني إلاّ أن قوّة اتصال حركتهم الأدبية بالثقافة اليونانية كانت أقل مما كانت عليه عند النساطرة ، بل يعدّ السبق في هذا الاتصال للنساطرة أيضاً . فنحن نرى أن النساطرة هم الذين بدءوا بحركة الترجمة من اليونانية الى السريانية في القرن الخامس ، على حين نرى أن الترجمة ظهرت عند أصحاب الطبيعة الواحدة بعد ذلك في القرن السادس .

وقد ظهر من الكتّاب المجيدين في هذه الفترة اكسنايا أوفيلو كسينوس المنبجي الكاتب الناثر المبدع ، وكان معاصره بوليكاربوس مترجماً ماهراً عن اليونانية، وكذلك كان سمعان البيت أرشامي . وظهر الى جانبهم في هذا العصر يشوع العمودي الكاتب المؤرخ .

اكسنايا (فيلوكسينوس المنبجي)

اسمه السرياني اكسنايا ، ومعناه الغريب . أما فيلوكسينوس فهو اسمه باليونانية ومعناه محب الغريب . وُلد في المنطقة الفارسية في قرية طَحَل في بيت جرمي بين الدجلة والزاب الأصغر . وتلقى العلم مع أخيه أدّى على ايهيبا بالمدرسة الفارسية بالرُّها ، ولكنه خرج على تعاليم النساطرة التي كان يلقنه إياها أسقف الرُّها ، ورفض عقيدة أصحاب الطبيعتين ، وكان متحمساً لعقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة ، وخصص حياته للدفاع عنها ضد النساطرة وأصحاب مجمع كلقدونية في ضواحي أنطاكيا والجزء الشمالي مما بين النهرين على الرغم مما أصابه من الأذى على أيدي أعداء عقيدته ، وهو يتحدث بنفسه عن ذلك في خطاب أرسله في سنيه الأخيرة الى رهبان دير سنون بالقرب من الرُّها فيقول : « إن كل ما تحملته من فلافيان وما قيدونيس أسقفي أنطاكية والقسطنطينية ، وما قاسيته قبلهما على يد قلنديون معروف يتحدث الناس به في كل مكان ، وإني لألتزم الصمت عما لحقني أيام حرب الفرس بإغراء فلافيان المهرطق وعلى ملأ من الأعيان ، وعما أصابني في الرُّها وفي أفامية وفي أنطاكية عندما كنت في دير القديس مار بسوس ، وفي أنطاكية نفسها ، وكذلك في القسطنطينية ، التي شددت الرحال إليها في مناسبتين . هذه الأشياء وأشباهها أصابتني من النساطرة المهرطقين » .

بدأ حياته بمهاجمة النسطورية لكسر شوكة الدعاية القوية التي كانت تبثها المدرسة الفارسية في الرُّها لعقيدة أصحاب الطبيعتين بما كانت تقوم به من تلقين هذه العقيدة . فطرده « قلنديون » بطرق أنطاكيا ، فلما عُزل قلنديون عن كرسيه سنة ٤٨٥ م . نادى به خلفه بطرس المشائي (القصّار) أسقفاً على منبج ، ولم يكد يستقر على كرسيه حتى عاود العمل ضد المدرسة الفارسية في الرُّها ، ويقولون إنه حرّض الأسقف سيروس على إغراء الامبراطور زينون بإغلاق المدرسة الفارسية . وقد تمّ له ما أراد فإن زينون أمر بإغلاقها سنة ٤٨٩ م . ولم يكتف بذلك بل بادر بعد وفاة زينون سنة ٤٩١ م . بالانتفاع بما لأصحاب الطبيعة الواحدة من حظوة عند انستاس ، فسافر الى القسطنطينية مرتين في

سنتي ٤٩٩ م و ٥٠٦ م . ليعمل على إيغار صدر الامبراطور ضد أصحاب الطبيعتين ، فكان ذلك سبباً في استثارة ماقيدونيس رئيس أساقفة القسطنطينية وفلافيان خليفة بطرس على كرسي بطرقية أنطاكيا (٤٩٨ م — ٥١٢ م .) لحقدا عليه ولم يكتفيا باضطهاده بل حاولا أيضاً استئصال تعاليم أصحاب الطبيعة الواحدة بالقوة. ولكن اكسنايا نجح أخيراً بمساعدة سوتيرنيخوس أسقف قيسارية في قبادوقيا من استصدار أمر سنة ٥١٢ م . بنفي فلافيان. ثم رأس مجمعاً في نفس العام انتخب فيه سويرس صديق اكسنايا خلفاً لفلافيان على انطاكيا . ولكن انتصاره لم يدم طويلاً فإن جوستين خليفة انسطاس كان يشايع النساطرة ، فبدأ في اضطهاد أصحاب الطبيعة الواحدة ، فأصدر سنة ٥١٩ م. أمراً بعزله هو ونيف وخمسين أسقفاً من أساقفة أصحاب الطبيعة الواحدة ونفيهم لامتناعهم من التوقيع على قرارات مجمع كلقدونية الذي قرر أن للمسيح طبيعتين : واحدة إلهية وأخرى انسانية ، وكان بين من نُفي سويرس ويوحنا التلي ومارا الآمدي ، فنفي اكسنايا أولاً الى فيليبوبوليس في تراقيا (ولاية أدرنة) وفيها كتب رسالته الى رهبان دير سنون سنة ٥٢٢ م . ثم نقل بعد ذلك الى جنجرا في ولاية بافلاجونيا حيث لقى حتفه هناك غدراً فمات مختنقاً بالدخان في غرفته سنة ٥٢٣ م. وتحتفل الكنيسة اليعقوبية بذكراه في ١٠ ديسمبر و١٨ فبراير وأول ابريل من كل عام .

ومع أن اكسنايا كان رجل كفاح وجهاد فانه كان — الى جانب ذلك — أديباً نابهاً وكاتباً رقيق العبارة ، والسريان يعدونه في المرتبة الأولى من كتّابهم . ومع أن السمعاني لم يترك فرصة للحط من قدره ، الاّ أنه كان مع ذلك مضطراً الى ان يعترف بأنه من خيرة كتّاب السريان . وكان كفاحه من أجل العقيدة حافزاً له على اخراج هذا القدر من الأبحاث حول المسائل الدينية ، وكانت تغلب على كتاباته هذه طابع المؤمن الذي يدافع عن عقيدته لا طابع المفكر النابه كما يغلب على بقية مؤلفاته .

فمن كتاباته الدينية : ترجمة الكتاب المقدس التي تحمل اسمه ، فالكنيسة السريانية مدينة له بأول ترجمة حرفية منقحة للاناجيل ، ففي العصر الذي كان يعيش فيه كانت الحاجة ماسة الى نقل صورة سريانية دقيقة للنص اليوناني للأناجيل ، فبدأ حوالي سنة ٥٠٥ م .

بمعاونة مساعده پوليكارپوس بترجمة الكتاب المقدس بعهديه ترجمة حرفية . فأتما في سنة ٥٠٨م. ما يعرف الآن بالترجمة الفيلوكسينية التي كان لها شأن عظيم في القرن السادس بين أصحاب الطبيعة الواحدة، فإن موسى الأجيلي مثلاً يشير الى ترجمته للعهد الجديد والمزامير على أنها العمل النموذجي لذلك العصر . وقد روجعت ترجمته هذه بعد ذلك في مطلع القرن السابع حوالي سنة ٦١٦ م. في أحد أديرة الاسكندرية ، فراجع بولس التلي ترجمة العهد القديم ، وراجع توما الحرقلاوي ترجمة العهد الجديد .

ومنها شروحه على الاناجيل وقد وصلتنا ناقصة في مخطوطين من القرن السادس محفوظين بالمتحف البريطاني. ورسالة عن الثالوث المقدس ضمنها وجهة نظره في شرحه للعقيدة وتشمل عشرة فصول . وكتاب عن التعاليم الأخلاقية المسيحية ، ويشمل ثلاث عشرة موعظة يدور موضوعها حول حياة المسيحي الحق ، وهي في مجموعها عبارة عن رسالة الأخلاق الدينية والحياة المسيحية ، ومجموعة من النظم حول التصوّف ، ولا نجد فيها أية اشارة الى الخلافات في العقيدة التي كان للمؤلف نصيب كبير فيها . وعنوان هذه الرسائل «رسائل حول صحة الآداب من تأليف مارفيلوكسينوس أسقف منبج ، الذي علم كيف يبدأ المرء أن يكون تلميذاً للمسيح وبأي النظم والأخلاق يكوّن المرء نفسه لكي يصل الى مرتبة الحب الروحاني ، وكيف يخلق الكمال الذي يهيئنا للتشبه بالمسيح في رأي البطرق بولس . وتقوم الموعظة الأولى مقام الاستهلال للكتاب . وتتناول المواعظ الاثنتي عشرة الباقية : العقيدة ، البساطة ، الله ، الفقر ، شهوات اللحم ، الزهد ، الزنا . وليس من شك في أن المؤلف كان متأثراً في كتابة هذه المواعظ بمنهج أفرهاط في مواعظه فقد بحث في العقيدة ، أساس الدين أولاً كأفرهاط ، ولكنه لم يتعرض للحديث عن التضرع والدعاء وهو موضوع موعظة أفرهاط الرابعة . وليست هذه المواعظ كلها شيقة الاّ انها مع ذلك أفضل بكثير من مواعظ أفرهاط ، فقد استخدم المؤلف فيها عباراته الموسيقية الطويلة ، وبسط فيها أساليبه المختلفة في الكتابة التي كانت تعجب يعقوب الرهاوي كثيراً . ولكننا مع ذلك كثيراً ما نلحظ تأثر هذا المؤلف باليونانية ، وذلك فيما يظهر راجع الى اتصاله بالتفكير اليوناني . وقد لاحظ المستشرق الانجليزي

بدج (Budge) أن العبارات التي اقتطفها اكسنايا من الكتاب المقدس في مواعظه تتفق مع نص البشيطتا . واستنتج من ذلك أن المؤلف وضع هذه المواعظ بعد سنة ٤٨٥ م . بعد تعيينه أسقفاً على منبج بقليل وقبل سنة ٥٠٨ م . وهي السنة التي انتهى فيها من ترجمته للكتاب المقدس .

وقد ظهرت له رسائل عن العقيدة والرهبنة موجهة الى القيصر زينون ورهبان بيت جوجل وآمد وتل عدي وسنون ، وراهب في دير غير معروف ، والبطارقة ابراهيم واورستس وغيرهم. ومن هذه الرسائل : (١) الاجابة على سؤال كيف يجب أن يعتقد المرء (٢) اعتراف بالعقيدة (٣) في الرد على الذين يجزئون المسيح (٤) اثنا عشر فصلاً في الرد على الذين يقولون إن للمسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً (٥) رسالة في الرد على النساطرة (٦) رسالة في الرد على نسطوريوس (٧) نقض لهرطقة ماني وغيرها من الهرطقات (٨) رسالة عن اسطفان بن صديلي .

وله غير ذلك ثلاثة قداسات، نشر رنودوت ترجمة لاتينية لاثنين منها في كتابه «مجموعة قداسات شرقية» ، وصلاة ، وأدعية لكسر الخبز المقدس ، واعتراف عن العقيدة ، وخطبة جنائزية ، وصيغة لمنح المعمودية للمرء وهو في النزع الأخير .

وله كذلك كتاب عن الرهبنة مؤلف على طريقة السؤال والجواب يعالج فيه النواحي المختلفة في حياة الرهبنة ويعتمد فيه على كتاب بستان الرُهبان لبلاديوس . وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية في مطلع القرن الرابع عشر (١٣٠٥ م .) ونقله المطران سلامه من العربية الى الحبشية في أيام حكم الملك سيف أرعد (١٣٤٤ م . — ١٣٧٢ م .) .

وله مقالات قصيرة في الجدل أهمها اثنتان عن التثليث والتجسد : الأولى في ثلاثة أقسام ، والثانية في عشرة أقسام ، وهو يذكر فيها أن أحد الأقانيم الثلاثة قد تألم وتجسَّد . وله حوار بينه وبين راهب نسطوري حول عبارة « إلهنا وسيدنا يسوع المسيح » وموعظة عن بشارة العذراء .

وله عدد آخر من الرسائل منها رسالة الى يعقوب السروجي وأخرى الى راهب عن الصمت في المدينة الإلهية ، وتنسب إليه رسالة موجهة الى أبي نفير الحيري . ورسائله

كثيرة ، ولها بعض القيمة في تاريخ الكنيسة في عصره . وقد عدّدها السمعاني ونشر مقتطفات منها في كتابه المكتبة الشرقية .

وقد ضاع الكثير من كتابات اكسنايا ، ذكر الأقدمون أن له كتابين يعارض فيهما قوانين برصوما النسطوري ، ورسالتين في الجدل ، وكتاب عن الأحكام ، وكتاب يعارض فيه حبيب الزيات في التجسد ، وبعض الرسائل والمواعظ والأقوال ، ولكن هذه كلها لم تصل إلينا .

وقد نقل بعض الرهبان من اليعاقبة بعض كتابات اكسنايا في الرهبنة، ورسالة في رتب الرهبان، وكتاب في التعاليم الأخلاقية ، وبعض شروح على العهدين القديم والجديد وكثير من الصلوات .

بوليكاربوس

كان أسقفاً في أبرشية منبج . ويقال إن اكسنايا كلفه ترجمة الكتاب المقدس من اليونانية ، فقام بترجمة العهدين القديم والجديد فيما بين سنتي ٥٠٥ م . و ٥٠٨ م . ترجمة حرفية . والظاهر أن هذه الترجمة قد لعبت دوراً هاماً في القرن السادس ، ولكن هذه الترجمة أهملت عند ما ظهرت الترجمة السداسية السريانية للعهد القديم ، والترجمة الحرقلاوية للعهد الجديد . وقد وصلتنا بعض قراءات متفرقة في رسائل بولس ترجع الى هذه الترجمة على الأرجح . وقد ذكر موسى الأجيلي أن بوليكاربوس ترجم العهد الجديد والمزامير ، ولكن يظهر أن ترجمته اشتملت على أجزاء من العهد القديم . وقد وصلتنا مقطوعات من هذه الترجمة في مخطوطات محفوظة في مكاتب فلورنسا وروما والمعهد اللاهوتي في نيويورك . وتشتمل على قطع من الأناجيل أُرِّخت ترجمتها في سنة ٥٨٠ م . وتشتمل كذلك على أقدم نصين لرؤيا يوحنا .

وينسب الى بوليكاربوس ترجمة النص السرياني للعهد القديم في رسائل القاثوليقون الأربعة ، وقد أُخذت عنها الترجمة العربية .

سمعان البيت ارشامي

هو أحد الرجالات البارزة الذين يمثلون عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة في الاقليم الفارسي ، وكان يلقب بالمجادل الفارسي لأنه كان يمتاز بنشاط عجيب في الدفاع عن عقيدته وعن معتنقيها في المملكة الساسانية ، سواء من الناحية العقلية أو في دفع الأذى عنهم : فكان يُطوِّف بالمقاطعات الفارسية يجادل المانويين والديصانيين والأوطيخيين والنساطرة. وقد أعجب به بابي الجاثليق النسطوري على أثر مجادلةٍ له معه فرسمه أسقفاً على بيت أرشام [١] أي فيما بين سنتي ٤٩٧ م . و ٥٠٣ م. أما عن تاريخ رسامته بالضبط فيذكر السمعاني اعتماداً على ما رواه ديونسيوس التلمحري أنه كان أسقفا على بيت أرشام فيما بين سنتي ٥١٠ م . و٥١٥ م . ولكن القطعة السريانية التي يقتطفها لا تشتمل إلاَّ على سنة ٥١٠م . وهو تاريخ غير صحيح . فاذا كان ما رواه يوحنا الأسيوي — والذي يعرفه شخصيًّا — صحيحاً فالمؤكد أنه عين أسقفاً قبل سنة ٥٠٣ م . وهي السنة التي توفي فيها بابي الجاثليق ، والراجح أنه بقي أسقفاً حتى سنة ٥١٠ م . إذ يؤرخ في هذا العام استشهاد ثلاثة من المجوس الذين اعتنقوا المسيحية على يديه .

وقد زار سمعان الحيرة أكثر من مرة . ومنها كتب خطابه الى سمعان رئيس دير جبول [٢] سنة ٥٢٤ م . عن استشهاد أهل حمير المسيحيين الذين اضطهدهم ذو نواس ملك اليمن اليهودي قبل كتابة الخطاب بعام . وزار القسطنطينية كذلك ثلاث مرات ، ومات فيها في زيارته الأخيرة حينما كان يقوم بزيارة الامبراطورة تيودورا قبل سنة ٥٤٨ م . بقليل . وقد وصلتنا سيرة لسمعان من وضع يوحنا الأسيوي .

أما كتاباته فتشتمل على صلاة ذكرها السمعاني في المكتبة الشرقية ، وخطاب الى شخصية مجهولة كتب حوالي سنة ٥١٠م . يعارض فيه برصوما لصبغه الكنيسة الفارسية الرسمية بالصبغة النسطورية ، تناول فيه أصل النسطورية وتاريخ انتشارها في الشرق ولكن من وجهة نظر طائفية ضيقة في أسلوب فيه كثير من الإقذاع ، ويعد من أقدم الوثائق عن الدعاية النسطورية في بلاد الفرس .

---

(١) قرية بالقرب من سلوقيا والمدائن. (٢) يقع على الشاطىء الشرقي لدجلة بين النعمانية وواسط

أما خطابه الثاني الى رئيس دير جبول الذي أشرنا اليه فيعد الوثيقة الأساسية لاضطهاد ذي نواس لمسيحيي اليمن في القرن السادس . وقد نشر ملخص له، يظن أنه من وضع يوحنا الآسيوي، مرات عدة . أما الجزء الأكبر من الخطاب فقد نشره جويدي المستشرق الإيطالي ثم أكسل موبرج (Axel Moberg) المستشرق السويدي .

وقد افتتح خطاب سمعان هذا بمقدمة عن اليهود وفساد معتقدهم ، والحميريين ومن أين جاءتهم اليهودية ، وكيف انتشرت النصرانية فيهم ، واضطهاد الحميريين للمسيحيين . وذهاب توما أسقف نجران على الأرجح الى بلاد حمير لأول مرة . ثم يورد ملخصاً لخطاب أرسله ذو نواس الى المنذر ملك العرب يحرضه فيه على اضطهاد المسيحيين ويذكر له كيف اغتصب المُلك . ثم ينتقل سمعان بعد ذلك الى وصف تطويق مدينة نجران ، وأخذه أهلها بالمخاتلة بعد أن استعصى عليه افتتاحها ، ويذكر أسماء من استشهد ويصف كيف استشهدوا ، وكيف وقعت مذبحة نجران ويختمه بذكر ما سمعه في الحيرة من قصص الاضطهاد التي لم ترد في خطاب ذي نواس . وطلب في ختام خطابه الى الأساقفة أن يصلّوا من أجل المسيحيين في بلاد حمير ، وأبدى أمله في أن يعمل أساقفة العقيدة الامبراطورية عند الامبراطور لكي يضع حداً لاضطهاد اليهود للمسيحيين .

اسطفان بن صُدَيْلي

وُلد في النصف الثاني من القرن الخامس ، وكان في مبدأ حياته يعقوبيًا . رحل في شبابه الى مصر ، وأقام بها زمناً تعلم أثناءه على رائد اسمه يوحنا ، وهو — فيما يظهر — الذي لقنّه آراء اوريجين عن وحدة الوجود التي عاد بها الى الرُّها . فابتدأ ينكر أبدية عذاب جهنم ، وأكد أن المذنبين سيعادون الى الله بعد تطهيرهم في النار « كي يكون الله الكل في الكل» (كورنثوس الأولى ١٥ : ٢٨) وقد طعن يعقوب السروجي واكسنايا في هذه العقيدة في خطابيهما .

فلما شاعت عنه هذه الآراء نُعِت بالإلحاد وطُرد من الرُّها فرحل الى دير في بيت المقدس حيث وجد بين رهبانه عدداً ممن يشاطرونه هذه الآراء . واستمرَّ — من بيت

المقدس — يراسل تلاميذه في الرُّها حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم .

وينسب الى ابن صُدّيلى كتاب هيروتيوس الذي أراد أن يحمل الناس على الاعتقاد بأنه نقله عن مؤلف يوناني اسمه هيروتيوس ، زعم أنه أستاذ ديونسوس الأريوباجي ، وهذا الكتاب عن أسرار الكنيسة ، وقد استعرض المؤلف فيه سلسلة آرائه . ولكن الأسلوب السرياني الرشيق لهذا الكتاب يؤكد لنا أنه من وضع أسطفان نفسه . وكانت الكنيسة في ذلك الحين تساير فلسفة أرسطو في شرح العقيدة ، ولكن اسطفان عمد الى إدخال آراء الفلسفة الإفلاطونية الحديثة في العقيدة فلم تجد محاولته أرضاً خصبة ، لذا لم تتعدَّ دائرة المعتنقين لهذا المذهب ، ولم يجد هذا الكتاب طريقه الى الانتشار حتى إن ابن العبري يقول إنه وجد مشقة كبيرة في الحصول على نسخة منه ، وقد وصل إلينا هذا الكتاب في نفس المخطوط الذي حصل عليه ابن العبري والذي يشتمل على شروح تيودوسيوس عليه .

وقد شرح البطرق تيودوسيوس (٨٨٧ م . — ٨٩٦ م .) هذا الكتاب بعد أن قدم له بمقدمة عامة وشرح كل فصل فيه على حدةٍ بعد أن قدم له بمقدمة خاصة ، وكذلك شرحه ابن العبري ، وكان شرحه — فيما يظهر — تلخيصاً لشرح تيودوسيوس . وقد قدَّر كل منهما قيمة آراء اسطفان في التنسك الشخصي والزهد . ولذلك حاولا في شرحهما أن يعدلا آراءه حتى تساير آراء أصحاب الطبيعة الواحدة . وكان لآراء اسطفان أثر ملموس في الصوفية الغربية في القرون الوسطى كما كان لها أثر على حركة التصوف في الاسلام .

ولاسطفان كذلك شروح رمزية على المزامير بقيت لنا منها مختارات في مخطوط بالمتحف البريطاني نسخ حوالي القرنين التاسع والعاشر . وله كذلك خطابات ورسائل وشروح صوفية على الكتاب المقدس أشار إليها اكسنايا في خطابه الى ابراهيم وأورست الرهاويين ولكنا لا نعرف عنها شيئاً .

وقد نشر المستشرق فروذنجهام بحثاً وافياً عن ابن صديلي تحت عنوان « اسطفان بن صديلى المتصوف السرياني وكتاب هيروتيوس » سنة ١٨٨٦ ضمنه كل ما يعرفه من كتاباته .

يوحنا بن قرصوص

ويعرف أيضاً بيوحنا التلي ، وكان من المشايعين لأصحاب الطبيعة الواحدة ، بل لعله أحد الذين مهدوا ليعقوب البردعي في تحويل السوريين إلى عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة . وبين أيدينا له سيرتان : الأولى من وضع يوحنا الآسيوي في كتابه « سير الآباء الشرقيين » . والثانية : من وضع الياس ، وهو فيما يُظن كان أحد تلاميذه أو أحد زملائه، كتبها بعد سنة ٥٤٢ م . أي بعد فتح الفرس للرقة .

ولد يوحنا في الرقة من أسرة شريفة ، فعنيت أمه الأرمل بتعليمه . والتحق بالجيش وهو في سن العشرين ، ولكنه تركه بعد قليل جاعلاً حياته لخدمة الدين ، فترهب ثم رسم أسقفاً على تلا أو قسطنطينة سنة ٥١٩ م. ولكن جوستين عزله سنة ٥٢١ م . ويروون أنه زار القسطنطينية سنة ٥٣٣ م . ولما كان في طريقه منها الى الشرق طارده أعداؤه فاختفى في جبال شيجار، ولكنهم تمكنوا من القبض عليه وحملوه الى نصيبين فرأس العين فانطاكيا حيث لقي حتفه سنة ٥٣٨ م. وهو في الخامسة والخمسين من عمره شهيداً، بعد ما سجن نحواً من عام في دير منسي بأمر افريم بطرق أنطاكية (٥٢٩ — ٥٤٤م).

أما كتاباته فهي : خطاب الى رهبان الأديرة المجاورة لمدينة تلاً عن عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة ، و٤٨ قانوناً عن القربان ، و٢٨ قانوناً أخرى الى رجال الدين، وهي ذات قيمة لتاريخ القداسات . ورسالة عن وظيفة الشماس . وشرح للتقديسات الثلاثة وموضعها من القداس . وكلها صحيحة النسبة اليه .

يعقوب البردعي

من البارزين في تاريخ المسيحية ، فهو المؤسس الحقيقي للكنيسة اليعقوبية ، وإليه ينتسب اليعاقبة . وهو يعقوب وأبوه تيوفيلوس بن معنى قسيس تلاً ، لقب بالبردعي لأنه كان يلبس البرادع . رزق به أبوه في سن متأخرة ، وبعد أن لقنه قسطاً من العلم أدخله دير فسيلتا بجوار قرية جومثا في جبل الأزل غير بعيد من تلاً .

وحوالي سنة ٥٢٨م ذهب هو وراهب اسمه سرجيس الى القسطنطينية للدفاع عن عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة، وقد استطاع أن يفوز برضى الامبراطورة تيودورا التي أحسنت لقاءهما، وبقيا بالقسطنطينية ١٥ عاماً في الوقت الذي كان فيه أصحاب الطبيعة الواحدة يلاقون صنوف الاضطهاد وبخاصة خلال سنتي ٥٣٦ — ٥٣٧م حينما قام أفريم بطرق أنطاكيا باضطهادهم حتى كاد أن يمحو فرقتهم رغم جميع الجهود التي بذلت لاحباط ما يقوم به. ولكن فظاعة هذا الاضطهاد حركت الغيرة في نفس الحارث بن جبلة ملك غسان العربي فذهب الى القسطنطينية حوالي سنة ٥٤٣م. وحرّض تيودورا على إرسال عدد من الأساقفة الى الأقاليم التي تخضع لسلطانها. فأوعزت الى تيودوسيوس بطرق القسطنطينية، فنصب تيودور أسقف الأسكندرية المعزول أسقفاً على بُصرى، على أن تكون له الرعاية على فلسطين والأقاليم العربية، ويعقوب ليكون أسقفاً على الرّها على أن تكون له رعاية سوريا وآسيا الصغرى.

منذ ذلك الحين تغيرت حياة يعقوب وأصبحت سلسلة لا تنقطع من المتاعب، فقد أخذ يتنقل سيراً على قدميه بين البلاد التي خصّته برعايتها باذلاً كل جهده لتقوية الروح المعنوية بين أصحاب عقيدته، لاستعادة من انحرف منهم، واختار لذلك الشمامسة والقسس. ثم وجد انه لا بد له من وجود أساقفة، وكان تنصيب الأسقف لا يتم إلاّ بثلاثة من الأساقفة على الأقل، فاختار لذلك قسيساً اسمه «كونون» من قليقيا وآخر اسمه «اوجين» من ايزاوريا، وسافر بهما الى القسطنطينية ثم الى الاسكندرية لرسمهما أساقفة. فرُسم كونون أسقفاً على طرسوس في قيلقيا، ورُسم أوجين أسقفاً على سلوقيا في ايزاوريا. وبذلك تمكن في طريق عودته أن يرسم غيرهما من الأساقفة أمثال يوحنا الأفيزوسي المؤرخ الذي رُسم على آسيا الصغرى.

تلك الهمة الجبارة التي بذلها يعقوب كانت سبباً في انتعاش كنيسة اليعاقبة وقد كُللت مجهوداته في النهاية بالنجاح بتتويج صديقه سرجيس بطرقاً على انطاكية سنة ٥٤٤ م. ولكن سرجيس لم يعمّر بعد ذلك طويلاً فمات سنة ٥٤٧م. وبقي كرسيه شاغراً ثلاث سنوات، فاختار يعقوب وأساقفته بولس راعي الاسكندرية ليكون خلفاً له.

وفي سنة ٥٧٨ م . خرج يعقوب وهو في سن الشيخوخة لزيارة دميان بطرق الاسكندرية (٥٦٩—٦٠٥ م .) غير أنه مات سنة ٥٧٨ م . على الحدود المصرية في دير مار رومانوس ودُفن به ، وبقيت رفاته فيه حتى سنة ٦٢٢ م . حينما أرسل زكَّايوس أسقف تِلاَّ بعض أعوانه فنقلوها الى تلاَّ واحتفلوا بدفنها في دير فسيلتا .

وقد جمع السمعاني كل ما كان معروفاً عن يعقوب حتى أيامه في كتابه المكتبة الشرقية. ثم اتسعت مصادرنا عنه بعد ذلك بعد نشر الجزء الثالث من كتاب تاريخ الكنيسة ليوحنا الأسيوي وفيه سيرة ليعقوب . ثم نشرت بعد ذلك سيرة أخرى ليعقوب وقد انتفع المستشرق « كلاين » بهاتين السيرتين في وضع كتاب قيم عن يعقوب سنة ١٨٨٢ م .

وقد رأيتَ أن حياة يعقوب كانت حافلة بالنشاط والحركة ، ولهذا لم يكن لديه متسع من الوقت للكتابة . وكل ما وصلنا من كتاباته قداس نشر رنودوت ترجمته اللاتينية ، وخطابات متفرقة كتبها باليونانية وبين أيدينا ترجمتها السريانية ، وينسب اليه شرح للعقيدة لم يصلنا منه إلاَّ النص العربي وترجمته الحبشية ، كما ينسب اليه ترتيلة لعيد البشارة لم يبق لنا منها إلاَّ ترجمة عربية .

* وقد ظهر بعد يعقوب البردعي عدد من كتَّاب اليعاقبة منهم بطرس أسقف الرقة الذي كان يعيش سنة ٥٧٧ م. في دير أمياناس على حدود الصحراء . ذهب الى مصر واشترك في جدَل ديني شديد مع بطرقها دميان وتوفي سنة ٥٩١ م . ومن كتاباته ميمر على وزن المقاطع السبعة عن الصلب، ورسالة الى أساقفة ما بين النهرين . أمَّا بقية كتاباته فالغالب أنها كتبت باليونانية .

* ومنهم يوليانوس من دير قنسرين الذي رسم أسقفاً على الرَّقة خلفاً لبطرس وتوفى سنة ٥٩٤ م . وقد بقيت لنا من كتاباته أجزاء من رسالة يعارض فيها الأسقف سرجيس وأخاه يوحنا .

* ومنهم أحوذمه (أي أخو أمه) كان أسقفاً على نصيبين سنة ٥٥٤ م . ووافق على قرارات المجمع النسطوري للجاثليق يوسف . وتقول المصادر اليعقوبية إن الجاثليق الأرمني خرستفوروس الاول (٥٣٨ م . — ٥٤٥ م .) نصَّبه أسقفاً على بيت عربايا .

وأنه جادل الجاثليق النسطوري أمام أشراف الفرس وانتصر عليه . وقد نصّبه يعقوب البردعي سنة ٥٣٨ م . مفريانا على بعثة تبشيرية يعقوبية في المنطقة الساسانية . ويقولون انه تمكن من تعميد أحد أبناء خسرو الأول تحت اسم جرجس ، فأمر خسرو بقطع رأسه سنة ٥٧٥ م . وله كتابات تظهر فيها مقدرته في الاتجاه الفلسفي عُرف له منها عند النساطرة تعاليم يعارض فيها الفلاسفة والمنجمين كلٌّ منها في فصل ، وكتاب من المنطق ، ومجموعة من التعريفات ، وميامر عن حرية المشيئتين والطبيعتين ، وكتاب عن الإنسان باعتباره عالماً صغيراً . وترجع كلها الى الفترة التي كان فيها على مذهب النساطرة .

* ومنهم دانيال الصلَحي (الصلحاني) وقد ذكر عن نفسه أنه كتب سنة ٥٤١ م . شروحاً في ثلاثة أجزاء أهداها الى يوحنان رئيس دير أوسابيوس في كفر برتا في منطقة أفاميه ، وله رسالة جدلية اقتبس فيها من كتاب المؤرخ يوسيفوس فلافيوس .

الأدب المنظوم

لم يكن الشعر السرياني أقل من النثر شأناً عند أصحاب الطبيعة الواحدة في هذا القرن . ولذلك قام عدد من كتابهم بنظم الشعر ، عرف منهم اسحاق الرهاوي الذي خلط الناس بينه وبين اسحاق الأنطاكي . ويوحنان الذي يقال إنه تتلمذ على برصوما الراهب ، وله ميمر باسمه على وزن المقاطع السبعة عن المسيح في الهيكل . وكان أمير الشعراء السريان في هذا القرن يعقوب السروجي الذي يمثل الميامر السريانية والذي أعجب الموارنة به واعتبروه أحد أقطابهم . وكان له تلميذ اسمه جيورجيس بقي لنا من شعره ميمر على وزن المقاطع السبعة عن المسيح في الهيكل . ومنهم سمعان الفخاري وله طقوس كان يُستغنى بها .

يعقوب السروجي

عَلم من أعلام الأدب السرياني . وُلد في كورتم على الفرات ، وهي احدى قرى سروج سنة ٤٥١ م . ولذلك لقب بالسروجي ، وكان يلقب أيضاً بقيثارة روح القدس ، وعود الكنيسة المؤمنة . وكان أبوه قسيساً قضى مدة طويلة من حياته يسأل الله أن يرزقه طفلاً ، فلما رُزق به عدّ مولده جزاءً له على صلواته ونذوره .

حصل يعقوب على ثقافته اللاهوتية في مدرسة الفرس بالرُّها ، وكانت أيامه كلها تحصيل

ومذاكرة حتى تمكن بعد فترة قصيرة من أن يفوز بشهرة واسعة لعلمه وفصاحته ، وظهرت مواهبه الشعرية وهو في العشرين من عمره ، بدأها بميمر عن رؤيا حزقيال للشاروبيم. وكانت كل جهوده وقفاً على الكتابة والتأليف ولم يقصر جهوده على الشعر بل كتب ميامر نثرية عن أعياد الكنيسة ورثاء نثريا ضُمَّ الى الطقوس الجنائزية .

وانتظم يعقوب كأبيه في سلك آباء الكنيسة ، فبدأ حياته قيِّماً في حَوْرا سنة ٥٠٣ م . ثم عين أسقفاً على بطنان عاصمة منطقة سروج سنة ٥١٩ م . وكان حينئذٍ في الثامنة والستين من عمره ، ولكنه لم يُعمَّر بعد ذلك طويلاً فمات في بطنان سنة ٥٢١ م . وهو في السبعين من عمره . وقد وصلتنا ثلاث سير سريانية ليعقوب : الأولى من وضع يعقوب الرهاوي ؛ والثانية لا يعرف مؤلفها ؛ والثالثة مدح منظوم مطوّل لمؤلف اسمه جرجس . وقد اختلفوا فيمن يكون جرجس هذا : فيقول البعض إنه جرجس تلميذ يعقوب ، ويقول آخرون بل هو جرجس أسقف سروج .

وكان يعقوب يميل الى الهدوء ولذلك فإنه لم يشترك في الجدل الذي استعر في الشرق في أيامه حول طبيعة المسيح ، ولهذا سلم من الاضطهاد الذي صبّه جوستين الأول على أصحاب الطبيعة الواحدة بعد أن أبطل القانون الذي أصدره زينون بتوحيد الكنيسة البيزنطية مع الميول اليعقوبية ، ومن ذلك قام الشك حول عقيدة هذا المؤلف ، وإن كانت خطاباته الثلاثة الى رهبان دير مار بسوس في حاريم ، وردّ الرهبان عليها ؛ وخطابه الى بولس الرهاوي لم تدع مجالاً للشك في أن يعقوب كان من أصحاب الطبيعة الواحدة، وأنه ظلّ كذلك حتى مات ، فإن هذه الرسائل تصوّره حاقداً منذ صغره على العقيدة النسطورية التي كانت تُلقّن في الرُّها ، كما تظهره هازئاً بهلينية زينون في أول الأمر ، ثم مؤمناً معتنقاً لعقيدة الطبيعة الواحدة بعد ذلك . وقد كتبت هذه الخطابات كلها في حوْرا على الأرجح فيما بين سنتي ٥١٤ و ٥١٨ م . ومما يزيدنا اقتناعاً بأنه كان من أصحاب الطبيعة الواحدة أنه كان أحد الأساقفة الذين باركوا سيامة يوحنا التلي أحد المتحمسين من أصحاب الطبيعة الواحدة في عهد جوستين .

وكتابات يعقوب النثرية قليلة ، أعرفها — الى جانب خطاباته التي أشرنا اليها — خطاب

الى نصارى نجران يواسيهم فيه حينما اضطهدهم الملك ذو نواس . وخطاب آخر وجّهه الى أهالي الرُّها حينما هدّدها الفرس بالغزو ، وخطاب ينقض فيه عقيدة أسطفان بن صُدَيلي والمظنون أنه كتبه في بطنان فيما بين سنتي ٥١٩ و ٥٢٠ م . ، وخطاب الى أهالي أرزون عن العقيدة . وقد بقي لنا عدد من خطاباته في مخطوطين بالمتحف البريطاني .

وينسب الى يعقوب أيضاً قداس نشر رنودوت ترجمته اللاتينية ؛ وترتيب للعماد ، وست أناشيد للأعياد ، وخطبة موضوعها « يجب أن لا ننسى خطايانا أو نهملها » ، وموعظة ليوم الجمعه الثالث من صيام الأربعين ، وأخرى عن الفصح ، وسيرة لمار حنّينا أهداها الى فيلوثيوس ، وسيرة لدانيال الراهب ، وينسب اليه ابن العبري في كتابه « تاريخ الكنيسة » شرحاً على مئويات اواجريس الست بناءً على طلب جرجس أسقف القبائل العربية ، ولكن هذا الشرح لم يصل الينا .

وتقابل قلة كتابات يعقوب النثرية كثرة هائلة من الكتابات المنظومة على أوزان مختلفة أغلبها من ذات الاثنى عشر مقطعاً ، وبعضها من ذات المقاطع السبعة ، وله مداريش أدبية وطقسية صحيحة النسبة اليه . وله سوغيثا شعرية ، منها واحدة عن رثائه للعالم ، وأخرى عن الرُّها ، وأنشودة المناولة . وله تسابيح ، منها أنشودة الصباح على وزن المقاطع السبعة ، وله ٧٦٣ ميمراً منها ميمر عن تعميد الامبراطور قسطنطين ، وميمر غير كامل عن « والدة الله تحت خشبة الصليب » ، واثنان عن مريم العذراء ، وميمر عن العذارة والفسق ، وكان آخر ميامره عن ماري وجوجوثا وقد مات قبل أن يتمها . ويقول ابن العبري إن يعقوب كان يستخدم ٧٠ نساخاً في كتابة نتاجه الأدبي . وقد ضاع أكثر من نصف هذه القصائد ولم يبق لنا منها إلاّ نحو من ٣٠٠ قصيدة في عدد من المخطوطات الموزعة في مكتبات أوروبا

ومن قصائده المستقلة قصيدة عن توما الرسول وسفره الى الهند للتبشير بالمسيحية ، والقصر الذي بناه في السماء لملك الهند . وأخرى عن سقوط الأصنام ، ذكر فيها بعض البيانات عن الوثنية عند السريان ، وفيها يظهر كرهه لهذه الوثنية . وله مجموعة من الميامر في تمجيد القديسين ، منها ميمر عن سمعان العمودي يصف فيه يعقوب كيف حارب سمعان الشر والشرير ، وآخر عن حبيب وجوريا وشامونا شهداء الرُّها وبعض ميامر في تمجيد التنسك ، وله مجموعة أخرى تعالج موضوعات من العهدين القديم والجديد ، منها قصيدة

عن العصفورين اللذين وردا في شريعة الأبرص (لاويين ١٤ : ٤)، وأخرى عن تيس ذبيحة الخطيئة (لاويين ١٦ : ٧) وثالثة عن لثام موسى (خروج ٣٤ : ٣٣) وبعض قصائد في تاريخ العهد القديم . وله مجموعة من القصائد الطويلة أو الملاحم تربى أبيات بعضها على ثلاثة آلاف في بعض الأحيان . منها : قصيدته عن الاسكندر وتقع في ٧٣٠ بيتاً ، ومنها قصيدته عن عربة حزقيال والأقوام الذين ظهروا له في رؤياه ، والتي تنبأ فيها بسقوط آمد في أيدي الفرس ، وتقع في ١٤٠٠ بيت ، ومنها قصيدة عن العقيدة وأخرى عن يوسف الصديق . وثالثة : عن موسى ، وكل واحدة منها مقسمة الى عشرة ميامر ، وقصيدة عن أيام الخليقة الستة مقسمة الى سبعة ميامر .

وشعر يعقوب رقيق عذب وأسلوبه شيِّق وتعبيره طريف ، ولا يجاريه في بساطة أسلوبه وسهولته أحد في تاريخ الأدب السرياني ، وهو من هذه الناحية يفوق افريم واسحاق الانطاكي الى حدٍّ كبير ، وقد أخذ مادته في الشعر من تغير الليل والنهار ، والراحة والعمل ، والصلاة في الصباح والمساء ، وعلى المائدة بعد الأكل ، ومن الطبيعة بكل ما فيها من ماء وريح وغاب . ولذلك فقد انتشرت كتاباته الى أوسع مدى ، وترجم الكثير من قصائده الى العربية ثم الحبشية ثم الى عدد من اللغات الأوربية ، كما وجد لقصائده بعض المقلدين ، كما سنرى عند درس سمعان الفخاري . وتستطيع أن تتبين شيئاً من منزلة يعقوب في الشعر من هذه المقدمة التي ننقلها لك من قصيدته عن سمعان العمودي :

«وفقني يا ربي لكي أرسم صورة كلها جمال ، لسمعان المختار الذي يعجز كل لسان عن وصف جماله . بعونك أتكلم عن كراماته وكلي عجب ؛ فليس الا بك يوصف جماله . شد أزري لهذه المهمة حتى أفيض في الحديث عنه ، ذلك المجاهد الذي تفيض الكرامات منه . أنا مزمارك ، انفخ في روحك يابن الله ، أعطي أنغاماً عذبة عن الجميل . فلتحركني قوتك مثلما تحرك الريح القصب ، فتخرج منه لحناً جميلاً بصوتٍ عظيم . ليس للقصب صوت ولا غناء ، ولكن الريح تهزها فيشجي صوتها السامعين . لن يجد الخطيب كلاماً يقوله ، إن لم تحركه كلمتك ، بك يا رب تتحرك أفواه المتحدثين فيصدر عنها كل قول جديد ، يفيض إعجازاً وينشد مدحاً . تعالوا أيها السامعون ارتشفوا حلاوة العقيدة ، الصادرة عن مصدر حلو يضيء طعمها النفوس . تعالوا لتُسراح نفوسكم إلى سماع حكاية رجل جميل ، تزيد شهرته عن أمواج البحر العظيم . تعالوا انصتوا الى معجزاته الالاهية ، التي عجز اللسان عن وصفها . تعالوا الى وليمة جمعت ما طاب من الفاكهة ، منضدة تسركم . تعالوا الى وليمة لا إفضال لطعامها ، لا تثقل على النفس ، بل تتلذذ النفس من ترتيبها . تعالوا خذوا بالمجان ثروة طائلة خفيفة الحمل ؛ من كنز

لايفنيه كثرة الآخذين. تعالوا أعيروني أسماعكم في هدوء، أعطيكم سر الحياة بصوت عظيم. فان سيرة سمعان وسيلة كل ربح، لي ولكم ولجميع السامعين. كان عامل خير بدأ حياته وانتهى منها مجداً، لم تسوّه عبادة الله. نادى الشيطان رفقاءه، ثم فتح فمه كالقائد ليأمرهم. قال يا جنود الآن نقوم للحرب ولا نتخاذل فنحترق. البسوا أقنعة مخيفة واظهروا في شكل بشع واعملوا أمامه أعمالاً خادعة. وتثير الشياطين عواصف شديدة كالجبال، ويثور الغبار فيحجب لون الهواء. وتهب رياح قوية تهز الأرض؛ فينتج عنها زلزلة عظيمة كصوت البحر. تشبّهوا بالحشرات اللاذعة والحيّات، وكونوا طيوراً وزواحف على الأرض ومهاجمين للاسوار. والآن هلمّ الى المعركة بنفوس ثائرة نشعل الحرب ولا نتخاذل فنحترق. والآن سهل علينا أن نحاربه فوق العمود، هلمّ نلق في قلبه الرعب بالجيوش المعبأة عساه ينكص على عقبيه. عندئذ تجمعت عصابة الشياطين الخطاة، وتعاهدت وأعطت المواثيق وقامت للحرب. وانقسمت جموع الشياطين الى فرق، لكي تصيد فرخ النسر بحيلها. زحفت الحيات المجنحة من أجحارها وهي تفح على الحمامة الساذجة التي نسجت عشها فوق الحجر. نفث الشياطين سمّاً زعافاً ليقتلوا القطاة التي كانت تغني فوق الجبل بصوت رخيم. اجتمعت فرق الصقور على عصفور لتصيده؛ فطار في الجو وتركهم مبهوتين».

ويستمر الشيطان وأعوانه في مناهضة القديس فيصيبونه في ساقه لكي يتخلى عن عبادة الله، ولكنه يبتر ساقه ويضعها أمامه ويرثيها في عبارات بليغة تنتهي بها هذه القصيدة.

سمعان الفخاري

كان من أثر إعجاب الناس بشعر يعقوب السروجي ظهور كاتب من كتّاب التراتيل ذات اللون لشعبي، كان يقلد شعر سمعان في لغة سهلة دارجة وينشده أثناء عمله على العجلة التي يصنع عليها الفخار، ذلك هو سمعان الفخاري.

كان سمعان شماساً في قرية جشير غير بعيد من دير مار بسوس وكل ما نعرفه عنه أنه كان صانع فخار وكان يتغنى أثناء عمله على عجلة الفخار بتراتيل يؤلفها على البديهة. وكان يسجل ما يجول بخاطره على اللوحة التي يعمل عليها أو على أي شيء يقع له، ويذكر يعقوب الرُّهاوي أن السروجي سمع عن سمعان الراهب، وزاره يوماً وسمعه وهو ينشد ترانيمه الدينية هذه أثناء قيامه بالعمل، فأعجب باللحن ومالت أذنه أليه، وحمل معه بعض هذه الأناشيد، وشجع المؤلف على المضي في تأليفه، وسميت هذه الأناشيد بالقوقايانا (أي الفخاريات). وقد بقيت لنا تسع تراتيل من هذه الفخاريات عن طبيعة المسيح في مخطوط يرجع الى حوالي القرنين الثامن والتاسع.

كتّاب النساطرة

ظلت مدرسة نصيبين مركزاً للحياة الأدبية عند النساطرة في المملكة الساسانية ، وكان من كبار رجالها الذين خلفوا نرسي، اليشع بن قوزبايا، واثنان من أقارب نرسي هما ابراهام ويوحنان من علماء اللاهوت ، ويوسف الاهوازي من علماء النحو . وترجم ما بقي من كتابات نسطوريوس التي أمكن انقاذها من أيدي أعدائه ، كما ترجمت كتابات نفر ممن عاصروا نسطوريوس .

* أما اليشع فقد سمي بابن قوزبايا، نسبةً الى قرية قوزبو من أعمال مرجا في اقليم بيت عربايا التي وُلد فيها . هاجر مع نرسي من الرُّها الى نصيبين . وتولى رياسة مدرستها سبع سنوات بعد وفاة نرسي . كان نشاطه الأدبي متعدد النواحي . كتب بالسريانية كتاباً عن حقيقة الديانة المسيحية يضم ثمانيا وثلاثين مقالة تكلم فيها على الجوهر الالهي ، والتثليث ، وأيام الخليقة الستة، وصفة الانسان، وخلق الملائكة، وهبوط الشيطان، ومجيء المسيح في آخر الزمان. وبعث بالكتاب الى أقاقيوس الجاثليق، فنقله هذا الى الفارسية ورفعه الى قباذ ملك الفرس وكان طلب ذلك. وله عدد كبير من الكتابات حال دون انتشارها شيوع الزرادشتية. منها كتاب في الرد على الهراطقة، يريد اليعاقبة ؛ وشروح على بعض أسفار العهدين القديم والجديد، وكتاب عن تأسيس مدرسة نصيبين ، وآخر عن الشهداء ، وصلاة للشكر ، وطقسيات قداسية للقداس ، وميامر شعرية .

* وأما أبراهام برسهدا — ويكنى بالبيت رباني — فكان من معلمّشا . اتصل بنرسي وهو في الخامسة عشرة من عمره ورأس مدرسة نصيبين ، ويقال إنه بقي فيها ما لا يقل عن ستين عاماً ، وتخرّج على يديه أكثر من ألف تلميذ ، وإنه زاد في مبنى المدرسة .

أما عن أعماله الأدبية فله شروح على بعض أسفار العهد القديم ، وأجوبة في الرد على بعض المسائل اللاّهوتية . وله كذلك كتاب عن تاريخ تأسيس مدرسة نصيبين ، وبعض ميامر منظومة ، وتنسب إليه تسبيحة ليلة الاثنين من الصلوات اليومية للكنيسة .

* وكان يوحنا البيت رباني قريباً لنرسي، وكان ذا أثر ظاهر في مدرسة نصيبين. وتوفي

بالطاعون حوالي سنة ٥٦٧ م . وله رسائل في الرد على اليهود والمجوس وأصحاب الطبيعة الواحدة ، وأخرى على أسئلة تتعلق بالعهدين القديم والجديد . وله شروح على بعض أسفار العهد القديم ، وميامر منظومة للصلاة ، وميمر عن انتصار كسرى الأول على عرب نجران ، وآخر عن فظائع الطاعون في نصيبين . ذلك إلى آثار شعرية في الطقوس الجنائزية. وقد اهتم بالمداريش والتسابيح وله في ذلك مدراش يتلى في صلاة الليل يوم الجمعة .

* وكان يوسف الأهوازي أول من برز في النحو من السريان، وينسب الى الأهواز (خوزستان ، وبالسريانية بيت هوزايا) . وكان من تلاميذ نرسي . وقد وضع نظاماً للتفريق بين الكلمات المتفقة في الهجاء والمختلفة في النطق عن طريق النَّقْط ، ويقال إنه نقل كتاب تِكني لديونسيوس التراقي في النحو اليوناني وانتفع به في وضع كتاب في النحو السرياني .

***

والى جانب مدرسة نصيبين الأدبية كان «مار أبا» ممثلاً لمدرسة نصيبين اللاهوتية القديمة التي يرجع الفضل في إنشائها الى مدرسة سلوقيا ، وكانت المدرسة المنافسة للمدرسة التي أنشأها نَرْسيْ في نصيبين . ومن ذلك المركز الجديد أطلّت تلك الروح التي ترعرعت في نصيبين على بعض الأقاليم عن طريق إنشاء بعض مدارس محلية لاهوتية كلها تحت إمرة رئيس واحد ، وكان من هؤلاء الرؤساء بولس النصيبيني ، وتوما الرُّهاوي وخليفته قيوري الرُّهاوي ، وكذلك المطران تيودور المروزي ، وأخوه جبرائيل الهرمزدشيري .

الجاثليق مار أبا الأول

وُلد مجوسيًّا من أبوين من أهل قرية « حالا » من أعمال راذان على الشاطىء الشرقي للدجلة ، وكانا يدينان بدين زارادشت ، وكتب لمرزبان النبط الذي كان يقيم في راذان ، ثم اعتنق المسيحية ومضى الى نصيبين وأقام بمدرستها ولازم « معنا الأرزني » ، وتلقى عليه علومه اللاّهوتية . ثم رحل إلى المنطقة الرومانية ، واتصل برجل من أهل الرُّها يسمى توما فتعلم منه اليونانية، وبذلك أصبح يجيد الفارسية واليونانية والسريانية، ثم سار هو وتوما

الى فلسطين ومصر، ودخلا الاسكندرية وجمعا كتب تيودور المفسر. وكان «مار أبا» يترجم بالسريانية ورفيقه توما يفسر باليونانية. فغاظ ذلك اليعاقبة فطردوهما من الاسكندرية، فمضيا الى بلاد اليونان فالقسطنطينية وأظهرا بها علومهما، وفيها تعرّف «مار أبا» بالرحالة كوسماس الذي زار الهند بين سنتي ٥٢٥ م. و ٥٣٠ م. ولما رجع «مار أبا» الى نصيبين قام بالتدريس والتفسير والترجمة بمدرستها، ثم رُسم جاثليقا سنة ٥٤٠ م. وتمكن من إزالة النزاع الذي ظلّ مستمراً خمسة عشر عاماً بين نرسي واليشع. وسافر في رحلةٍ تفتيشية حتى وصل عيلام وفارس، وأنشأ مدرسة لاهوتية في سلوقيا. غير أن كراهية المجوس له أخذت تزداد يوماً بعد يوم فحرّضوا عليه الملك كسرى أنو شروان سنة ٥٤١ م. فنفاه سبعة أعوام في اذربيجان، وفيها شهد اجتماعاً عقده الأساقفة سنة ٥٤٤ م. اتفقوا فيه على مجموعة من نظم الكنيسة تقع في ستة فصول، ومنتخب من القوانين الكنسية. ثم تآمر المجوس على قتله في آذربيجان في شتاء سنة ٥٤٨ م. فتمكن من الهرب الى العاصمة مع أحد أتباعه، وفيها قبض عليه وزج به في السجن ثلاث سنوات. ثم إن ابنا للملك خرج على أبيه سنة ٥٥١ م. واعتصم بجنديسابور وقطع الطريق إليها، وعاونه أهلها على أن يشق عصا الطاعة على أبيه فأطلق الملك سراحه لكي يحرض أهل جنديسابور على أن يتخلوا عن ابنه الثائر، ففعل ما أمره الملك، ومكّن هو وأتباعه جند الملك من دخول المدينة. ولكن الملك عاد فغدَر به وأمر بقتله سنة ٥٥٢ م.

أما عن كتاباته فله ترجمة للعهد الجديد عن اليونانية يظهر أنه عملها أثناء إقامته في مصر، وقد أشارت إليها نصوص سريانية لوقيانية. وتنسب إليه بعض طقوس القداس النسطورية. وله ميامر شرح فيها بعض أسفار العهدين القديم والجديد، ولكنها ضاعت ولم يبق لنا إلاّ إشارات عنها. وقد بقي لنا من كتاباته إيضاح عن حق الزواج وفق نصوص الكتاب المقدس، ومعارضة لزواج الأخت عند الفرس، وتوضيح أسباب هذا الزواج من الأساطير، وينسب اليه أيضاً تسابيح تدخل بعد الآية الأولى من كل مزمور وتسمى بالقانون.

تلاميذ مار أبا

* كان لمار أبا عدد من التلاميذ، منهم: بولس الذي رسمه أستاذه مار أبا بعد عودته من سوسه أي سنة ٥٥١ م. مطراناً على نصيبين، وحضر مجمع يوسف سنة ٥٥٤ م. وأمضى ثلاثين عاماً يدير مدرسة في إربل كان ابراهيم البيت رباني قد أرسله اليها، وأقام حيناً في القسطنطينية واشترك في مناظرة دينية ذكرها في رسالة له الى قِسْوَى طبيب البلاط الساساني.

* ومنهم توما الرُّهاوي، وقد ذكر بنفسه أنه تولى التدريس في مدرسة نصيبين بعد مار أبا. ومن كتاباته رسائل عن عيدي الميلاد والغطاس، ورسائل عن أسباب أعياد الكنيسة ومواعيدها. وله رسالة في الموسيقى الكنسية، ومعارضة ضد التنجيم، ومواعظ رثاء. وينسب اليه جدَل ضد الهراطقة.

* ومن تلاميذه قيوري الرُّهاوي، وكان مدرساً في مدرسة الرُّها، ثم انشأ مدرسة في الحيرة، وكتب أثناء تدريسه في الرُّها اضافات الى بعض كتابات توما عن أهم أعياد الكنيسة، وتنسب اليه ميامر وبعض شروح على الكتاب المقدس.

* ومنهم تيودور المروزي، وضع كتاباً سمي بالكُناش، ولا نعرف عنه غير اسمه، وتنسب اليه ردود على عشرة أسئلة وضعها سرجيس الرأسعيني، وله كذلك بعض رسائل موجهة اليه وميامر وشروح على المزامير.

* أما أخوه الأسقف جبريل الهرمزدشيري فله كتاب في الرد على المانوية والكلدانيين، وله مجموعة من التعاليم والايضاحات ممزوجة باستشهادات من الكتاب المقدس تقع في حوالي ٣٠٠ باب، وقد بقي لنا من كتاباته قطعة منظومة في تاريخ القديس أوجين نسبها كتّاب القرن الرابع عشر الى أخيه تيودور المروزي.

* ومنهم سرجيس بن ساحيق وكان مدرساً في مدرسة الحيرة، أو في مدرسة الحزة في حذيب، وقد نسبت اليه شروح على سفر إرميا وحزقيال. ومنهم إيشي الذي تنسب اليه رسالة عن شهداء يوم الجمعة الذي يلي عيد الفصح، ومنهم موسى الكشكري الذي عرف له

كتاب حسن تدبير البيعة الذي ذكره اليا الجوهري في كتاب له عن مسائل تتعلق بالقداس ومنهم المطرانين يعقوب من بيت جرمي وداوود المروزي . والأساقفة نرسي الانباري، وبرشبّا الشهرزوري ، وشوبحا لمارن الكشكري .

الجاثليق يوسف

أقام زمناً في المنطقة الرومانية حيث درس الطب ، ثم انتقل الى نصيبين فعاش في دير بالقرب منها ، فلما مات مار أبا الجاثليق خلفه على الجثلقة سنة ٥٥٢ م . بمساعدة مرزبان نصيبين وموافقة كسرى الأول . وفي سنة ٥٥٣ م . اجتمع هو والآباء في سلوقية ووضعوا قانوناً لتدبير شأن البيعة في ثلاث وعشرين مادة . ولكن سرعان ما فسد الأمر بينه وبين الأساقفة فلم يأبه بهم وأخذ يستميل أصحاب السلطة الدنيوية بالرشا لكي يحافظ على المنصب الديني الذي وصل اليه . وأخيراً اجتمع الأساقفة وعزلوه سنة ٥٦٧ م . وقد مات سنة ٥٧٥ م.

وقد جمع الجاثليق يوسف كتيباً جامعاً للجثالقة إلى عصره يُعد أساساً لتاريخ البطارقة في الكنيسة النسطورية. وقد ذكره عبد يشوع في فهرسه الذي ضم البطارقة من سنة ١١١ هـ. الى سنة ٣٥٢ هجرية على أنه تكملة لهذا الفهرس .

* * *

ظهرت في المدرسة اللاهوتية للسريان النساطرة آراء حنانا الحذيَّبي في عصر الجاثليقين حزقيال ويشوع يب الأول ، خلف ابراهام بن القرداحي في عصر الازدهار على رأس مدرسة نصيبين ، حيث قامت أزمة لمحاولة تقليد الروح السكندرية في الكنيسة الشرقية . وفي عصر الجاثليق سبر يشوع الاول ، وجريجور الأول ، استمرّ النزاع الكنسي. وقد عرف في عصر النزاع جريجور الكشكري الملقب بالمعلم أو الباذوقا والأسقف نائنيال السرزوري .

* رسم حزقيال جاثليقا سنة ٥٧٠ م. وعقد مجمعاً سنة ٥٧٦ وضّح فيه أصول الايمان وفقاً للعقيدة النسطورية القديمة معارضاً لآراء حنانا ، ووضع تسعة وثلاثين قانوناً في تدبير البيعة بعضها ضد الخرافات ، وعادة الحزن ، واستهجان تعليم الغناء الدنيوي للفتيات المسيحيات ، وفيها بيانات طريفة عن تاريخ الثقافة . ثم أخذ يعنف بالاباء ،

وفقد بصره سنة ٥٧٩ م . فزعم الآباء أنه عقاب السماء على معاملته لهم ، ومات سنة ٥٨١ م .

* أما يشوع يب فكان من بيت عربايا وتعلّم في مدرسة نصيبين على ابراهيم المفسر قريب نرسي ، ورأس المدرسة بين سنتي ٥٦٩ و ٥٧١ م. ثم رسم أسقفا لأرزن بمساعدة هرمزد الرابع له (٥٧٩ — ٥٩٠م) . وفي سنة ٥٨١ م . رسم جاثليقا . وفي سنة ٥٨٨م عقد مجمعاً في سلوقيا أصدر فيه ٣١ قانوناً . وفي عهد كسرى الثاني (٥٩٠ — ٦٢٨م.) فسدت الأمور بينه وبين كسرى ثم صفح عنه . وفي آخر أيامه رحل الى النعمان بن المنذر ملك العرب. وكان قد اعتنق المسيحية . فاعتلت صحته ومات في قرية بيت قوشي سنة ٥٩٦ م فدفنته هند بنت النعمان أو أخته ، في البيعة التي ابتنتها بالحيرة وتعرف الآن بدير هند .

وله من الكتابات خطاب الى يعقوب أسقف داري في جزيرة البحرين ، وعشرون قانوناً غير القوانين السابقة لها أهمية في تاريخ الطقوس ، وقانون للايمان ، ورسائل في الرد على اونميوس ، وجدل مع أسقف يعقوبي لم يذكر اسمه ، ورسالة حول أسرار الكنيسة .

* أما ابراهام بن القرداحى ويعرف بالنصيبيني فقد تولى رياسة المدرسة بعد يشوع يب وبقي بها عاماً ، وله رسائل تعرف بالتعاليم ، وميامر ومواعظ تلقى على المقابر ، ورسائل في الرد على مارق اسمه شيستار .

* ودرس حنانا الحذيبي في نصيبين على ابراهيم قريب نرسي. ثم تولى التدريس بمدرسة نصيبين ، وكان نشاطه بها ملحوظاً أيام الجاثليق حزقيال ، فلما جاء المطران بولس طرده لضعف في عقيدته النسطورية ، فقد كان من أتباع اوريجين ، الذين يدينون بالآراء السكندرية المتطرفة في معارضة تيودور المفزوستي ومن أتباع الاتحاديين ، وكان معارضاً للآراء اللاهوتية النسطورية القائمة التي كانت لا ترى أن خطيئة آدم أبدية وراثية ، وكان يرى رأي أوريجين في القيام بالجسد والعذاب الدائم في جهنم . ولكنه رجع الى المدرسة سنة ٥٧٢ م. بعد موت بولس وصار رئيساً لها ، وبلغ عدد تلاميذ المدرسة في أيامه ٨٠٠ تلميذ. ولم يكن يأبه للقرارات التي تصدرها المجامع ضده لأنه كان يعتمد على حماية أشراف الدولة

الفارسية ومعاضدة رجال الحكومة له ، ولذلك بقي محتفظاً بوظيفته ، وكان له ما يقرب من ثلاثمائة من الاتباع ، وعاش حتى سنة ٦١٠ م.

وبقي لنا من كتاباته لوائح مدرسة نصيبين التي وضعها سنة ٥٩٠م. ومقالاته في ذكرى معجزات المسيح. وذكرى صيام نينوى. ومقال في ذكرى العثور على الصليب. وميمر عن يوم أحد الشعانين، وشرح للعقيدة. وشروح على بعض أسفار العهد القديم، ورسائل بولس.

* أما الجاثليق سبر يشوع الأول فكان راعياً في الجهات الجبلية في سرزور، ثم ترهب وتعلم في مدرسة نصيبين ، وكان له نشاط تبشيري ملحوظ وهو أسقف لاشوم ؛ رسم جاثليقا سنة ٥٩٦ م. وعقد مجمعاً في نفس العام اشتملت قراراته على قانون للايمان يدحض به آراء راهب من دير بوقيطا. ويظهر أنه ألّف كتاباً في تاريخ الكنيسة لم يبق لنا منه إلاّ نص يتناول فيه مقابلته للقيصر موريقي في أسلوب قصصي.

* وكان ميخائيل ويعرف بالمعلم (الباذوقا) تلميذاً لحنانا ثم مدرساً في مدرسة نصيبين ، ثم عارض حنانا ، وكان لكتابه الذي ألّفه في ثلاثة أجزاء عن مسائل من الكتاب المقدس تأثير على أدب التفسير المتأخر. وينسب اليه مقال عن ذكرى العذراء في اليوم التالي لعيد الميلاد. وله مقالات في الرد على اليعاقبة، ورسالة عن الأحلام. وأخرى عن الإنسان كعالم صغير. ومجموعة من التعريفات.

* ودرس ناثنيال السرزوري في نصيبين ، واهتم بدراسة التفسير ، وحضر المجمعين اللذين عقدهما يشوع يب الأول وجريجور الأول ، سجنه كسرى الثاني ست سنوات قبل سنة ٦٢٨ م. ثم صلبه لأن الجماعة التي يرأسها طردوا قائداً فارسيًّا من المدينة اتهم بهدم كنيستهم. وله من الكتابات تفسير للمزامير ، ورسائل في الجدل في الرد على المجوس والهراطقة.

***

والى جانب مدرسة نصيبين كان لمدرسة سلوقيا بعض الشأن في الحياة الادبية. في ذلك العصر ، ومن رجالها الجاثليق جريجور الأول ، وكان أصله من فيرات ، وصل الى وظيفة مفسر بمدرسة سلوقيا بمساعدة الملكة سيرين ، وكان يعرف عنه الجشع. رسم سنة ٦٠٥ م.

وعقد مجمعاً عقب رسامته تدل قراراته على التمسك بالعقيدة النسطورية وآراء تيودور المفزوستي . وكان معارضاً لآراء حنانا .

* ودرس جريجور الكشكري في مدرسة سلوقيا أيضاً . ثم عمل مفسراً في إربل . وفي سنة ٥٩٦ م . رسمه الجاثليق سبريشوع الأول مطراناً على نصيبين مكان المنجم جبرييل ابن روفينا الذي نُـحِّي عن وظيفته . أخـذ في مقاومة حنانا بشيء من الحزم ، وخلا به سبر يشوع الأول ، وهُـدِّد بالخلع ، واضطرته الحكومة الفارسية الى الانزواء في أحد الأديرة ، ووقف حياته على التبشير بين الوثنيين . وقد ترك آثاراً أدبية منها تاريخ الكنيسة وكتابات أخرى معظمها في الرهبنة .

***

والى جانب الدراسة اللاهوتية في الدولة الساسانيـة ظهرت في منتصف القرن السادس دراسة سريانية جديدة هي الرهبنة النسطورية ، ويعتبر مؤسسها ابراهام الكشكري الذي عاش متنسكاً في طور عبدين في جبال الأزل في شمال نصيبين ، ومن ثمَّ انتشرت منشآته وكان لها نشاط أدبي ، وظهر ابراهام النثفراني في الكتابات النثرية في الرهبنـة ، وخلفه بابي بن نصيبنايا ، وبابي الكاتب ، والمطران شوبحا لمارن ، وكذلك ظهر اهتمام بعض هؤلاء الرهبان بالنَّـظْـم ، وكان يمثلهم فيه باعوث وحنا نيشوع .

* وتنحصر أهمية ابراهام الكشكري في تأسيسه للرهبنـة النسطورية على نظام قصد هو أن يكون مخالفاً لأسس الرهبنـة اليعقوبية . وكان مبشراً موفقاً بين عرب الحيرة . ثم سافر الى مصر وتعرَّف الى رهبنـة أديرة وادي النطرون وسينا . ثم عاد الى نصيبين واشتغل بالتدريس بمدرستها مع يوحنـا وابراهام قريب نرسى الى أن اعتكف في مغارة بالقرب من جبال الأزل حيث أسس الدير الكبير هناك . وتوفى سنة ٥٨٨م. بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من عمره . ومن كتاباته تسبيحة ولوائح وضعها لهذا الدير .

* وقد تابع خليفته دَدْيشوع عمله ، وكان من بيت دارايا من منطقة بيت أرامايا ، كان ناسكاً معاصراً للراهب اسطفانوس في حذيّب فاستغوته شهرة ابراهام الكشكري فانتقل

الى دير الأزل الذي أسسه ووضع له لوائح أيضاً . وتوفى سنة ٦٠٤ م . في الخامسة والسبعين من عمره .

* وأنشأ الراهب زيني تلميذ اسطفانوس ديراً في جبل شفولتي في منطقة نهر الزاب الصغير ، ووضع له لوائح ثالثة للرهبان .

* وأما ابراهام الذي كان يعرف عند النساطرة بالنثفراني وعند اليعاقبة بالنفتراني أو النفتاري فقد وُلد في قرية بيت نثفرا بالقرب من أربل . وهو من أقارب الذين استشهدوا في حذيّب أيام شابور الكبير . وكان معاصراً لابراهام الكشكري ووضعا معاً قوانين الرهبنة ورسومها في بلاد الفرس ، وخالفا بين زي الرهبان من النساطرة وبين زي غيرهم من الهراطقة ، فلم يعد الرّهبان يلبسون الزي الذي كان عليها رهبان مصر منذ عهد أوجين . أقام مدة متنسكاً في مغارة بجبل حذيّب ثم قصد الى فلسطين ، وأقام في احدى مغاراتها ثلاث سنوات ؛ ثم زار مصر ، وعاد ثانية الى مغارته فأقام بها ثلاثين عاماً يقتات بالخبز وأعشاب الجبل ، لا تلحقه علة ، ولا يعرض له مرض . ويقول صاحب تاريخ النساطرة إنه قصد جبال حذيّب فوجد فيها قوماً يذبحون للأصنام فردّهم الى عبادة الله ولم يلبث أن مات بينهم . ويقول عبد يشوع إنه سافر الى الشمال حيث قام بالتبشير في أذربيجان . وله كتابات في الرهبنة ، وشرح على الأناجيل ، ورسالة في الرد على الهراطقة ؛ وتسبيحات ومقالات كثيرة في التنسك ؛ وله منتخبات مترجمة الى العربية من كتاباته في الرهبنة .

* وكان للنثفراني تلميذ إسمه أيوب من أهل دسم ؛ وكان أبوه يتجر في الجوهر ، وكان ذات مرة في رحلة للتجارة في المنطقة الرومانية ومرض في دير بالقرب من نصيبين ، فنذر إن عوفي أن يترهب ، فلما مَنّ الله عليه بالعافية قصد الى ابراهيم النثفراني ودرس عليه ، وأقام في دير الأزل ، فلما مات أستاذه أقام ديراً على مغارته التي كان يسكنها ، وترجم لوائح ابراهام الكشكري ومقالات ابراهام النثفراني الى الفارسية .

* وكان بابي برنصيبنايا ويسمى بالنصيبيني أيضاً نسبة الى أسرته في نصيبين ، وعرف بالصغير أيضاً تلميذاً لابراهام . تنسك في مغارة بالقرب من اربل ، وعاش أحياناً في دير زينَي ، ثم صار رئيساً لدير يسمى بالدير الصغير على جبل الأزل ، يقع الى جانب

دير ابراهام المسمى بالدير الكبير ، وله رسائل في الرهبنة ليست ذات بال ، وله ميامر وتسبيحات .

* أما بابي المصري المعروف بالكاتب فقد وُلد في مدينة بهقواذ بجانب الحيرة ، وكان قبيل الاسلام كاتباً لمرزبان الحيرة ، ثم ترهب ومات في عزلته عن ثلاث ومائة سنة تاركاً كتابه في الرهبنة « التمييز بين الوصايا » .

* وأنجبت مدينة بيت سلوك (كركوك) المطران شوبحا لمارن ، وكان معاصراً للجاثليق جريجور الأول ، وقد نفاه كسرى الثاني أيام الاضطهاد الذي وقع بعد موت جريجور . كتب في الرهبنة ، ثم في الجدل رداً على جبريل الشنجاري اليعقوبي طبيب البلاط ، وله عدد من الرسائل ، ومجموعة من حكم النساك و « كتاب الأجزاء » في ثلاثة أجزاء عن تعاليم المسيح في التواضع والرحمة ، وعلاقة الإخوة بعضهم ببعض في العزلة وفي الدير . وبين أيدينا شرح على التوراة لمفسر إسمه شوبحا لمارن يغلب على الظن أنه صاحبنا هذا .

* أما كتاب النظم في الرهبنة فأبعدهم صيتاً باعوث ، معاصر الجاثليق يشوع يب الأول ، ومؤسس دير بيت نوهدرا ، وإليه تنسب بعض القصائد عن ظهور المسيح ، وتحقيق نبوات الأنبياء في المكذبين للبعث ، وكتب في التسبيحات .

* ومن شعراء الرهبنة الراهب حنانيشوع ، وقبل أن يدخل دير الأزل كان يدعى « عمري » . ومولده في الحيرة ، وهو من أقارب المنذر ملك الحيرة ، ويقولون إنه رافق جيورجيس سنة ٦١٢ م . الى البلاط الساساني . وأنه كان بعد ذلك مبشراً ومؤسساً لدير داراباد في بيت جَرْمي . كتب رسالة يعارض فيها التعاليم الكلقدونية التي كان يقول بها إشعيا الطَّحَلِيّ ، ومسكينا من بيت عربايا ، وهما من أتباع حنانا .

النقل عن اليونانية

رأينا أن المدرسة الفارسية بالرُّها ترجمت في القرن الخامس اللاهوت اليوناني الى السريانية للنساطرة . وقد حدث شيء مثل هذا عند اليعاقبة بعد قرن من الزمان ، حين بدأت سياسة العنف الرومانية سنة ٥١٨ م . والتي طُرد بسببها أتباع سويرس من الأساقفة خارج ديارهم ، فعمل هؤلاء في مهجرهم على نقل الكتابات اليونانية الى السريانية ، فظهر

بولس أسقف الرقة الذي ترجم كتابات سويرس الانطاكي ، وموسى الإجيلي الذي ترجم كتابات كيرولس الاسكندري ، وبرالاها وصديقه شمعون ويوحنا فيلبونس . كما ترجم الى جانب ذلك كتابات الذين عارضوا نسطوريوس من معاصريه ، وكتابات تيموتاوس أيلوروس، وكذلك ظهرت ترجمة الكتابات المحمولة على ابوليناريس ، واستمر السريان أيضاً في ترجمة أدب الرهبنة عن اليونانية .

* أما بولس أسقف الرقة فقد اضطهده الملكية وعزلوه عن منصبه سنة ٥١٩ م. فلجأ الى الرها ، وفيها ترجم كتابات سويرس الانطاكي الى السريانية ، سنة ٥٣٨ م . ترجم منها خطاباته الى يوليانوس الهليكرنازي التي كفره فيها في ثماني مسائل، وخطاباً الى الرهبان الشرقيين ، وآخر يعارض فيه يوحنا أسقف قيصرية المعروف بيوحنا النحوي عن مجمع كلقدونية ، وله جدل في الرد على المانوية . وقد بقيت لنا كل ترجماته غير جدله ضد المانوية. ومن المحقق أيضاً أن له ترجمة كتاب آخر عنوانه « المارق النحوي » في ثلاثة أجزاء ، وخطاباً الى سرجيوس النحوي ، وخطابات أخرى . وكتابات في الجدل ضد يوليانس في ٣٣ فصلاً . وميامر في أربعة أجزاء مترجمة عن سويرس الانطاكي كتبها فيما بين سنتي ٥١٢ و٥١٨ م .

* وأما موسى الإجيلي فقد ترجم من كتابات كيرولس حوالي سنة ٥٦٨ م. رسالته الى بافنوتيوس ، وقصته عن يوسف وأسنات . كما ترجم له قبل سنة ٥٥٣ م . كتاب ميامر لوقا ، ولم يبق لنا منه الا ترجمته السريانية

* وأما برالاها فكان ناسكاً لزم صومعته، وترجم شروح أتناسيوس . وكتب الى سمعان رئيس دير في الجبال السوداء يسأله شرح المزامير ثم ترجم شرحه الى السريانية .

* وكان منهم أيضاً يوحنا فيلبونس ويعرف عند العرب باسم يحيي النحوي الاسكولائي ظهر في النصف الأول من هذا القرن ، وقد أهملت تعاليمه في التثليث ، واعتبرت كتاباته في المرتبة الثالثة عند اليعاقبة بعد كتابات كيرلس وسويرس . وقد حفظت لنا السريانية بعض كتاباته ورسائله ، منها خطابان الى القيصر يوستنيانوس ، وكتاب يعارض فيه أرسطو ، وشرح لايساغوجي لقيه اليعاقبه بكثير من العناية . وقد ترجم له بالعربية بعض كتابات

فلسفية ، وكتاب في الجدل ضد تعاليم پروكلوس عن أبدية العالم عنوانه « الدلالة على حدوث العالم » .

* وقد ترجم في هذا القرن أيضاً بعض كتابات بالسريانية في معارضة نسطوريوس . منها كتابات كيرلس الاسكندري المتوفي سنة ٤٤٤ م. وخطاب پروكلوس الى الأرمن ، ورسالة عن العقيدة، وثلاث كتب لتيودوتس في الرد على نسطوريوس .

* كما ترجمت كتابات تيموتاوس ايلوروس بطرق الاسكندرية المتوفي سنة ٤٧٧ م . منها كتاب عن مجمع كلقدونية ترجم قبل سنة ٥٦١ م . وصلاة للذين ارتدوا الى عقيدة اليعاقبة ورسالة في الرد على النساطرة ، ومجموعة من كتابات الآباء ، ومختارات من كتابات ديودوروس وتيودور المفزوستي ونسطوريوس .

* وكذلك ترجم الى السريانية الكثير من كتابات ابوليناريس الذي كان من اللاذقية وتوفي قبل سنة ٣٩٣ م . والذي نشر هو وأتباعه مذهب الطبيعة الواحدة ، كما ترجمت الى القبطية ، وترجم بعضها الى العربية . والراجح أن جميع هذه الكتابات قد حملت عليه في عصر متأخر . ومنها كتاب لجريجوريوس فاعل العجائب ، واتناسيوس ويوليوس الأول التي يشهد فيها لأصحاب الطبيعة الواحدة يريد الدعاية لهم .

* وكذلك ترجمت الى السريانية في هذا القرن بعض كتابات الرهبنة اليعقوبية التي كتبها أصحابها باللغة اليونانية مثل كتابات إشعيا الاسقيطي ، سمّي بالاسقيطي لأنه بدأ حياة الرهبنة في صحراء اسقيط ، وقضى الجزء الأخير من حياته في اليوتيروبوليس (وهي بيت جبرين الآن) في فلسطين في ضواحي غزة حيث توفي سنة ٤٨٨ م . وقد كتب في أواخر أيام حياته في عصر القيصر زينون ، مؤلفات في الرهبنة اليعقوبية باللغة اليونانية ، ثم ترجمت كتاباته الى السريانية في القرن السادس فزادت من نشاط الترجمة في هذا القرن منها مقالات في ٢٨ فصلاً ، وقد ترجم الكثير من كتاباته الى العربية منها وصايا الى المبتدئين وتعاليم وأقوال .

* كذلك نقل الى السريانية خمس رسائل في الرهبنة لراهب يوناني اسمه مرقيانوس ،

وكتاب في الدرجات يشتمل على ٣١ فصلاً ، أما الكتابات التي تنسب الى با سيليوس ويوحنا السينائي فالراجح أنها ترجمت بعد القرن السادس .

***

ولم يقتصر أمر النقل عن اليونانية الى السريانية في هذا القرن على الكتاب المقدس كما فعل اكسنايا وبوليكاربوس ، ولا على اللاَّهوت وكتابات الرهبنة ؛ بل تعداها الى نقل العلوم اليونانية الدنيوية وآدابها ، وقد تناول السريان في هذه الناحية الأخيرة مجموعتان : الأولى أثر الدراسات الميتافيزيقية في الأفلاطونية الحديثة الى جانب منطق أرسطو . والثانية الدراسات الطبية والكيمائية والكتابات التي تحتاج إليها الحياة العملية الى جانب الدراسات الفلسفية .

وكان ممن عني بهذه الناحية من معاصري اكسنايا ويعقوب السروجي ، الراهب يوحنا الأفامي ، واسطفان بن صُدّيلي اللذين أثرت دراستهما الفلسفية للافلاطونية الحديثة على العقائد المسيحية ؛ وكذلك كان سرجيس قسيس رأس العين وشيخ أطبائها متأثراً بهذه الدراسة الى جانب ما عرف عنه من ترجمته للتاريخ المنسوب الى ديونسيوس الأريوباجي . وكان هذا الاتجاه هو الذي زوّد التراث السرياني منذ عصر متقدم بحكمة الحياة الفلسفية الشعبية وبالثقافة العلمية الحيوانية الزراعية اليونانية .

يوحنا الأفامي

كان راهباً بدير سمعان العمودي في تل نيشين ، وُلد في مدينة أفامية على نهر العاصي ، ونعرف تاريخه من معارضة اكسنايا له معارضة شديدة نستطيع أن نتبين عنفها في إحراق إكسنايا لكتبه . درس الطب والمنطق في الاسكندرية ، ووضع كتاباً سماه « الأساس » طبع فيه الافلاطونية الحديثة بطابع مسيحي شكلي ، وقد لعب فيه ملكيصادق وأبراهام دوراً أساسيًّا . وله كتاب آخر لا يشابه الأول ولكنه متفق معه في روحه ، ويشتمل على ترجمة سريانية لكتاب أفلوطين المعروف باسم إنيادس ، وكذلك ترجم تاولوجيا أرسطو الى السريانية وترجمه عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي الى العربية ، وكذلك أصلح ترجمته يعقوب بن اسحاق الكندي لأحمد بن المعتصم .

سرجيوس الراسعيني

كان سرجيوس قسيس رأس العين وشيخ أطبائها خير المترجمين عند اليعاقبة وأشهرهم ، وقد تحدث عنه عبد يشوع في فهرسه بين المؤلفين من النساطرة نظراً لفضله .

يقال إنه تلقن العلم في الاسكندرية وفيها تعلم اليونانية . بدأ حياته الدينية على أرض يدين أصحابها بمذهب اليعاقبة ، وكانت علاقته بالنساطرة طيبة ، وقد أهدى كثيراً من كتبه الى تيودورس الذي يُظَن أنه كان أسقف مرو النسطوري . عُيِّن قسيساً لرأس العين ، وفي سنة ٥٢٦ م . رحل منها الى أنطاكيا ليشكو أسقفه اسكوليوس الى البطرق إفريم الذي كان قد خلف سويرس ، ورأى إفريم أن يستخدمه في محاربة اليعاقبة فأرسله الى روما بعدة خطابات الى البابا أغابيتوس الأول . وفي ربيع سنة ٥٣٦ م . سافر هو وأغابيتوس الى القسطنطينية وحصل على أمر بعزل اليعاقبة ونفيهم . ويقولون إن سرجيوس مات بعد ذلك مباشرةً وتبعه أغابيتوس بعده بأيام قلائل . ويقول يوحنا الأفزوسي وزكريا البليغ أنهما لقيا حكم السماء لأن تواطؤهما مع الملكية ضد مذهبهما يعد خيانة .

أما أعماله الأدبية فكثرتها تتعلق بالترجمة ، وهو فيما يقول ابن العبري في تاريخه السرياني أول من أوقف السريان على مؤلفات أرسطو بواسطة تراجمه وشروحه . وأسلوبه في الترجمة فيما يقول رِسْل خير نموذج لفن الترجمة ، يصلك من أضيق ناحية بالنص اليوناني الأصلي . ومن هنا يتضح لنا خطأ ابن أبي أصيبعة الذي ذكر أن سرجيوس كان لا يجيد الترجمة ، وأن ترجمته احتاجت الى مراجعة قام بها حنين بن اسحاق فيما بعد . ومن كتاباته اعترافه « مقال في العقيدة » ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن ورد ذكره في مقدمته لترجمة كتابات ديونسيوس الاريوباجي ، وكذلك ذكره زكريا البليغ في تاريخه .

وله كتاب وضعه عن منطق أرسطو في سبعة فصول كلها متصلة بالأورجانون . وله كتابات فلسفية أخرى عرف منها ترجمته للكتاب المنسوب الى أرسطو « كتاب أرسطو الى الأسكندر عن الكون » . وله كتاب عن الكون في رأي أرسطو . وكتاب عن الجنس والنوع والفرد . وآخر عن قاطيغوريوس ، وكتاب عن پاري أرمنياس ، ذكر في الفصل الثالث منه العلاقة بين أنالوطيقا أرسطو وبين بقية كتابات أرسطو .

وتعزى اليه ترجمة ايساغوجي لفورفوريوس ، وقاطيغورياس ، وكتاب لأرسطو عن النفس ضاع أصله اليوناني ، ومقال فلسفي عن أجزاء الكلام ، ورسالة عن الاثبات والنفي وأخرى عن معنى الجوهر ، ويعزى اليه أيضاً ترجمة كتاب الطب لجالينوس ، الذي يعتبر أساس دراسات الطب في الأوساط الطبية الشرقية والذي أصبح قانوناً لها ، وقد ترجم الى العربية عن السريانية في القرن التاسع عن ترجمة سرجيوس ، وينسب اليه أيضاً بعض رسائل محمولة على كبار الأطباء اليونان ، كما أضيف اليه مقال عن حركة الشمس .

ومن الكتب التي بقيت لنا كتابه في التراكيب (الفارماكوبيا) وبمقارنة نصه يتبين لنا أن سرجيوس ترجم أجزاء من كتاب « فن الطب » ، ورسالة عنوانها « أثر القمر في رأي المنجمين » .

***

وقد ترجم في ذلك العصر أيضاً كتب في أدب الفلسفة الشعبية ، ظهر منها تراجم لبلوطرخ ولوقيان وتمستيوس ، وهي في لغتها وأسلوبها في الترجمة قريبة الشبه لكتابات سرجيوس الرأسعيني ، ولذلك فإنه من المحتمل أن تكون من ترجمة سرجيوس . ونستطيع أن نستدل من بعض الاستعمالات اللغوية على أن الموعظة التي نسبت الى ايسوقراطس هي من ترجمة سرجيوس . والى هذه الدائرة أيضاً ترجع النصوص السريانية لحوار سقراطس التي ضاع أصلها اليوناني ، وسيرة الفيلسوف سُكندس الصامت . ويدل وجود بعض حكم ميناندروس في السريانية على أن مسرحيات ميناندروس كانت مترجمة الى السريانية ، وربما كانت موجودة أيضاً في اللغة الآرامية الشرقية في العصر السابق على المسيحية . وهناك حكم لفيثاغورس ، ومجموعتان عن الفلسفة الأفلاطونية ، بهما حوار منسوب لأفلاطون مع أحد تلاميذه ، منه ما هو مترجم عن اليونانية ، ومنه ما نشأ في أرض سريانية وهو مجموعة من الحكم لمؤلفين مختلفين . وهناك ترجمة سريانية لحكم نثرية يونانية تحمل اسم Sextos

ولم تقتصر الترجمة في هذا العصر على الكتابات الفلسفية ، ولكنها جاوزتها الى التاريخ الطبيعي ، فقد ترجم منه عن اليونانية كتاب فسيولوجوس ، : وهو كتاب مسيحي قديم يرجّح أنه كتب في الاسكندرية باللغة اليونانية فى النصف الأول من القرن الثاني ، معتمداً

على التاريخ الطبيعي الشعبي في العصر السابق على ظهور المسيحية ، ولم يُذكر مؤلفه ، ويمكن أن نعتبره أكثر الكتب الشعبية انتشاراً في العصور الوسطى ، فقد ترجم الى لغات مختلفة ، وتقع ترجمته السريانية في ٣٢ فصلاً ، وله ترجمتان متأخرتان زيدت عليهما عدة إضافات ؛ والقسم الرمزي ناقص في الفصل الأول ، ولكنه كتب بتصرف في النص الثاني وأضيفت اليه عدة إضافات تتصل إتصالاً وثيقاً بمايامر هكسامرون التي كتبها باسيليوس. ولذلك فانه يحتمل أن يكون هو مؤلف هذا الجزء . وقد ضاع النص الأصلي ، ويغلب على الظن أنه كان ينقسم الى ٨١ فصلاً ، وقد وصلنا في نص غير كامل ، مع تغيير في ترتيب الفصول. وقد استفاد برهلول في معجمه من نص نسطوري لهذا الكتاب يظهر انه كان يحتوي على ١٢٥ فصلاً ويعالج هذا النص الأشجار والأحجار الى جانب حديثه عن الحيوان . وتشتمل الفصول من ٨٠ الى ٨٩ على مواد تتصل بالجغرافيا . وقد عرفت السريانية ترجمة قائمة بذاتها عن وصف الأرض ترجع نشأتها الى عصر أحد ملوك البطالسة .

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية ، وعزي تأليف النص اليوناني في هذه الترجمة الى جريجور النزيانزي ، واشتمل النص العربي على بعض زيادات ، وتاريخ بعض الحيوانات ، كما حذفت منه بعض أجزاء ، وذلك يرجح صلته بنص سرياني متقدم . ولم تدرس النصوص العربية لهذا الكتاب بعد درساً علمياً وافياً .

وكذلك تناول السريان الفلاحة في هذا العصر في كتاب الجيوبونيكا السرياني ، وهو في الأصل ترجمة لكتاب يشتمل على ١٢ فصلا ترجع الى فندانيوس أناتوليوس البيروتي من القرن الرابع أو الخامس . وقد كتب فندانيوس كتابه في ١٣ أو ١٤ فصلاً ، والفصلان الأخيران إضافات ، يدور الحديث فيها عن تربية الحيوان ، والاستنبات ، ولعلهما منقولان عن كتاب يوناني آخر عن البيطرة . وهذا الكتاب أساس الكتاب العربي « الزراعة اليونانية » الذي ترجمت بعض نصوص منه ، وقد عُرف أنه ترجمة لكتاب يوناني ألَّفه « كسيانوس باسوس المعلم » . وهو غير كتاب ترجم عن الفارسية وسمِّي مؤلفه الرومي سرجيوس بن الياس ، وعُرف باسم سرجيس بن هليا الرومي ، وهو المترجم العربي — لا السرياني — لهذا الكتاب . أما صلة النصين العربي والسرياني

بالجيوپونيكا اليونانيـة لمجموعة القيصر قسطنطين ، فنستطيع أن نتبينها من أن أساس الجيوپونيكا هو كتاب كسيانوس ، الذي جمع فيـه كتاب أناتوليوس ، وكتاب آخر لديديموس .

ولما كان النساطرة هم الذين بدءوا أعمال الترجمة عن اليونانية في القرن الخامس فقد وصلوا أعمال الترجمة في هذا القرن أيضاً فترجمت كتابات نسطوريوس التي أمكن استخلاصها من أيدي أعدائه : منهـا مجموعة من رسائله ، ومجموعة أخرى من ميامره ومقالاته . ولا نعرف الزمن الذي ترجمت فيه على التحقيق ، وكل ما نعرفه أن ترجمة بعض هذه الكتابات تعزى الى عصر الجاثليق بولس حوالي سنة ٥٣٦ م . ومن هذه الكتب كتاب نسطوريوس الرئيس Pragmateia وقد وصل الينا هذا الكتاب ، وكذلك ترجم له كتاب كفاليا ويقع في ثمانية وثلاثين فصلاً وإن كان يُشك في صحة نسبة هـذا الكتاب اليه ، وله اثنتا عشرة مقالة سريانية تحت اسم « لعنات » ولكنها تختلف عن الأصل اليوناني . وقد اقتبس معارضوه الكثير من هذه الكتب في الرد عليه .

كما ترجمت كتابات بعض معاصري نسطوريوس : فترجم للمفريان اوثيريوس من بلدة تيانا مقالات وميامر ، ورسالة في الرد على إحدى الهرطقات ، وشرح للاناجيل . وترجم للقس تيودولوس تلميذ تيودور المفزوستي شروح على الكتاب المقدس ورسالة عن استعمال المزامير . وترجمت بعض الكتب والميامر لباسيليوس . وشروح على بعض الأناجيل لأكيلينوس . وشرح على حزقيال ورسالة في الجدل لفيلوتاوس

النقل عن الفارسية

كان النساطرة هم أول من عمل على نقل الثقافة اليونانية الى السريانيـة في القرن الخامس وكذلك كانوا — بحكم إقامتهم في البلاد الفارسية واتصالهم بثقافتها — هم الذين عملوا على نقل الثقافة البهلوية الى اللغة السريانية . فالى جانب استمرارهم في الدراسات الارسطاطالية التي بدأتهـا مدرسة إيهيبا في الرُّها ، اهتمّ النساطرة بالدراسات الطبية ، ونقل الآداب الدنيوية البهلوية الى السريانية ولكنهم مع ذلك لم يترجموا إلاَّ قليلاً من هذه الكتابات ، لأن السريان عامة كانوا لا يميلون كثيراً الى الموضوعات اللادينية من جهة ،

كما كانوا يتحرجون من قراءة المؤلفات الفارسية ، لأنها — في رأيهم — تمثل الحضارة الزرادشتية المجوسية . ومع ذلك فقد أحب السريان بعض القصص التي كانت لا تمت الى الدين بسبب ، وكان أبّا الكشكري على رأس القائمين بهذه الحركة التي كانت تتركز في نصيبين — فيما يظهر — وكان يمثلها الى جانبه القس بود مترجم كليلة ودمنة ، وكاتب آخر هو مؤلف قصة الاسكندر السريانية .

ولما كان النساطرة قد عُرفوا بنشاطهم التبشيري ، فقد استلزم ذلك قيامهم بترجمة بعض الكتابات من السريانية الى الفارسية وبخاصة ما تعلّق منها بالعقيدة ، فنسمع مثلاً أن الجاثليق أقاقيوس قد ترجم كتاب اليشع بن قوزبايا السرياني عن العقائد المسيحية الى الفارسية ، وقدمه لقباذ ملك الفرس إجابة لرغبته . ونسمع كذلك أن يوسف تلميذ ابراهام النثفراني قام بترجمة لوائح ابراهام الكشكري في الرهبنة ، ومقالات ابراهام النثفراني الى اللغة الفارسية .

وقد دوّن أبّا الكشكري كتاباته في البلاط الفارسي إذ كان له نفوذ شخصي عند كسرى الثاني (٥٩٠ — ٦٨٢ م .) الذي سفَر له عند القيصر موريق (٥٨٢ م — ٦٠٢ م .) وقام بخدمات جليلة للكنيسة النسطورية لعلاقته بالجاثليق سبر يشوع الأول وجريجور . كان ملمًّا بالفلسفة والفلك والطب ، واللغات الفارسية واليونانية والعبرية . وله آثار أدبية كثيرة منها رسائل وشرح لمنطق أرسطو ، الى جانب أعمال الترجمة التي قام بها .

وأما بود فكان قسيساً طوافاً على المسيحيين المقيمين في الفلوات الممتدة بين فارس والصين . له مقالات عن العقيدة النسطورية ، ومقالات في الرد على المانوية والمرقونية ، ورسالة في شرح الكتاب الأول من ميتافيزيقا أرسطو . وينسب إليه أيضاً ترجمة كتاب كليلة ودمنة الى السريانية عن الهندية . والأمر الذي لاشك فيه أن أساس هذا النص معروف في كتابات الأدب البوذي اللاديني الذي أدخله البراهمة في كتاب البانجَ تنترا (أي القصص الخمس) لكصنوسرمان ، والذي وجد طريقه في ملحمة المهبهراتا الهندية ؛ والبانج تنترا هي المنبع الذي صدر عنه مجموعة من القصص جُعلت أشخاصها من الحيوان .

ويخبرنا عبد يشوع في فهرسه أن الترجمة السريانية القديمة لهذا الكتاب من وضع

القس بود ، وجعل عنوانه « كليلج ودمنج » على اسم شخصيتين بارزتين في الكتاب لابني آوى . وقد ذهب عبد يشوع الى أن بود وضع ترجمته السريانية عن أصل سنسكريتي . ولكننا نستطيع أن نصل — عن طريق بعض الخصائص اللغوية — الى أن الترجمة السريانية قد أخذت عن ترجمة بهلوية وضعها برزُويه الحكيم الفارسي لكسرى الأول ملك فارس ، ومنه نقل بود ترجمته السريانية قبل الاسلام . وقد نشر بيكل هذه الترجمة .

***

وأما قصة الاسكندر الأكبر فقد كتبت نواتها باليونانية في مصر في عهد البطالسة ، ولكنها ظهرت في الأدب العالمي في القرن الثالث الميلادي أيام حكم قياصرة الروم الشرقيين منسوبة الى اسم مستعار هو « كلستينس » .

وقد اشتملت هذه القصة على سيرة الأسكندر ، كما كان يراه أهل المشرق القديم ، فانهم كانوا لا يرون فيه عدواً ولا غاصباً لأوطانهم ، وإنما كانوا يعدونه بطلاً من أبطالهم . ولهذا شاعت هذه القصة بينهم ، واصطبغت بالصبغة الشعبية فأقبل الفرس الذين ضاعت مملكتهم بالفتح العربي على قراءتها ، ووجدوا فيها كثيراً من التسلية ، ثم زعموا أن أمه كانت فارسية ، كما زعم المصريون أن أمه كانت مصرية ، وعدّه الأحباش قديساً ؛ وقد كثرت الروايات عنه وما زالت تتزايد حتى الآن ، فيروي الفلاحون الساكنون في طور عبدين ، أن رجلاً اسمه كندر ذو القرنين كان من أبطال الأكراد ، وأنه كان من أصحاب الشجاعة والمروءة . وكما حرّف أهل طور عبدين اسمه فجعلوه « كندر » كذلك حرف العرب اسمه فجعلوه «اسكندر» ظنّاً منهم بأن الألف واللام التي في أول اسمه الاكسندروس أداة تعريف .

والترجمة السريانية القديمة لهذه القصة لم تنقل عن اليونانية مباشرةً . وكان المعروف أولاً أنها نقلت عن العربية ، وانها لهذا يجب أن تكون قد وُضعت حوالي القرنين العاشر والحادي عشر . ولكن نولدكه أثبت — بعد دراسة لغة الكتاب ، وبخاصة صيغ اسماء الأعلام — ان النص السرياني يجب أن يكون مأخوذاً عن البهلوية ، ويظهر أنه نشأ أولاً

في وسط نسطوري في وقت لا يعدو القرن السابع بحال من الأحوال ، وهو النص الذي ترجم الى العربية قبل سنة ٨٤٨ م . وقصة الاسكندر المعروفة في النصين السرياني والعربي هي نفس القصة المنسوبة الى كلّستينس بعد أن أضفيت عليها مسحة مسيحية ، وأضيفت اليها قصة سريانية عن حملة الاسكندر الى حدود العالم .

وقد الحقت بالقصة الأصلية اسطورتان : الأولى عن نبع الحياة . والثانية عن باب النحاس الأحمر على حدود جوج وماجوج . وهما — في الترجمة السريانية — قسم منفصل عن القصة الأصلية ، ولكنهما أقحما في القصة الأصلية في بعض النسخ اليونانية . ولعلّ السبب في نشرهما منفصلتين : أن القصة وثنية محضة ، على حين يظهر الاسكندر في الأسطورتين كملك يهودي أو نصراني يعمل بإرادة الله . كما اشتملت النصوص اليونانية على قصص خرافية للحيوان ، وكان السريان يطلقون عليها اسم « خطاب الاسكندر الى ارسطاطاليس »

أما الترجمة الحبشية فقد مزجت بين القصة وبين الأسطورتين ، وفيها يظهر الملك المقدوني ، من أولها الى نهايتها ، لا على أنه ملك مسيحي فحسب ، وانما على أنه رجل متبحر في اللاهوت ، ملمّ بأسرار العقيدة .

وترجع هاتان الأسطورتان — في أغلب الظن — الى مطلع التاريخ المسيحي ، فإن المؤرخين يوسف وجيروم يعرفان موضوع جوج وماجوج ، وإن كانت الترجمة السريانية لهما متأخرة قليلاً ، وهما يطلقان اسمهما على التتر الذين اجتاحوا سوريا سنة ٥١٥ م .

***

وقد اتُّخذت الاسطورتان نواة لقصيدة قصيرة عن سيرة الاسكندر ، يغلب على الظن أنها من وضع يعقوب السروجي إذ أنها تنسب اليه في جميع المخطوطات ، ومع أن هذه القصيدة لم تصل من الإتقان الى الحد الذي بلغته أشعار يعقوب السروجي ، إلا أنه يجب أن لا ننسى أن المؤلف كان قد تقدمت به السن عند كتابتها حوالي سنة ٥١٦ م . إذ كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره .

تدوين التاريخ

رأينا أن السريان قد تناولوا جميع فنون الأدب التي كانت معروفة في أيامهم ، ولكن مما لاشك فيه أنهم لم يُبرزوا فيها كما برّزوا في الكتابات التاريخية ، وبخاصة في تدوين أخبار الأيام عن الحوادث التي وقعت إبان حياة بعض المؤلفين ، فقد اتخذ المؤرخون هذه الكتابات مراجع يعتمدون عليها في تدوين تاريخ الفترات التي تعرّض لها هؤلاء المؤلفون .

ومن أقدم هذه الكتابات ، تاريخ فيضان نهر ديصان الذي وقع سنة ٢٠١ م . وهو من الكتابات السريانية في العصر السابق على المسيحية ، وقد تعرضنا له من قبل (ص ٢٤) فلما قامت المسيحية أكثر السريان من تدوين التاريخ ، وتُعدّ الرُّها أول مدينة سُطر فيها التاريخ المسيحي ، في سيرتي أدّى وأبجر الخامس ، ولكنهما يدخلان في سلك الأساطير ولا يمكن اعتبارهما من الكتابات التاريخية التي تشتمل على أخبار متواترة (ص ٤٣)

وقد استتبع قيام المسيحية تعرّض بعض معتنقيها لألوان من الأذى وصنوف من العذاب، وبخاصة بعد قيام النزاع الكنسي ، وازدياد عدد المستشهدين في سبيل العقيدة ، فأخذ السريان يدوّنون سير شهدائهم، ويضمنونها بعض الأخبار، ولما كان الغرض من تدوين هذه السِّيَر ، هو إحياء ذكرى الشهداء بقراءة أخبارهم تغنياً بها ، فقد توسّع الكتّاب في هذه الأخبار ، وكانوا — إذا أعوزتهم الأخبار الصحيحة — يلجئون دائماً الى الحدس والتخمين . واشتملت هذه السير في بعض الأحيان ، على وصف لحالة الدولتين الرومانية والفارسية من الناحيتين السياسية والادارية . كما كانت تشتمل على وصف للزمان والمكان الذي وقعت فيه ، وتسجيل للحوار الذي كان يقع بين الشهداء وموظفي الدولة ، وكان هذا الحوار يشتمل عادةً على شرح وجهة نظر الشهيد الدينية . ومن أمثال ذلك ما وصلنا من سير شربيل الكاهن الوثني الذي اعتنق المسيحية ، وبرسميا أول أساقفة الرُّها ، وحبيب الشماس . وقد كتب السريان في هذا الباب كثيراً خلال فترة طويلة من الزمن ، ويمكن تقسيم هذه الكتابات الى ثلاثة أقسام : الأول أخبار شهداء الامبراطورية الرومانية . وقد وصل إلينا منها سير شهداء سَمَيصات ، وهم الذين استشهدوا في الاضطهادات التي لحقت المسيحيين من الامبراطور مكسيميانوس جالّيوس (حوالي

٣٠٦ — ٣١٢). والثاني سير شهداء الاضطهادات التي كان مسرحها الأمبراطورية الفارسية. وكان لهذا النوع من الأدب أهمية كبرى في هذه الأرجاء، ومعظمها ترجع الى اضطهاد شابور الثاني ملك الفرس للمسيحيين، ومنها قصة كرخ بيت سلوك (كركوك). والثالث أخبار الشهداء في غير هذين الاقليمين، كقصة نوّام افيزوس السبعة واضطهاد ذي نواس الملك اليهودي لمسيحي نجران في اليمن.

الى جانب سير الشهداء، اتجه المؤلفون الى تأريخ سير القديسين، وأكابر رجال الدين والمتصوفة كسيرة ربّولا أسقف الرُّها، والكسيوس رجل الله، وسمعان العمودي، وديوسقورس بطرق الاسكندرية، ومار أبّا الأول، وسبر يشوع، وكثير غيرهم.

وهناك عدد من النبذ التاريخية عن الأديرة النسطورية المشهورة، أما الأديرة اليعقوبية فالظاهر أن رهبانها لم يحرصوا على التأريخ لأديرتهم، ومع ذلك فقد ضاع الكثير من هذه التواريخ، ولم يبق الا ماكتبه يشوع دنح وتوما المرجي في العصر الاسلامي في القرنين الثامن والتاسع.

أما تدوين التاريخ العام عند السريان فقد بدأ مع القرن السادس أو قبيله بقليل، في الوقت الذي بلغت فيه الآداب السريانية الذروة. وأقدم كتاب وصلنا في هذا الباب هو «كتاب تسلسل الأسباط أو مغارة الكنوز» وهو كتاب سرياني الأصل لا يُعرف مؤلفه، وإن كان ينسب الى افريم (أنظر ص ٨٣) ولكن نسبته اليه غير صحيحة، ويؤكد بتسولد ونولدكه أن هذا الكتاب من نتاج القرن السادس، وأنه كتب فيما بين النهرين.

والكتاب عبارة عن توسع في تاريخ الكتاب المقدس، ويتناول التاريخ الأسطوري لأسباط اسرائيل وتسمّى اللغة السريانية فيه ملكة اللغات جميعاً وأنها اللغة العامة التي كان الناس جميعاً يتكلمونها قبل تصدع برج بابل. وأن السريان لم يقوموا بأي دور في صلب المسيح. والواقع أن عنوان «مغارة الكنوز» لا ينطبق إلاّ على القسم الذي يخص آدم، وإخراجه من الجنة، واعتزاله على جبل مجاور، والتجائه الى مغارة وضع فيها الذهب واللبان والمُرّ التي حملها معه أثناء خروجه من النعيم. وقد تطهّر آدم والآباء الذين جاءوا بعده بأن قدموا المغارة التي ستكون قبراً لهم بعد مماتهم قرباناً لله، فلما كان الطوفان قام نوح بنقل رُفات آدم مع الذهب واللبان المرّ الى السفينة، وفي نهاية الطوفان توفى نوح، وقام سام

وملكيصادق — بارشاد أحد الملائكة — بوضع هذه الرفات في وسط الأرض ، حيث تتجمع نواحي المعمورة الأربع عند جبل الجلجلة الذي ينفتح قليلاً على شكل صليب ليضمّهم. ولهذا فان آدم سيعمّد بالدم والماء اللذين سالا من جرح المسيح ، وسترفع عنه آثامه في جبل الجلجلة . وبعد سام لم يعد هناك شأن لهذه المغارة .

فلما ابتدأ القرن السادس ، كانت الآداب السريانية — كما لاحظنا — قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الرقي ، ومع ذلك فلم يكن قد ظهر بين السريان مؤرخ واحد حتى ذلك الحين ولكن اتصال اليعاقبة باليونان جعل اليعاقبة يحاكون اليونان في انشاء سجلات تاريخية باللغة السريانية الى جانب استمرارهم في كتابة السير المستقلة للقديسين والأبطال ، فظهر تاريخ يشوع العمودي ، وظهر يوحنا الأفيزوسي الذي ربط بين كتابة السير وكتابة التاريخ الكنسي بأسلوب أدبي ، وظهر قورا ، وظهرت قصة يوليان المرتد التي نحا بها مؤلفها المجهول ناحية خيالية ، والى جانب ذلك قام السريان بترجمة بعض كتب التاريخ التي ألفها أصحابها باليونانية الى السريانية ، منها تاريخ زكريا المدلي المعروف بالبليغ ، وأوسابيوس ، ويؤنس روفوس ، وسرجيس بن كريا .

أما عن السير ، فقد ظهرت مجموعة سير لعظماء الكنيسة من اليعاقبة ، منها نصان ينسبان الى تلميذ القس برصوما المتوفي سنة ٤٥٨ م . وهو الذي وافق على رد اعتبار اوطيخيوس في مجمع أفزوس الطمث سنة ٤٤٩ م ؛ وكتب سيرة برصوما وفيها الكثير من العجائب التي تنسب اليه ، وكذلك كتب سيرة استاذه صمويل ، وسيرة ابراهام من الجبل العالي الذي توفى سنة ٤٠٦ م . وسيرة الأسقف اسطفانوس . وتعد سيرة يوحنا التلي التي ألفها ايليا بعد فتح الفرس للرقة سنة ٥٤٢ م مصدراً هامًّا للتاريخ . وهناك تاريخ تأثر مؤلفه المجهول بالناحية البلاغية. ولهذا كانت كتابته خالية من الحيوية وهو تاريخ لرئيس دير اسمه يؤنس ابن افتونيا المتوفى سنة ٥٣٧م . والذي طُرد مع رهبانه من دير توما في سلوقيا الواقعة على نهر العاصي حوالي سنة ٥٣١ م . فذهب الى شاطىء الفرات الأيمن أمام يوروپوس ، وأنشأ ديراً في قنسرين ، وكان له نشاط أدبي باليونانية . وفيما بين نهاية سنة ٦٢٨م . ونهاية الحكم الفارسي ، وصل الينا تقرير عن حوادث سنة ٦٢٢ م بناء على رغبة الأسقف زاخاي التلي .

تاريخ يشوع العمودي

أما عن كتّاب التاريخ العام فقد كان يشوع الراهب العمودي هو أول هؤلاء. ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن يشوع صاحب هذا التاريخ إلاّ أنه كان في الأصل قسيساً في دير زوقنين بالقرب من آمد، وأنه كان يقيم قبل ذلك في الرُّها في مطلع القرن السادس، وأنه كان يدرس في مدرستها ثم كان خازن دير. ومن المحتمل أنه عاش مذبذباً في عقيدته بين أصحاب الطبيعة الواحدة والملكية، فقد امتدح في تاريخه اكسنايا (فصل ٣٠) ويعقوب السروجي (فصل ٥٤) وهما من أعلام الطبيعة الواحدة، وعاب انستاس بعد ذلك على نفيه له.

ونحن لا نعرف من كتابات يشوع إلاّ تاريخه. ويقول السمعاني إنه ألفه في شتاء سنة ٥٠٧ م. وسجل فيه «الحوادث العصيبة التي طافت بالرُّها وآمد وغيرهما من أنحاء الجزيرة وسوريا فيما بين أواخر سنة ٤٩٤ و ٢٨ نوفمبر سنة ٥٠٦ م. ويعتبر هذا التاريخ أفضل سجل للحرب التي وقعت بين الفرس والامبراطورية البيزنطية فيما بين سنتي ٥٠٢ و ٥٠٦ م. في عهد قباذ وانسطاسيوس. ويخبرنا يشوع أنه كتب هذا التاريخ تلبية لطلب القمص سرجيس راعي دير منطقة الرُّها.

أما عن تاريخ وضع هذا الكتاب فقد ذكر السمعاني أنه ألفه في شتاء سنة ٥٠٧ م. وسايره على ذلك الرأي نولدكه ورايت وبومشتارك، مستدلين على ذلك بعبارات الفصل الأخير من التاريخ. أما نو ودوفال فيريان أنه أُلّف حوالي سنة ٥١٨ م لأن المؤلف يتحدث في كتابه كثيراً عن عهد انسطاسيوس، وليس هذا الرأي عندنا وجيهاً، لأن المؤلف مع انه تحدث عن عهد انسطاسيوس فليس هناك ما يدل على أنه قد تحدث عن نهاية هذا العهد.

ولم يكن هذا التاريخ ليصل إلينا لولا أنه حاز إعجاب مؤرخ آخر جاء بعد يشوع بنحو قرنين، وهو ديونسيوس التلمحري، فضمه بأكمله الى تاريخه بالحالة التي هو عليها دون أي إصلاح، بعد حديثه عن بأس زينون.

وكان السمعاني هو أول من اكتشف هذا التاريخ من المحدثين، وكان كذلك أول من دلّ المؤرخين على ما جاء فيه في الملخص الذي نشره له باللاتينية في كتاب المكتبة

الشرقية . وقد عثر عليه ضمن مجموعة يعتقد هو أنها من عمل ديونسيوس التلمحري البطرق اليعقوبي في ممحوة كتابتها الأصلية باللغة القبطية . وقد نقل السمعاني هذا المخطوط من دير السريان بوادي النطرون بمصر الى مكتبة الفاتيكان . وهو يؤكد في فهرسه للمخطوطات السريانية لمكتبة الفاتيكان أن أصل هذا المخطوط كان من بين المخطوطات التي حملها موسى النصيبيني معه الى دير السريان بوادي النطرون سنة ٩٣٢ م . بعد زيارته لبغداد وطوافه بجزيرة ما بين النهرين .

وقد نشر الأب مارتين هذا التاريخ أولاً عن مخطوط غير واضح ولذلك فقد اشتملت النشرة على كثير من الاخطاء . ثم نشره رايت بعد ذلك .

وبعد نشر النص السرياني لهذا التاريخ بدأ البحث يدور حول مؤلفه ، أهو يشوع العمودي كما ذكر السمعاني أم غيره ؟ ولكن الشك بدأ يتطرق الى أذهان الباحثين في صحة هذه النسبة. فذكر «نو» في بحث له عن تاريخ ديونسيوس التلمحري أن مؤلف هذا التاريخ ليس يشوع العمودي ، ولكنه مؤلف مجهول، وشاطره نولدكه نفس الرأي .

ومهما يكن من شيء فقد كان المؤلف شاهد عيان لكثير من الحوادث التي يسردها. وهو يبدأ كتابه باهداء طويل الى صديقه القسيس سرجيوس ينتهي منه بتلخيص مقتضب للحوادث التي وقعت بعد وفاة يوليانوس سنة ٣٦٣ م . ثم يتعرض بشكل أوسع لعهد فيروز (٤٥٧ — ٤٨٤ م .) وبلاش (٤٨٤ — ٤٨٨ م .) ملكي الفرس . فإذا انتهى من ذلك بدأ في موضوع الكتاب عن تاريخ العلاقات المضطربة بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية من عهد قباذ الأول (٤٨٩ — ٥٣١ م .) حتى اذا بلغ حديثه عن الحرب بين الفرس واليونان (٥٠٢—٥٠٦ م .) ارتقى الى الذروة في أسلوب سرياني غاية في الجزالة .

وقد تعرض المؤلف للنعمان ملك الحيرة في الفصلين ٥١ و٥٢ من تاريخه ، ونحن نورد هنا ترجمة الفصل ٥٢ . وقد يكون من الطريف حقاً أن نلاحظ في هذا الفصل أن طريقة جمع الحديد من السكان عند اشتداد الحاجة اليه في الحروب ، التي اتبعتها بعض الدول في الحرب الأخيرة، ليست من ابتكارها وانما هي من ابتكار السريان منذ القدم .

« وفي السادس والعشرين من هذا الشهر جاء النعمان من الحيرة في الجنوب ودخل بلاد

الحرّانيين وخرّبها ، ونهب منها عيراً وأسلاباً ، وسبى خلقاً كثيراً ، ثم سار حتى الرُّها مُخرباً ناهباً سابياً في كل القرى وهو في طريقه ، حتى بلغ عدد من ساقهم الى الأسر ثمانية عشر الف وخمسمائة ، هذا غير من قُتلوا ، وغير ما نهبه من عير وأسلاب ، وكان الفصل فصل حصاد ، ولهذا كان الناس كلهم بالقرى ، وكان معهم كثير من الحرّانيين والرهاويين فوقعوا في الأسر ، ومن أجل ذلك شُدِّدت الرقابة على الرُّها ، وحُفرت الخنادق ، وأُصلح السور ، وسُدَّت أبواب المدينة بالأحجار لأنها كانت متهدمة ، ولما أرادوا تجديدها لكي لا يدخل العدو منها ، لم يجدوا من الحديد ما يكفي ، ولذلك صدر أمر أن تقدِّم كل دار بالرُّها عشرة أرطال من الحديد ، وعندئذٍ أُنجز العمل . ولما رأى أوجين أنه لا يستطيع مقاومة الفرس كلهم ، سار بمن تبقى معه من الجيش ودهم معسكرهم في رأس العين وخرّب كل ما كان فيه واستولى على المدينة »

تاريخ الرُّها

وبعد سنوات قلائل من تدوين يشوع لتاريخه ، قام مؤلف مجهول بكتابة سجل تاريخي يعرف باسم « تاريخ الرُّها » . ويبتدىء هذا التاريخ بسنة ١٣٢ قبل الميلاد . وينتهي بسنة ٥٤٠ م . وهي السنة التي يرجح أن يكون قد أُلّف فيها . والقسم الأول منه شديد الايجاز فيما بين سنتي ١٣٢ ق . م . و٢٠٢ م . ولكنه بعد ذلك أكثر تفصيلاً ، وهو يقرن الحوادث بتواريخها ، وهو من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامّة . والظاهر أن مؤلف هذا الكتاب كان ملكي المذهب ، ولكنه لم يكن متحمساً لعقيدته ، وإنما كان ظاهر الميل الى النسطورية شأن عدد من السريان في بداية القرن السادس .

أما المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في وضع هذا الكتاب فهي : الوثائق الرسمية لمدينة انطاكيا حيث يبدأ التقويم عندهم بأول سبتمبر . وتاريخ للامبراطورية الفارسية ، ضاع قبل أن يصل الى أيدينا . وتاريخ يشوع العمودي . والوثائق الرسمية لخزانة محفوظات أساقفة الرُّها التي ضاعت تماماً . وقد كان السمعاني هو أول من نشر هذا التاريخ في الجزء الأول من المكتبة الشرقية .

يوحنا الأفزوسي (أو الأسيوي)

ويوحنا الأفزوسي مؤرخ عالمي ، كان يلذ له أن يلقب نفسه بـ « معلم الكفرة » و « عرّاف الكفرة » و « محطم الأصنام » . وُلد في مدينة آمد في مطلع القرن السادس حوالي سنة ٥٠٥ م . فيما يرجح المستشرق لاند ، وعمل شماساً في دير القديس يوحنا سنة ٥٢٩ م . وكان في فلسطين سنة ٥٣٤ م . عند ظهور الوباء بها في أيام حكم يوستنيان ، وكان يوحنا في ذلك الحين قد هرب من آمد الى فلسطين تجنباً للاضطهاد الذي صبّه افريم الآمدي بطرق انطاكيا (٥٢٩ — ٥٤٤ م .) وابراهام التلي أسقف آمد (٥٢٠ — ٥٤٦ م .) على أصحاب الطبيعة الواحدة . وفي سنة ٥٣٥ م . سافر الى القسطنطينية ليدافع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وهناك التقى بيعقوب البردعي ، وعين في السنة التالية — فيما يقول ابن العبري — أسقفاً لأصحاب الطبيعة الواحدة في القسطنطينية بعد البطرق انتيموس . ومهما يكن من شيء فقد لقيه يوستنيان بكثير من الحفاوة ، ثم أصبح صديقاً له ، وموضع ثقته ثلاثين عاماً ، وعهد إليه إدارة أملاك جماعات أصحاب الطبيعة الواحدة في المملكة الرومانية ، وفي غيرها من البلاد .

وقد أراد الامبراطور أن يقضي على عبادة الأصنام في آسيا الصغرى لأغراض سياسية ودينية ، فاختاره لهذه المهمة فلقي فيها نجاحاً كبيراً . وفي أثناء قيامه بهذه المهمة لقي يعقوب البردعي فعينه أسقفاً على أفزوس على أن يكون له الإشراف على جميع آسيا الصغرى . وفي سنة ٥٤٦ م . استقدمه الامبراطور الى القسطنطينية لاتمام مهمته في القضاء على المتسترين من عبّاد الأوثان في القسطنطينية وما جاورها ، وتحطيم أصنامهم .

ولكن يوحنا لم ينعم بهذه الحياة الهادئة طويلاً فقد مات سنده يوستنيان وتغيرت سياسته منذ سنة ٥٧١ م . وتبدّل معها حظ يوحنا : فقد استؤنف اضطهاد أصحاب الطبيعة الواحدة ، فلقي في هذا الاضطهاد كثيراً من التعذيب وانتهى به الأمر الى السجن : ثم هرب وأخذ يتنقل من مكان الى مكان ، وظلّ في هذه المحنة حتى مات حوالي سنة ٥٨٦ م . وكان حينئذٍ قد جاوز الثمانين من عمره . ولكننا لا نعرف تاريخ وفاته على التحقيق ، ولا أين توفى .

وكتابه تاريخ الكنيسة هو أكبر أعماله الأدبية ، وأقدم كتاب في تاريخ الكنيسة وصلنا عن السريان اليعاقبة . ويخبرنا هو نفسه أن تاريخه يقع في ثلاثة كتب ، ويقع كل كتاب منها في ستة أجزاء . تناول في الكتاب الأول باختصار ، عصر ما قبل قسطنطين من يوليوس قيصر حتى مجمع افزوس الثاني سنة ٤٤٩ م . وتناول في الكتاب الثاني تاريخ الفترة الواقعة بين هذا المجمع ونهاية السنة السادسة لحكم يوستنيان الثاني سنة ٥٧٢ م . وتناول في الكتاب الثالث بقية الفترة التي تنتهي بسنة ٥٨٥ م . وهي السنة التي يرجح أن المؤلف قد مات فيها أو بعدها بقليل . وكثيراً ما كان يكرر في الجزء الثالث بعض ما ذكره في الجزئين السابقين ، وسنرى بماذا يعلل هو نفسه ذلك .

وقد ضاع الكتاب الأول كله . وبقيت لنا أجزاء هامة من الكتاب الثاني في مخطوطتين من مخطوطات المتحف البريطاني . يضاف الى ذلك أن مؤلف التاريخ المنسوب الى ديونسيوس التلمحري يصرح بأنه أخذ القسم الثالث من تاريخه عن الكتاب الثاني من تاريخ يوحنا . وقد أثبت المستشرق الفرنسي « نو » أن الذي وصل الى أيدي هذا المؤلف إنما هو أجزاء متناثرة من هذا الكتاب ، وهي نفس الأجزاء التي بقيت لنا من مخطوطي المتحف البريطاني . وبقي لنا الكتاب الثالث من هذا التاريخ في مخطوط يرجع الى القرن السابع محفوظ بالمتحف البريطاني ، ولكن به بعض النقص ، وقد نشره المستشرق الانكليزي كيوريتون

وكان لابتعاد يوحنا عن وطنه ، واضطراره الى الهرب من مكان الى مكان أثر شديد في لغته الأصلية ، وهي اللغة التي ألف فيها كتبه ، فقد ظهر تأثره بالألفاظ والأساليب اليونانية واضحاً في كتابته حتى جاءت عبارته السريانية ثقيلة معقدة في بعض الأحيان . أما الارتباك الشديد الذي نشاهده في ترتيب تاريخه ، فقد جاء نتيجة لما لابس حياته من اضطراب في أواخر أيامه ، وقد أحس هو نفسه بذلك ، ولم يفته أن يعتذر عنه ، فقال في الفصل الخمسين « وربما أنحى القارىء المثقف على المؤلف باللائمة عند قراءة هذا التاريخ ، على الخلط الذي يسود سياق الكتاب : كأن يجد حادثة واحدة مكررة أو مشتتة في أكثر من موضع واحد . ولكني أرجو أن يلاحظ القارىء أن أكثر هذه الفصول قد كتب في

عصر سادته الفتنة والاضطهادات ، وكان من الضروري أن ينقل بعض الاصدقاء الأوراق التي كتبت عليها هذه الفصول ليخفوها في أماكن أمينة ، حيث كانت تبقى في هذه المخابىء فترة تتراوح بين العامين والثلاثة . وكنت اذا أردت أن أسجل في مذكراتي حوادث كنت ربما قد تعرّضت لها جزئيًّا أو كليًّا من قبل ، ولكني لا أتذكر من جهة ، والمذكرات السابقة بعيدة عني من جهة أخرى ، لهذا كنت أعاود تفصيلها ثانياً ، وعلى ذلك فقد يتكرر الشيء الواحد في أكثر من فصل . كذلك لم يكن لديّ وقت فيما بعد لتبويب هذه المذكرات أو ترتيبها بطريقة مطردة تبعاً لوقوع الحوادث ، ولهذا جاء هذا الكتاب مكوناً من قطع متفرقة ، جمعت آخر الأمر في سجل واحد » .

ونستطيع أن نرى ما قاله واضحاً في الكتاب الأخير فقد سجل سنة ٥٨١ م . في ورقة ٣٩ من الجزء الأول،وسنة ٥٧٧ م في ورقة ١٥ من الجزء الثاني، وسنة ٥٨٢ م في ورقة ٢٢ من الجزء الثالث ، وسنوات ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٨٠ و ٥٨٥ م . في الورقات ١٣ و ١٩ و ٥٣ و٦١ من الجزء الرابع ، ثم سنة ٥٨٤م في الورقة ٢٥ من الجزء السادس.

ويوحنا فيما بقي لنا من كتابه هذا مؤرخ واقعي ، يورد معلومات دقيقة عن المحنة التي أصابت كنيسة اليعاقبة خلال القرن السادس .

وليوحنا كتاب آخر يتمم كتابه تاريخ الكنيسة ، وهو كتاب «سير الآباء الشرقيين» ويشتمل على سير آباء الكنيسة اليعقوبية من نهاية القرن الخامس حتى حوالي سنة ٥٦٦ م كتبها حينما كان راهباً في دير يوحنا في آمد ، وتشتمل على سير جماعة من معاصريه من القديسين ، وقد جمعت هذه السير في مجموعة واحدة حوالي سنة ٥٦٩ م كما يظهر مما أورده عن إدماج أديرة آمد أثناء الاضطهاد الذي وقع سنة ٥٢١ م ، والذي سجل سنة ٥٦٧م ، ومما كتبه عن تاريخ دير القديس يوحنا ، الذي يبتدىء منذ إنشائه سنة ٣٨٩ م حتى سنة ٥٦٨ م ومن بين أصحاب هذه السير : سمعان البيت ارشامي ، ويعقوب البردعي ويوحنا التلي ، وسويرس ، وثيودوسيوس ، وأنثيموس ، وسرجيوس ، وبولس . وقد نشر المستشرق لاند هذه السير ، وأضاف اليها ثلاث سير تنسب في بعض المخطوطات الأخرى الى يوحنا ، وهي سير : العذراء سوزان ، وماري ، وماخوس . أما سيرة يعقوب

البردعي المطولة التي نشرها لاند ، فالراجح أنها من عمل مؤلف آخر يغلب على الظن أنه مار تيداس العمودي راهب دير فسيلتا .

قورا

وُلد قورا في بَطنا ، وكتب — وهو قِسّ في الرُّها — تاريخاً عن عصر القيصرين يوستنيان الثاني وطيباريوس الثاني (٥٦٥ — ٥٨٢ م .) في ١٤ جزءاً ، وهو شرح مفصل لتاريخ الكنيسة . ويغلب على الظن أن ميخائيل الكبير مؤرخ القرن الثاني عشر قد استعان به وبتاريخ يوحنا الأفزوسي في تأليف تاريخه .

وهناك مصدران صغيران يرجعان الى القرن السادس نشأا في انطاكية ، ثم أضيف اليهما أسماء الخلفاء في القرن الثامن ، ولذلك فإنهما يعرفان بـ «كتاب الخلفاء» وقد ذكر جامع الكتابين في سياق حديثه سنة ٥٧٠ م . ويظهر أنهما يتناولان حوادث من القرن الخامس ، في وصف الزلزالين الكبيرين اللذين وقعا في انطاكية في سنتي ٤٥٦ و ٤٦٠ م . ثم ذكر حوادث وقعت حتى سنة ٥٢٩ م . وهي السنة التي رسم فيها بطرس أسقفاً على انطاكية . وأضيف اليهما تاريخ المجامع . ويظهر لنا من نقض المؤلف لقرارات مجمع كلقدونية أنه ألّف كتابه بعد عهد سويرس الأنطاكي ، وأنه من اليعاقبة .

قصة يوليانوس المرتد

في أوائل القرن السادس وُضعت قصة تاريخية مكوّنة من ثلاثة أقسام ، هي قصة قسطنطين الأكبر وأبنائه الثلاثة . وقد تناولت هذه القصة أسقفاً رومياً اسمه أوسابيوس وما تحمّله من اضطهاد فى عهد يوليانوس المرتد ، وما لقيه يوبنيانوس (أي جوفيانوس) في عهده القصير . وكاتب القصة راهب لعله عبديل رئيس شمامسة بعض نواحي ماحوزا ، كتبها لمستشار جوفيانوس المقرب واسمه أبلوريس أو أبلولاريس أو لعله أبوليناريس . واجماع العلماء على أنها كتبت فى مدينة الرُّها ، وذلك فيما يقول نولدكه لأن أوصاف المدينة التي وردت فى تلك القصة ، تطابق في كثير من الوجوه — ما أوردته الكتب الأخرى عن أوصاف مدينة الرُّها ، ويرجع تاريخ تأليفها الى ما بين سنتي ٥٠٢ و ٥٣٢ م .

وقد بقيت لنا هذه القصة فى مخطوط يرجع الى القرن السادس محفوظ بالمتحف البريطاني وبه كثير من النقص في القسم الأول الخاص بقسطنطين وأولاده الثلاثة ، فلم يبق الاّ الورقة الأخيرة منه . أما القسم الثاني ويتناول أوسابيوس أسقف روما ، وما لقيه من المصاعب على يدي يوليانوس المرتد . والقسم الثالث ويتحدث عن جوفيانوس قائد يوليانوس الذي خلفه على الدولة الرومانية فأعاد اليها المسيحية ، وكان المشارقة يسمونه يوبنيانوس . وقد بقي هذان القسمان كاملين تقريباً .

والغرض من كتابة القصة الاشادة بقوة انتصار المسيحية على الوثنية لكي تساعد على حمل الوثنيين على اعتناق المسيحية . وليست هذه القصة تاريخاً بالمعنى المفهوم من كلمة تاريخ ، وإنما هي رواية تاريخية ، أُخذ موضوعها من التاريخ وإن كانت لا تشتمل إلاَّ على قدر يسير من الحقائق التاريخية ؛ وإنما تقوم أكثر ما تقوم على المبالغة والاختلاق : فلم ترد فيها حادثة على حقيقتها ، بل أعمل المؤلف خياله في حوادثها ، فحذف من وقائعها حيناً ، وأضاف إليها في كثير من الأحيان . وقد نَعت المؤلفُ يوليانوس فيها بآلة الشيطان أو صنيعة الشيطان ، ونُعِت قائده المسيحي جوفيانوس بعبد الله .

وهذه القصة — في أغلب الظن — هي التي ينسبها كتّاب النساطرة مثل عبد يشوع الى المؤرخ الكنسي سقراط الذي ينسب إليه في فهرسه وضع تاريخ عن الامبراطورين قسطنطين وجوفيانوس . وقد كُتبت في أسلوب سرياني غاية في الاناقة، وصيغت في عبارة واضحة الى أبعد حد ، واشتملت على أجمل قطعة خطابية في اللغة السريانية ، ونستطيع أن نستنتج منها بسهولة شيئاً كثيراً عن تفكير الذين عاصروا المؤلف ، وأسلوبهم ، ونظام حياتهم . وقد كثر قراؤها في المشرق في القرون الوسطى . وكان لها تأثير شديد لا على المؤرخين من السريان كابن العبري الذي نقل عنها في تاريخه فحسب ، بل على المؤرخين من العرب أيضاً، فقد يكون من الغريب أن نعرف أن هذه القصة يجب أن تكون قد وصلت الى الطبري فى ترجمة عربية ، فقد تناولها فى الجزء الأول من تاريخه على أنها وثيقة تاريخية صحيحة . ونقل ابن الأثير عن الطبري فى الجزء الأول من كتابه «الكامل» ، وكذلك أبو الفدا فى كتابه «أخبار البشر» والظاهر أيضاً أن ابن واضح اليعقوبي قد نقل عن نفس

المصدر أيضاً فى تاريخه ، وكذلك المسعودي فى الجزء الثاني من « مروج الذهب » .

وكان انتشار هذه القصة حافزاً لمؤلف آخر ، لا نكون مغالين اذا نسبناه الى القرن السادس أيضاً على أن يضع قصة أخرى جعل يوليانوس بطلاً لها ، ولكنها أقل قيمة من السابقة . وقد بقيت لنا فى مخطوط من القرن السابع محفوظ فى المتحف البريطاني . وقد نشرها هوفمان مع القصة السابقة وترجمها نولدكه الى الألمانية .

تاريخ زكريا المدلي أو البليغ

وفى القرن السادس أيضاً قام يعقوبي من السريان بوضع مجموعة تاريخية، ضم اليها قسماً كبيراً من تاريخ الكنيسة الذي كتبه باليونانية زكريا البليغ فى نهاية القرن الخامس، متضمناً أخبار السنوات من ٤٣٦ الى ٤٩١ م . وقد وصلتنا الترجمة السريانية لتاريخ زكريا ضمن هذه المجموعة ،على حين ضاع أصله السرياني . ويقول واضع هـذه المجموعة إنه انتهى بتاريخه حتى حوادث سنة ٨٨٠ م . يونانية (أي سنة ٥٦٩ م .)

وكان زكريا يلقب بالمعلم نسبةً الى العمل الذي كان يقوم به في القسطنطينية ، ثم رسم أسقفاً على جزيرة مدلي لاعلى ملطية كما كان السريان يخطئون فيها دائماً . وقد وصل إلينا من أعماله الأدبية : حوار تحت عنوان « أمّونيوس » ورسالة في الرد على المانوية ، وهما باللغة اليونانية . وكتب سيرة تيودور من أنتينويا ، وسيرة أسقف ميومه بالقرب من غزة الذي توفى سنة ٤٨٨م ، وقد بقى منها بعض قطع بالسريانية . وكذلك بقي لنا ترجمة سريانية كاملة لرسالة عن سويرس الأنطاكي تشتمل على ذكرياته معه أيام طلب العلم ، وكذلك ترجمة سريانية لتاريخ الكنيسة الذي نحن بصدده ، والذي جاء ضمن هذه المجموعة التاريخية .

وهذه المجموعة مقسمة الى اثنى عشر كتاباً ، وقد وصلت إلينا في مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني ، يرجع الى نهاية القرن السادس أو بداية القرن السابع ، ويشتمل هذا المخطوط على الفصل الأخير من الكتاب العاشر ، وقد سقط منه الكتاب الحادي عشر بأجمعه ، أما الكتاب الثاني عشر فناقص في بدايته ونهايته . ويشغل تاريخ زكريا الكتب من ٣ الى ٦ من هذه المجموعة . أما الكتب الأخرى (الأول والثاني ، ومن السابع حتى

الثاني عشر) فمستقاة من مصادر مختلفة كموسى الأجيلي (٥٥٠ م — ٥٧٠ م) وسمعان البيت أرشامي ، ومارا الآمدي ، ورسالة سويرس الأنطاكي ، وكذلك يبدو أن فصولاً غير قليلة من الكتب من ٧ الى ١٠ قد أخذ بعضها من تاريخ الكنيسة ليوحنا الأفزوسي . وقد اعتمد الكتاب الأول وما يليه من هذه المجموعة على نصوص من الأساطير لا تجمع بينها صلة ، ولا يربط بينهما رابط . واشتملت الكتب من ٧ الى ١٢ على قصص أخرى ووثائق مختلفة تصل الى سنة ٥٦٩ م .

وقد نشر المستشرق لاند هذه المجموعة في كتابه «القصة السريانية» وقد اشتملت على:

الكتاب الأول — الفصل السادس : سيرة يوسف وأسنات قام بترجمتها الى السريانية موسى الأجيلي حوالي سنة ٥٧٠ م — الفصل السابع : سيرة القديس سلفستر وتعميد قسطنطين ، والمخطوط السرياني الذي يشتمل على هذه السيرة أقدم من المخطوطات اليونانية واللاتينية التي بقيت لنا فيها نفس السيرة . وقد نقلت هذه السيرة أيضاً في التاريخ المنسوب الى ديونسيوس التلمحري — الفصل الثامن : العثور على رفات الشهيد اسطفان .

الكتاب الثاني — الفصل الأول : نائمو افزوس السبعة أو أهل الكهف ، وتروى هذه القصة في اضطهادات عصر دوقيوس . وقد ظهر لها في الأدب السرياني نصان رئيسان ، وقصيدة شعرية من وضع يعقوب السروجي . أما أحد النصين فهو الوارد في هذا الفصل وعنه فيما يظهر أخذ ميخائيل السرياني مؤرخ القرن الثاني عشر . والنص الثاني موجود في التاريخ المنسوب الى ديونسيوس التلمحري ، وهو مأخوذ غالباً عن تاريخ يوحنا الأسيوي. ويشتمل على القسم الأول . أما القسم الثاني فقد نشره جويدي الكبير مع غيره من النصوص الشرقية المتعلقة بهذه القصة: القبطية والعربية والحبشية والأرمنية . وفي المكتبة الأهلية بباريس مخطوط يشتمل على نص ثالث به بعض اختلافات عديمة الأهمية . وقد ضمّن ابن العبري كتابه تاريخ الكنيسة ملخصاً لهذه القصة فيه بعض الاختلاف في أسماء الأعلام . وتشتمل قصيدة يعقوب السروجي على تفصيلات لا توجد في النصوص جميعاً ، وربما كانت من وضع المؤلف ، وهي من جهة أخرى تلخص بعض ما ورد مفصلاً في النصوص ويرى نولدكه أن النص الثاني هو أصل القصة .

الكتاب الثامن — الفصل الثالث : شهداء حمير ، وقد مرّ بنا موضوعهم عند الحديث عن سمعان البيت أرشامي (أنظر ص ١٤٢) .

الكتاب العاشر — الفصل الرابع : خطاب ربولا الى جمليانوس أسقف فارين

(انظر ص ١٠١) — الفصل الخامس عشر : استيلاء ملك القوط وطليطلة على روما — الفصل السادس عشر : وصف أبنية روما وفيه وصف لتخطيط العاصمة الايطالية .

الكتاب الثاني عشر — الفصل السابع : وصف بطليموس للعالم مع استطراد عن انتشار المسيحية في شمال البحر الأسود وبحر قزوين .

أما الكتب التي تشتمل على تاريخ زكريا والكتب التي تليها والتي تُروى فيها الحوادث التي عكرت صفو كنيسة اليعاقبة في مصر وسوريا في القرنين الخامس والسادس فتكوّن قسماً هامّاً من هذه المجموعة لأنها تعد تكملة لتاريخ يوحنا الأسيوي

وقد اشتمل أحد مخطوطات المتحف البريطاني على قطعة عن موت تيودوسيوس أسقف بيت المقدس ، وتاريخ لعيسى الناسك وهما من تاريخ زكريا .

تاريخ أوسابيوس

وقد بقيت لنا الترجمة السريانية لتاريخ أوسابيوس مع شيء من النقص في مخطوطين أساسيين كانا في مكتبة دير السريان بوادي النطرون . أما أحدهما — ويعد من أقدم المخطوطات السريانية — فمحفوظ في مكتبة بطرس برج (لننجراد الآن) وتاريخه سنة ٤٦٢ م . ويشتمل على كتب أوسابيوس العشرة في تاريخ الكنيسة ماعدا الكتاب السادس . يضاف الى ذلك أنه لم يبق من الكتابين الخامس والسابع غير قطع قليلة . وأما ثاني المخطوطين فهو الآن في المتحف البريطاني ، ويشتمل على الكتب الخمسة الأولى . ومع ذلك فهناك بعض النقص في الكتاب الأول كفهارس الفصول الثلاثة الأول . والى جانب هذين المخطوطين هناك عدد من القطع متناثرة في بعض مخطوطات المتحف البريطاني . وأهمها الفصول السادس عشر والسابع عشر والخامس والعشرين من الكتاب السادس التي يشتمل عليها المخطوط

وقد عملت هذه الترجمة عن أصل يوناني يظهر أنه كان يشتمل على كثير من الاختلافات التي تجعله في بعض الأحيان أفضل من النص اليوناني الذي وصل إلينا لأنها تتميز بدقتها . وعن هذه الترجمة السريانية أخذت ترجمة أرمنية تمتاز بقدمها ودقتها ، الى جانب كونها كاملة ، ولهذا فهي ذات فائدة عظيمة في إكمال الترجمة السريانية . وهناك ما يحمل على الاعتقاد أن الترجمة السريانية يجب أن تكون قد وجدت قبل ظهور الترجمة الارمنية

بقرن على الأقل ، بل لعلها عملت في حياة أوسابيوس نفسه أو بعد موته بقليل .

وكان المستشرق الانجليزي رايت قد أعدّ الترجمة السريانية للنشر ، ولكن الموت عاجله قبل أن يتم إخراجها ، فقام المستشرقان ماكلين ومركس بإخراجها — مع مقارنة الترجمتين السريانية والأرمنية — في كمبردج سنة ١٨٩٨ .

وقد ذكر عبد يشوع في فهرسه أن هناك ترجمة سريانية لتاريخ أوسابيوس من عمل سمعان البيت جرمي الذي عاش في مطلع القرن السابع ، ولكن يظهر أن هذه الترجمة قد ضاعت .

***

ولم يقصّر كتّاب السريان من النساطرة قبل الاسلام في كتابة التاريخ . فظهر تاريخ مشيحا زخا من حذيّب . وتاريخ كرخ بيت سلوك (كركوك الآن) لكاتب مجهول ، وهما يمثلان التاريخ المحلي . وتُرجم تاريخ الكنيسة لبرسهدا وشمعون برقايا عن اليونانية . وظهر تاريخ تأسيس المدارس اللاهوتية والنزاع الكنسي فيما بين القرنين الرابع والسادس ، في كتابات مؤلفَين تسمّى كل منهما باسم برحذبشبّا . وظهرت سير مستقلة لكبار رجال الكنيسة على نسق سير الشهداء . وكذلك ألّف بابا الكبير سيراً أدبية للرهبان . والظاهر أن كلاً من الجاثليقين سبر يشوع الأول وجريجور الكشكري قد ألّف تاريخاً للكنيسة ، ولم يبق لنا منهما إلاّ نص من التاريخ الأول عن مقابلة سبر يشوع للقيصر موريقي .

* أما مشيحا زخا [1] فكان من رهبان دير جبل الأزل ، فلما طرده بابي رئيس الشمامسة من الدير هو وكثير من رفقائه رحل الى مقاطعة داسن وأسس ديراً هناك كان يعرف باسم بيت ربّن زخا إيشوع ، أو على سبيل الاختصار باسم بيت ربّن . ألّف — بعد عودة مار أبّا من سوسه ، وقبل موت ابراهام قريب نرسي أي بين سنتي ٥٥١ و ٥٦٩ م — تاريخاً لكنيسة حذيب بوجه خاص ، وصل الينا في مخطوط ينقص من أوله وآخره ويتناول تاريخ مطارنة أربل ، وهو يظهر نشأة المسيحية على الشاطىء الغربي للدجلة . ويذكر عبد يشوع أن المؤلف كان دقيقاً فيما سجله . ويظهر انه اعتمد على معلم قديم اسمه هابيل على

(١) يسمى أيضاً إيشوع زخا أو زخا إيشوع

معرفة تامة بالعصر الارشكي ، وهو يتحدث في بعض رواياته عن الماضي ، وقد عاصر هابيل جيلين من الناس بعد سنة ٣٥١ م إن صح أنه بكى أبناء ابنائه الذين كانوا في طليعة من استشهدوا في اضطهاد شابور الكبير . وقد نشر منجانا هذا التاريخ مع ترجمة له في ليبزج سنة ١٩٠٨ . ونشر زاخاو ترجمة المانية له مع مقدمة هامة في برلين سنة ١٩١٥ .

* أما تاريخ كرخ بيت سلوك وشهدائها فلا يعرف مؤلفه، ويشتمل على تاريخ مطارنة مقاطعة بيت جرمي . وكان أحدَ المصادر التي اعتمد عليها مشيحا زخا في تاريخه . ويتضمن تاريخ مدينة الكرخ منذ أسسها الأشوريون ، وتاريخ أساقفتها المسيحيين . وسرد مطوَّل لما لقيه المسيحيون من تعذيب وآلام سنة ٤٤٦م . في عهد يزدجرد الثاني . وانتهى المؤلف من كتابه هذا في بداية القرن السادس. وقد نشره المستشرق موسنجر ، ونشر بروكلمان بعضه في مختاراته السريانية .

* أما برسهدا فكان من كرخ بيت سلوك . وقد ذكر عبد يشوع أنه كتب رسالة في الرد على الزرادشتية ، وتاريخاً للكنيسة ، بقيت لنا منه نبذة عن اضطهاد المسيحيين من أهل حمير . أما المقتطفات التي تنقل عنه في كتب أخرى فالغالب أنها كتبت في العصر الاسلامي ولهذا نرجح أنها ليست صحيحة النسبة اليه . وليس فيما لدينا من المصادر ما يبرر ما ذهب اليه السمعاني من أن برسهدا قد ألف كتاباته في أيام الجاثليق فثيون (٧٣١ — ٧٤١م) . وقد نشرت بعض مقتطفات من هذا التاريخ في المجلة الاسيوية .

* أما سمعان برقايا أو الجرمقاني نسبة الى بيت جرمي فيذكر عنه الياس بن شينايا في تاريخه أنه ألف تاريخاً في كتابين على الأقل في عهد كسرى الثاني برويز (٥٩٠—٦٢٨م) والراجح أنه ترجمه عن اليونانية وأنه أصبح مرجعاً للنساطرة .

* أما عن برحذ بشبّا فالمقول أن هناك اثنين بهذا الاسم، وأن كلاً منها يُنعت بأسقف حلوان، وانهما عاشا في عصر واحد تقريباً ، وأن كلاً منهما وضع كتاباً في التاريخ وأن موضوع الكتابين واحد تقريباً.

أما الأول فقد اشترك سنة ٦٠٥ م في المجمع الذي عقده الجاثليق جريجور . وهو مؤلف كتاب عن سبب تأسيس المدارس . وقد رجع في كتابته عن هذا الموضوع

الى آدم وتعليم الله له . والقسم الأخير من هذا الكتاب له قيمة كبيرة في سرد تاريخ مدرسة نصيبين . وقد نعت برحذ بشبّا نفسه بأنه تلميذ حنانا ، وأنه كتب كتابه في الفترة التي كان حنانا فيها مديراً لمدرسة نصيبين ولكنه لم يذكر شيئاً عن الجدل الذي قام حول حنانا . وقد نشر أدّى شير هذا الكتاب .

* أما الثاني فهو برحذبشبّا من بيت عربايا (ويُنعت أيضاً بأسقف حلوان) كتب كتاباً سماه كتاب الكنوز في ثلاثة أجزاء ، ولم يُعرف مضمونه ، ورسالة في الرد على الوثنيين والهراطقة ، وشروح على انجيل مرقس والمزامير ، ومقالات في ذكرى أعياد المعلمين اليونان ، وكتاب في تاريخ الكنيسة في ٣٢ باباً ، وقد ذكر في العنوان أن المؤلف هو معلم مدرسة نصيبين وأن الكتاب هو « حقيقة تاريخ الآباء المضطهدين » من عهد التضليل الأريوسي الى ابراهام قريب نرسي . وهو في الواقع تاريخ لمدرسة نصيبين ، ولذلك فقد اختلط الأمر بينه وبين كتاب المؤلف السابق . ومهما يكن من شيء ، فان التفريق بين كاتبين باسم واحد ، تناولا موضوعاً واحداً ، مشكلة تنتظر الحل . هذا الى جانب أن الآراء تختلف في دوائر مدرسة نصيبين حول الترتيب الزمني للذين تولوا الاشراف على المدرسة في أواخر القرن السادس .

* وكان بابي الكبير أكثر كتّاب النساطرة إنتاجاً في هذه الفترة . وُلد لأبوين من أثرياء المسيحيين في قرية بيت عيناثا (أو باعيناثا) من أعمال بيت زبدي . درس ١٥ عاماً في مدرسة بيت زبدي ، ثم درس في مدرسة بالقرب من نصيبين ودخل دير الأزل أيام إبراهام الكشكري . ثم رجع الى وطنه حيث أنشأ ديراً هناك ، ومنه عاود الرجوع الى دير الأزل ليخلف دَذْ يشوع في رياسة الدير . ولما توفى الجاثليق جريجور الكشكري سنة ٦٠٧ م . تبع ذلك فترة اضطهاد فمنع الملك انتخاب خلف له . فاجتمع الأساقفة وألحوا على بابي في أن يتولى إدارة الكنيسة مع رئيس الشمامسة . ولما قتل خسرو سنة ٦٢٨ م . انتخب بابي جاثليقا ، ولكنه لم يقبل الجثلقة ، وتوفى بعد ذلك بقليل في السابعة والسبعين من عمره وقد ذكر عبد يشوع أنّ له ٨٣ مجلداً ، وذكر توما المرجى أنها ٨٤ مجلداً . وقد بقي لنا منها : كتاب في العقيدة يدافع فيه عن المذهب النسطوري : ومقال في حياة الرهبنة .

وكتاب في تاريخ الراهب جيورجيس الذي استشهد سنة ٦١٢ م. ومجموعة من سير الشهداء ورجال الدين كتبها خلال ٣٣ عاماً، وشروح على الكتاب المقدس، وقوانين للرهبان، وتنسب اليه مقالات في ذكرى بعض الأعياد، ورسالة بعث بها الأساقفة الى الملك سنة ٦١٢ م. عن شرح العقيدة. أما كتاباته المنظومة فله بعض التسابيح، وميمر عن آباء الكنيسة اليونان

* وقد استشهد جماعة في هذا القرن أيام كسرى الأول حوالي سنة ٥٤٢م وسجلت سيرهم فيما بعد، أمثال جريجور ويزدپاناه، ولهذه السير قيمة تاريخية، وإن كان مؤلفوها من غير المعاصرين. وهناك سير يغلب عليها الطابع القصصي، نرجع نشأتها الى هذا القرن وتتضمن حوادث الاضطهاد الذي وقع أيام شابور الثاني، وتتناول أبطالاً من عظماء الفرس وأمراء البيت المالك ممن اعتنقوا المسيحية، وتكشف عن أسباب تأسيس بعض الأديرة، الى جانب بعض التفاصيل الجغرافية والتاريخية القيّمة في تاريخ « قردج » حاكم حذيّب الذي اعتنق المسيحية، وأستاذه عبد يشوع. وسيرة الأمير جوبرلاها وأخته قازو. وقطعة عن استشهاد داذو. وسير مار مُعَين، ومار سابا فرجُشنسف، والمبشر سابا جوشنيزدَذْ الذي استشهد سنة ٤٠٨ م. ولكنها كتبت بعد ذلك بقرن ونصف بعد تولي شروان بن كسرى سنة ٦٢٨ م.

* والى جانب سير الشهداء، سجلت منذ منتصف القرن السادس سير اثنين من رؤساء الكنيسة هما: مار إيباس الأول، وسبريشوع الأول. الأولى كتبها مؤلف مجهول في صورة خطبة، والثانية كتبها بطرس الراهب وقد نشرهما بدجان

خاتمة هذا العصر

ينتهي العصر الذي نؤرخ للأدب السرياني فيه في هذا الكتاب بالفتح الاسلامي للبلاد التي كان أهلها يتكلمون السريانية، أي حوالي منتصف القرن السابع. وقد ظهر في هذه الحقبة من الزمن، عدد من كتّاب النساطرة كانت كثرتهم من المؤرخين، ولذلك عرضنا لهم في الصفحات القليلة الماضية. وكذلك قام عدد من اليعاقبة في مصر ببعض الأعمال الأدبية: فتحدّثنا المصادر أن البطرق اثناسيوس الأول كلّف بولس التلي، وتوما

الحرقلي بعمل ترجمة سريانية للكتاب المقدس عن النص اليوناني . وأن أهرون القس كان يؤلف في الطب في نفس هذا العصر . وفي قبرص تابع بولس الرّهاوي ترجمة الأدب اللاهوتي . وانه عني في هذه الفترة أيضاً بشرح الكتاب المقدس وكتابة القصص والشعر .

* وكان البطرق اثناسيوس الأول يسمى جمّالا . ولد في سميساط ، وترهب في قنسرين ورُسم بطرقاً سنة ٥٩٤ م وكان يقيم وهو بطرق في دير مار زكّي بالقرب من الرقة عمل سنة ٦٠٩ م على التوفيق بين الكنيستين اليعقوبية والقبطية في مصر . ولعله عاد الى مصر ثانية في شتاء سنة ٦١٦ م . كتب سيرة لسويرس الأنطاكي ، بقيت لنا منها بعض مقطوعات بالقبطية ، وترجمة حبشية كاملة .

* واشتغل بولس التلّي بترجمة الطقوس ، فقام بترجمة طقس للعماد من وضع سويرس الأنطاكي ؛ وله طقس أصلي ، وظنّ العلماء أنه أول من ترجم العهد القديم عن اليونانية ترجمة جديدة في الاسكندرية بتعضيد أثناسيوس الأول فيما بين سنتي ٦١٥ م و ٦١٧ م .

* وقد ترجم الحارث بن سنان نصًّا سريانيًّا للتوراة من القرن السابع الى اللغة العربية .

* ودرس توما الحرقلي اللغة اليونانية في قنسرين ، وترهّب في دير ترعيل ، ثم رسم أسقفاً لمنبج ، وطرده القيصر موريقي قبل سنة ٦٠٢ م . فهاجر الى مصر ، وفي سنة ٦٠٩ م . لعب دوراً في التوفيق الذي قام به اثناسيوس بين الكنيستين اليعقوبية والقبطية . وفي سنة ٦١٥ م . قام في دير القديس أنطون بالاسكندرية بمراجعة الترجمة الفلوكسينية للعهد الجديد مع بعض المعاونين الذين لم تصل إلينا أسماؤهم .

* وألّف أهرون القس في عصر القيصر هرقل (٦١٠ م — ٦٤١ م.) كتاباً في الطب ، اسمه كتاب « الكناش » يشتمل على ٣٠ فصلاً ، وقد ترجمه ماسرجويه الى العربية وكان ماسرجويه ، فارسيًّا يهوديًّا يجيد السريانية . وزاد عليه فصلين ، وقد بلغ شهرة واسعة . وقد اعتقد العرب أن أصله سرياني ، ويذكر ابن العبري أن هذا الكتاب موجود بالسريانية . وقد تحمل هذه العبارة في طياتها أن الترجمة العربية مأخوذة عن أصل يوناني لا سرياني . ويذكر بعض مؤرخي العرب أن جاسيوس هو الذي ترجم هذا الكتاب من اليونانية الى السريانية . وذكر بر بهلول أن أهرون لم يكن سريانيًّا وأنه كان يكتب باليونانية .

* ورُسم بولس الرّهاوي أسقفاً على الرّها سنة ٦٠٢ م . وهرب أمام الفرس عند

احتلالهم للرّها سنة ٦١٩ م . ، والتجأ الى قبرص ، وفيها ترجم بعض الطقوس ترجمة راعى فيها جَرْس الموسيقى الكنسية . وقد سماه اليعاقبة مفسر الكتب .

* وقد ظهرت في هذه الفترة شروح لمؤلف غير معروف للعهد القديم والأناجيل ورسائل بولس يغلب على الظن أنها كتبت فيما بين سنتي ٦١٧ و ٦٥١ م .

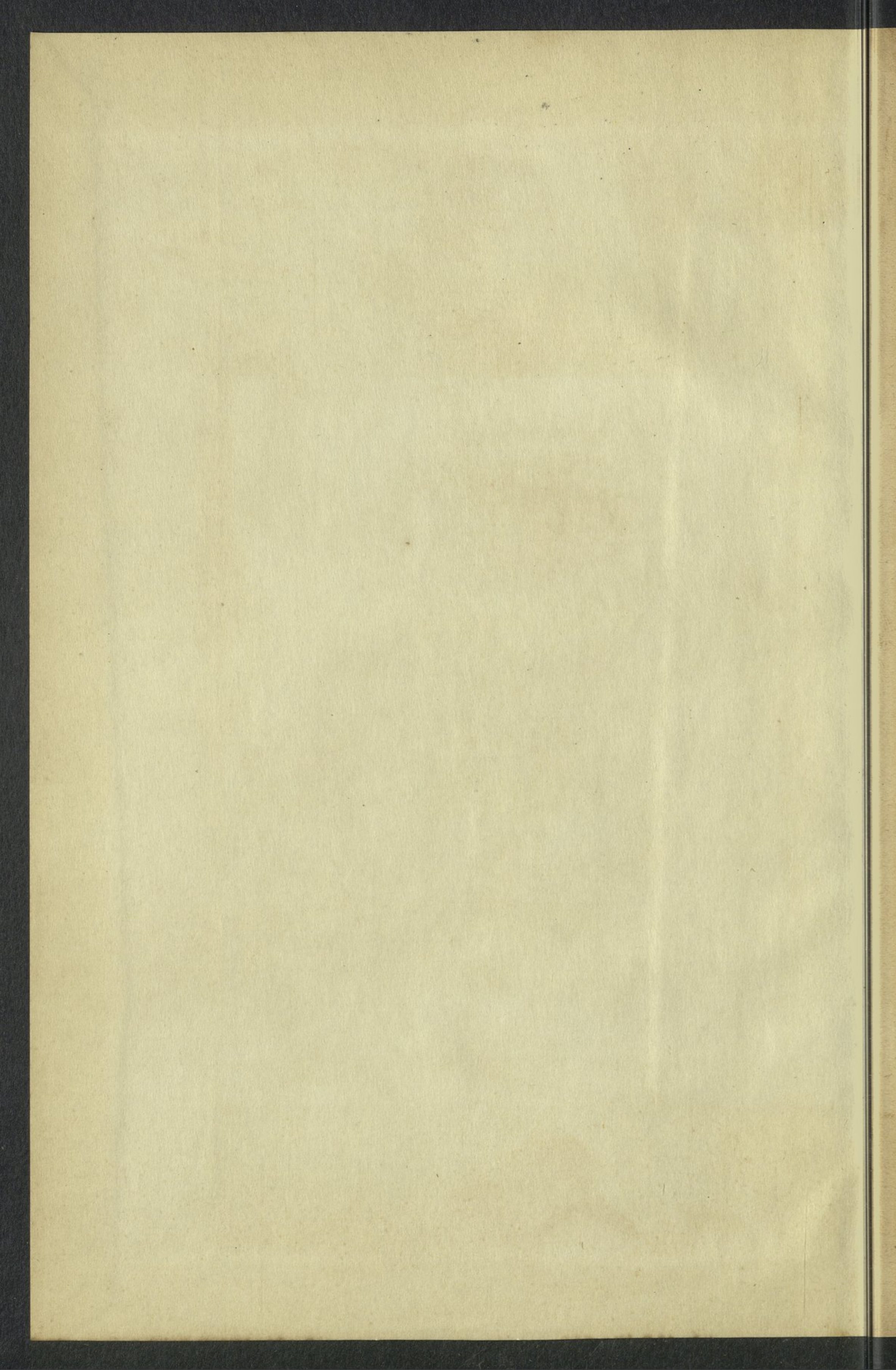
* كذلك ظهر في هذه الفترة ميمر شعري يعقوبي عنوانه «ترنيمة الاسكندر» أضيف خطأ الى يعقوب السروجي وهو مكوّن من فقرات تشتمل كل واحدة منها على أربعة أبيات من ذات الاثنى عشر مقطعاً ، تناول فيه الحديث عن الاسكندر وحربه في الهند ولكنه صبغ القصة بالصبغة المسيحية ، والراجح أنه أُلّف فيما بين سنتي ٦٢٨ و ٦٣٧ م .

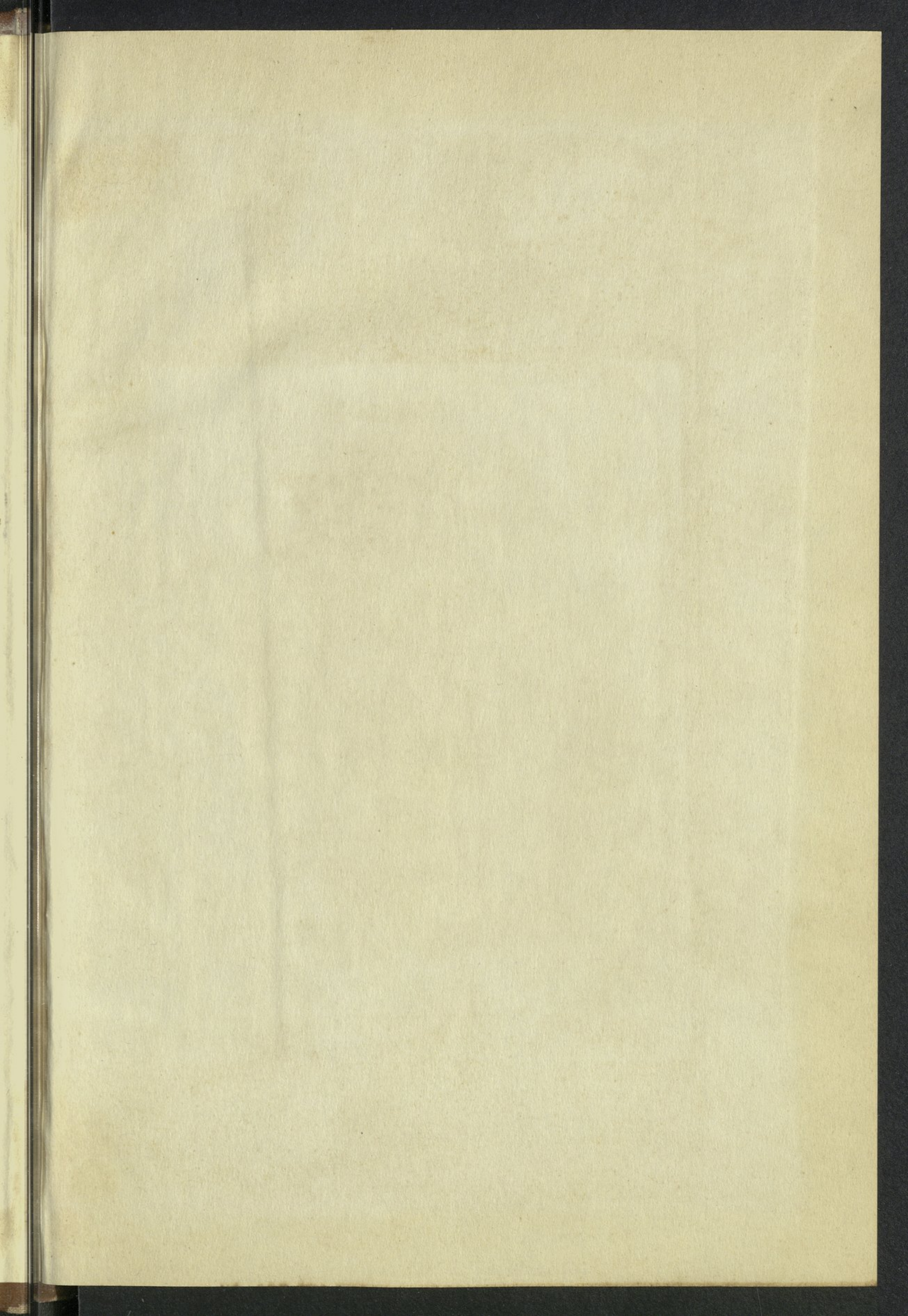
وهناك ميمر آخر على وزن الاثنى عشر مقطعاً عن بعض آباء الكنيسة المصرية ولكن لا يعرف مؤلفه على وجه التحقيق .

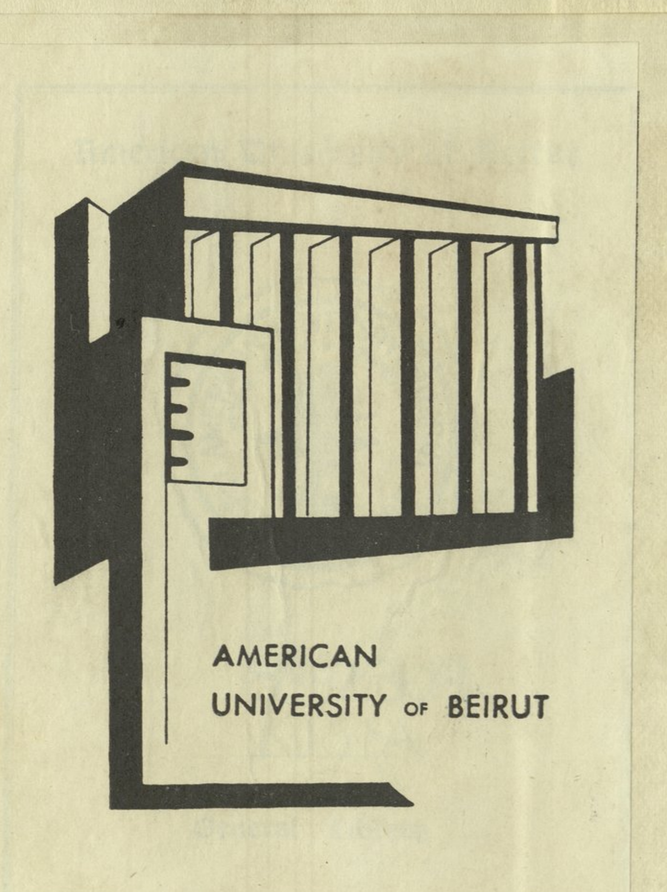
* وفي هذه الفترة أيضاً انتشر القصص في الأدب السرياني عند اليعاقبة والنساطرة على السواء . وعرفت كذلك سير قصصية : منها سيَر القديس مارينا ، وهيلاريا الذي عاش في دير مصري كانت تترهب فيه ابنة القيصر زينون ، وقد تسمى باسم الراهب يوحنا ، وأرخليدس الذي ظهرت له أيضاً منظومة من شعر المآسي في مصر ، عن هربه من روما الى أديرة فلسطين . وقد عرفت هذه القصة في النثر العربي والحبشي .

أما في جنوب غربي سوريا فقد ظهرت قصة بهنام وسارة، وهما طفلان للملك الأشوري سنحاريب ، وسيرة مار متى الذي سمي باسمه دير على جبل افيفة بالقرب من الموصل ، وسيرة أهرون السروجي الذي كان يعيش في الجبل المبارك بالقرب من ملطية ، ويرجع الفضل في بقاء هذه القصة الى الطبيب دومتيوس الذي كان يعيش في عصر القيصر واليس ؛ وسيرة يعقوب المصري الذي أنشأ نظام الرهبنة المصرية فى اقليم ما بين النهرين ، وهو منافس اوجين الذي ظهر حوله بعض القصص النسطوري ، وسيرة سمعان من كفر عبدين ، وهو من دير بالقرب من الرها ، وسيرة أها الذي كان بطلها معاصراً للقيصر مرقيانوس ، وقصة نهاية حكم القيصر موريقي سنة ٦٠٢ م . وليس هناك شك في أن نصوص هذه السير قد ظهرت في العصر الذي انتشرت فيه الدعوة اليعقوبية في الدولة الساسانية ، في السنوات القليلة السابقة على ظهور الاسلام .








AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

